

تفسير من هدى القرآن

المجمع الديني آية الله العظمى
سيد محمد قمي المدني

الجزء التاسع

سور الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن النبي محمد صلى الله عليه وآله قال:

"أعطيت [ال] سورة التي يذكر فيها البقرة من الذكر الأول ، و أعطيت طه وطواسين من ألواح موسى ، و أعطيت فواتح القرآن ، و خواتيم السورة التي يذكر فيها البقرة من تحت العرش ، و أعطيت المفصلة نافلة " (مجمع البيان / ص ١٨٣ / ج ٧)

وروى ابو بصير عن ابي عبد الله (ع) قال:

"من قرأ الطواسيسن الثلاث ليلة الجمعة كان من أولياء الله ، و في جواره و كنفه ، و أسكنه الله في جنة عدن ، وسط الجنة مع النبيين و المرسلين و الوصيين الراشدين ، ولم يصبه في الدنيا يؤس أبدا ، و أعطي في الآخرة من الأجر الجنة حتى يرضى ، و فوق رضاه ، و زوجه الله مائة حوراء من الحور العين"

(المصدر)

الاطار العام

الاسم :سميت هذه السورة باسم " الشعراء " لان السورة تتحدث عن رسالات الله في مواجهة ثقافا

تدور آيات هذه السورة حول رسالات الله ، على نهج سورة الفرقان و لكن بتفصيل أكثر ، و ضمن بيان الصراع بينها و بين الكيانات الجاهلية ذات الثقافة المنحرفة.

و بعد أن تذكرنا فاتحة السورة بالله ، تبين حرص النبي على هداية الناس ، و تؤكد ان الله لا يكرههم على الهدى ، و تبين من صفات الرب إسمي العزة و الرحمة اللذين يتجليان في الطبيعة و في الصراع.

و يقص علينا السياق أنباء النبيين ، و تنتهي كل قصة بذكر هذين الإسمين الكريمين ، و تؤكد بأن في تلك القصص آيات ، و لكن أغلب الناس لا يؤمنون.

و تنتهي السورة بأمر الرسول بالتوكل على العزيز الرحيم.

في قصة موسى يأمر الله موسى بحمل رسالته الى فرعون ، و يبين موسى عقبات الطريق ، و الله ينفذها بكل .. و يعده بالنصر ، و يحاور موسى فرعون برسالة الله ، و يجادل فرعون بما يملك من قوة.

و يبدو ان لكل رسالة محتوى إجتماعي ، هدفه إصلاح نوع الفساد المنتشر في المجتمع ، فقد حارب

موسى العنصرية و الإستكبار ، و إبراهيم الوثنية و الرجعية ، و نوح الطبقية و العناد ، و هود العنثية و التجبر ، و صالح الإسراف و الفساد ، و لوط الشذوذ و الإباحية ، و شعيب الغش و التطفيف.

و لعل هذه المفاسد متدرجة في خطورتها حسب هذا الترتيب الذي نجده في سورة الشعراء.

و يجري الحوار بين النبي و قومه ، و يعاندونه ، و يهدونه ، و في لحظة الحسم ينصر الله النبي و المؤمنين ، و يأخذ الكافرين بعذاب شديد ، و لعل العذاب يتناسب و نوع الفساد.

و يبدأ النبي بالتذكرة بالله ، و الأمر بتقواه و طاعته ، و ينذرهم عذاب ربهم.

و يؤكد الأنبياء على أنهم لا يطالبونهم بأجر ، و إنما أجرهم على الله ، و بالتالي لا يدعون للناس مجالاً للشك في صدق رسالاتهم ، و بالإضافة الى ذلك فإن هناك شواهد على صدق رسالات الله ، فهي تدعو الى الله ، و تتعالى على حواجز الدم ، و الأرض ، و الزمن ، و هي تتحدى بقوة الله كل القوى مما يستحيل على البشر ، و تحارب الفساد الأكبر في المجتمع.

ويد الغيب تمتد لنصرتهم في الوقت المناسب بإهلاك أعدائهم ، هذا بالإضافة الى قوة الحجة ، و سلامة السلوك ، و المعاجز الظاهرة كالعصى ، و الناقة ، و خمودالنيران ، و انفلاق البحر ، و الطوفان.

وفي خاتمة السورة يبين ربنا : أن القرآن أنزله رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، و بلغة عربية مبينة ، و قد شهد على صدقه علماء بني اسرائيل.

و بعد أن بين الفروق الأساسية بين وحي الحق ، و افكار الشيطان ، و أمره الرسول بإنذار عشيرته ، و العطف على المؤمنين ، و البراءة من العصاة ، و التوكل على العزيز الرحيم ، بعدئذ يبين القرآن ميزات وحي الشيطان الذي يتنزل على كل أفك أئيم ، و ان الشعراء (أدعياء العلم و الدين) إنما يتبعهم الغاؤون ، و يعتهم بالإسترسال و اللامسؤولية ، و تختم السورة بأن الظالمين سيعلمون اي منقلب ينقلبون.

انا معكم مستمعون

هدى من الآيات

كلما ازدادت معرفتك بالله كلما توسعت آفاق إيمانك ، و عرفت المزيد من اسرار السموات و الأرض ، و هكذا كان:

"أول الدين معرفته(1) "

و تفتتح هذه السورة التي تحدثنا عن رسالات الله كما سورة الفرقان بالتذكرة بالله لأنها السبيل الى معرفة الوحي.

و يمضي السياق في بيان حرص النبي على هداية قومه ، حتى ليكاد يهلك نفسه ، و يسليه بأن حكمة الله قضت بأن يكون الناس أحرارا ، و إلا فهو قادر على ان ينزل عليهم آية يكرههم بها على الايمان ، ولكنهم لن يهربوا من جزاء أعمالهم.

(1) نهج البلاغة / خ / ١ / ص ٣٩ / صبحي الصالح.

ويعود السياق يذكرنا بربنا الذي أنبت الأرض من كل زوج بهيج ، لعلنا نهتدي الى ربنا بهذه الآية ، و نعرف أنه العزيز الرحيم ، و نعرف بالتالي أنه أرسل بعزته و رحمته أنبياء ، فقد أمر موسى (ع) بأن يأتي الظالمين من قوم فرعون ، و يحذرهم عذاب الله ، ولكن موسخشي تكذيبهم ، و خاف أن يضيق صدره ، ولا ينطلق لسان بكل معاني الرسالة ، و طلب أن يكون أخوه هارون معه رسولا ، و طلب العون من الله لمواجهة خطر الموت على يدهم ، لأنه قتل منهم شخصا ، و جاءه النداء : كلا .. و عاد الرب و أمره بالذهاب اليهم ، وطمأنهم بأنه سيكون معهم.

بينات من الآيات

[1] [طسم]

تحدثنا عن الحروف المقطعة في القرآن أكثر من مرة ، و قلنا : انها اشارة الى القرآن ، و انها رموز بين الله و اوليائه .

و جاء في الحديث المأثور عن الصادق (عليه السلام):

"وأما طسم : فمعناه : انا الطالب ، السميع ، المبدى ، المعيد " (١) [٢] تلك آيات الكتاب المبين]

تأتي هذه في الجملة الأغلب بعد الحروف المقطعة ، مما يدعوننا الى الاعتقاد بأن المعنى الظاهر لتلك الحروف هو الاشارة إلى القرآن و حروفه.

[3] لأن إخلاص الرسول شديد لرسالة ربه ، و حرصه على مصلحة الناس(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٤

عظيم ، فهو يكاد يهلك نفسه حينما يرى كفر الناس بالرسالة.

[لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين]

[4] ولكن هل الرسول قادر على ما يريده من ايمان الناس بالرسالة من دون اذن الله ، كلا .. لأن الله منح الناس حرية القرار ، و لم يرد إكراههم على الإيمان ، و دليل ذلك أنه لا ينزل عليهم عذابا غليظا يجعلهم خاضعين للحق.

[إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين] و لكن ربنا شاء ان يؤمنوا بكامل حريتهم ، و لو أنزل عليهم عذابا فأمنوا خشية وقوعه عليهم لم يكن ينفعهم إيمانهم ، انما ينفع الإيمان إذا جاء بلا إكراه.

روي عن أمير المؤمنين - عليه السلام - انه قال وهو يتحدث عن الانبياء و حكمة الابتلاء:

"ولو اراد الله - جل ثناؤه - حين بعثهم ، ان يفتح لهم كنوز الذهبان ، و معادن البلدان ، و مغارس الجنان ، وان يحشر طير السماء ، و وحش الأرض معهم لفعل ، و لو فعل لسقط البلاء ، و بطل الجزاء ، و اضمحل الابتلاء ، و لما وجب للقائلين أجور المبتلين ، ولا لحق المؤمنين ثواب المحسنين ، ولا لزمتم الأسماء أهاليها على معنى مبين ، و لذلك لو أنزل الله من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، ولو فعل لسقط البلوى عن الناس اجمعين " (١) [٥] رسالات الله تستثير العقل ، و تستنهض الفطرة ، و تطهر القلب من روااسب(١) (المصدر / ص ٤٦.

التقليد ، و تفك القيود و الاغلال التي تمنع الانطلاق ، و أولئك الذين يكفرون بها إنما يعرضون عن ذكرهم ، و يتشبثون بالتقاليد البالية.

[وما ياتيهم من ذكر من الرحمن]

و قد سمى الله القرآن ذكرا لأنه يقوم بدور المنبه للإنسان ، كمن يمشي في ظلام و هو يملك مصباحا غفل عنه ، فبأنيبه من يذكره بمصباحه.

[محدث]

بالرغم من ان رسالات الله واحدة عبر القرون حتى ان الجاهلين قالوا : إن هي الا اساطير الأولين ، إلا أن الذكر القرآني محدث ، و جديد ، لماذا ؟

اولا : لان القرآن جاء بعد هجعة من البشر ، حيث فترت علاقاتها بالقيم ، فكان ذكرا جديدا.

ثانيا :لأن رسالات الله تدعو الى العقل ، و العقل إمام الإنسان الذي يقوده إلى الأمام ايدا ، و الذي يفك به البشر قيود التقليد ، و أغلال الجمود ، لذلك كانت تصطمم الرسالات الإلهية بالتقاليد حيث كانوا يعرضون عنها.

[إلا كانوا عنه معرضين]

[6] أنهم تشبثوا بالماضي و استهزؤوا بالمحدث ، فكذبوا بالرسالة ، و سبأتيهم خبرها : أنها ستعلو على باطلهم ، و سيندمون ولكن عينا.

[فقد كذبوا فسبأتيهم انباؤا ما كانوا به يستهزءون] [7] ولو نظروا في آيات الله ، و عرفوا ربهم من خلالها ، و آمنوا بأسمائه الحسنى ،لما كذبوا.

لو كانت نظرة الإنسان الى الخلق من حوله سليمة لعرف صدق رسالات الله ، لأنها تعبير صادق عن سنن الله في خلقه.

[أولم يروا إلى الأرض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم]سر في الأرض ، و اطلع على حقل ناضر ، و وقف عند شجرة مثمرة ، ماذا ترى ؟ أنها جد متكاملة ، تضرب بجذورها في الأرض ، و تقوم على ساقها الغليظة ، و تنشر فروعها من حولها بتناسق ، و تتحدى الرياح و الأنواء والأفات بعشرات من الأنظمة التي أودعها الرب فيها ، ثمماذا ترى ؟ ترى ان هذه الشجرة - بالرغم من تكاملها الكريم - بحاجة الى زوج تتكامل به . كيف جعلها الله غنية و كريمة من كل جانب ، و كيف جعلها محتاجة الى غيرها في هذا الجانب بالذات.

أو ليس في ذلك دليل يهدينا الى ربنا ، و الى أنه رحيم ، وآية رحمته تكاملية نعمه و شموليتها ، و انه عزيز وآية عزته انه جعل كل شيء في الخلق محتاجا الى غيره ، فخلق من كل شيء زوجين اثنين ليهدينا إلى أنه وحده العزيز الغني سبحانه.

[8] [إن في ذلك لآية]

أنها تكفي الانسان حجة لوبحث عن الحجة ، ودليلا لو انه اهتدى بدليل ، و لكن أكثر الناس لا يبحثون عن حجة ، ولا يريدون دليلا.

[وما كان أكثرهم مؤمنين]

فلا تنتظر إيمان الناس حتى تؤمن معهم ، إنما بادر الى التسليم للحق.

[9] ان عزة الله تتجلى في سنة (الزوجية) بينما تتجلى رحمته في الكرامة التي اسبغها على الأشياء ، فلم يمنع عن الناس حاجاتهم ، بل أودع في الارض ما ينفعهم ، و كما خلق حاجة في هذا الطرف خلقها في الطرف الثاني ، فلم يزل هذا بذاك ، و ذاك بهذا.

[وان ربك لهو العزيز الرحيم]

و النفس المؤمنة تعيش التوازن بين اسمي العزة و الرحمة ، أي بين الخوف من غضب الله ، و الرجاء لرحمته ، و أكثر الناس تغرهم رحمة الله ، فيغفلون عن عزته ، يقول الدعاء:

[الهي اذهلني عن اقامة شركك تتابع طولك و أعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك ، و أشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك(1) " وجاء في دعاء آخر:

"و يحملني و يجرأني على معصيتك حلمك عني ، و يدعوني الى قلة الحياء ستترك علي ، ويسرعني الى التوثب على محارمك معرفتي بسعة رحمتك ، و عظيم عفوك " (٢) أنما المؤمنون يقاومون هذه الغفلة بذكر نعماء الله ، و التنبه الى احتمالات ذهابها.

[10] و من آيات رحمة الله أنه بعث انبياءه الى عباده الظالمين ، أو ليس الظلم ينغص النعم ، و يستدرج العذاب ؟ فمن أولى من الرب الرحيم بأن يعث الى (١) مناجاة الشاكرين / الصحيفة السجادية ص ١٢٢

(2) من دعاء ابي حمزة الثمالي / مفاتيح الجنان ١٨٧

عباده من يندرهم عاقبة ظلمهم.

[وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين]

النداء الواضح الذي لا يرتاب فيه السامع ، ولا يختلط بحديث النفس او وساوس القلب ، يهبط هذا النداء الى موسى من الرب الذي لا تزال نعمه تتواتر على البشر ، طورا فطورا ، و مرحلة بعد أخرى.

[11] و الهدف واضح هو مقاومة الظلم ، ليس لمصلحة المظلومين فقط ، و إنما أيضا لمصلحة الظالمين الذين سيهلكهم ظلمهم.

لقد عاش موسى ردحا من عمره بين أولئك الظالمين ، دون ان يحمل رسالة ، أنها - اذا - رسالة الله ، و ليست من عبقرية موسى.

[قوم فرعون ألا يتقون]

هؤلاء الذين يظلمون الناس لماذا لا يخشون عذاب ربهم و يتقونه ؟!

[12] و أول ما يخشاه الإنسان قبل ان يشرع في العمل هو الفشل ، فكثير من الناس يتركون العمل لمجرد الخشية من فشلهم فيه ، ولأن القرآن يعالج كل أمراض البشر ، ولأن هذه السورة المباركة برنامج عمل متكامل للدعاة الى الله ، فإنها تفصل القول في العقبات التي لا بد من تذليلها عبر قصة موسى و هارون . كيف دعيا الى الرب.

و تهدينا هذه الآية اولا : الى ضرورة مقاومة خوف الفشل ، الذي يعتري حتى الأنبياء قبل اعتصامهم بالله

[قال رب إنني أخاف أن يكذبون]

و تأتي في نهاية السياق معالجة هذا الخوف بقوله سبحانه : " كلا. "

[13] ثانيا : حمل رسالات الله إلى الظالمين لا يتم بسهولة ، إنما يسبب المزيد من الصعاب لحاملها ، و بالرغم من أن قدرات الفرد تتسع لكل تلك الصعاب إلا أن المقياس هو مدى قدرة استيعاب صدره لمشاكل العمل.

[و يضيق صدري]

ثالثا : لعل شدة تكذيب الناس تكون سببا في انعقاد اللسان ، أو ان هذا التكذيب بحاجة الى لسان طلق بليغ.

و قالوا : كان موسى - عليه السلام - أثنى ، حيث لم يكن قادرا على الإفصاح عن بعض الحروف.

و إذا كان الأمر هكذا فان الدرس الذي يعطيه السياق هنا هو : ان هناك معوقات جسمية قد تقف حاجزا دون القيام برسالة الله ، و علينا تحديدها.

[ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون]

ان حمل رسالات الله بحاجة الى إعلام قوي ، و كان موسى - عليه السلام - يعلم مدى صعوبة الأمر ، فبادر الى طلب المساعدة في هذا الحقل بالذات.

[14] رابعا : ليس بالضرورة ان يكون حامل الرسالة مقبولا حسب الأعراف و القوانين المرعية في البلد ، و ليست تلك عقبة كأداء لا يمكن تجاوزها . إذا استصغرك القوم ، أو استهزؤوا بك ، أو حتى إذا اعتبروك مجرما فلا تأبه ، و أمض في طريقك ، فهذا النبي العظيم موسى بن عمران - عليه السلام - يعتبر من الناحية القانونية خارجا على الشرعية ، و هو من عنصر مستضعف و مستعبد ، و قد قتل منهم واحدا ، مما يعرضه للقصاص حسب قوانينهم ، و مع ذلك يؤمر بحمل الرسالة.

لقد قال موسى و هو يعبر عن هذه العقبة:

[و لهم علي ذنب فأخاف ان يقتلون]

[15] تلك كانت العقبات اجتمعت أمام موسى . دعنا نستمع إلى الرب و هو ينسفها بكلمته نسفا:

[قال كلا]

أنها ليست عقبات في الواقع بقدر ما هي مخاوف في النفس ، لا تلبث ان تتلاشى بالتوكل على الله.

أولست انت واخوك تحملان رسالات الله فلماذا الخوف اذا؟! [فاذهبأياتنا إنا معكم مستمعون]

ذلك هو ضمان الانتصار.

فمن كان مع الله كان الله معه ، و من كان الله معه فلا قوة في الأرض تقف أمامه.

و انت أيها الداعية الكريمة تجرد عن ذاتك في الله ، و هب لله نفسك وما تملك تجد الله نعم المولى و نعم النصير.

انا رسول رب العالمين

هدى من الآيات

يحاو موسى برسالات ربه فرعون و قومه ، بينما يجادل فرعون معتمدا على منطق القوة . يذهب موسى و أخوه الى فرعون بامر ربهما قائلين : إنا رسول رب العالمين ، مطالبين بتحرير بني اسرائيل و يجادل فرعون بحجج ثلاث:

أولا : انه ولي نعمته ، فكيف يخرج من طاعته؟!

ثانيا : انه قد قتل منهم و هو كافر (به أو بقوانين بلاده) فيرده موسى بأنه لم يكن كافرا ، بل كانت تنقصه هداية الرب و رسالاته ، وإنما هرب منهم خشية بطشهم ، أما الآن فالأمر مختلف ، لقد و هب الله له حكما فأصبح قائدا و على فرعون طاعته ، و جعله مرسلا و على الناس طاعته ، و أضاف : ان استعباده لبني اسرائيل (وكان منهم) ليس منة يمنها عليه ، و بالتالي ليس من الصحيح ان يمن عليه بأنه لبث عنده من عمره سنين.

ثالثا : يجادل فرعون حين يسأل عن رب العالمين - ولعله سأله عن ماهيته - فيجيبه موسى : بأنه " رب

السموات و الأرض " و لكنه استهزأ قائلاً لمن حوله : " الا تستمعون " اشارة الى عدم اقتناعه ، فأضاف موسى : بان الله " ربكم ورب آبائكم الأولين " فعاد فرعون يسخر منه قائلاً : انه " لمجنون " ، و استمر موسى قائلاً : ان الله " رب المشرق و المغرب. "

فلما رأى قوة منطلق موسى توصل بمنطق القوة و قال : " لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين. "

و تحدى موسى إرهابه قائلاً : اني أملك برهانا ، فلما طالبه به ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین ، و اخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين.

تلك هي رسالات الله ، و ذلك منطقتهم الحق.

بينات من الآيات

منطق الرسل

[16] لقد استجاب الرب لطلب موسى بأن يجعل له وزيراً من أهله ، فيعته هو أخاه هارون الى فرعون.

[فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين]

لقد كانت رسالة واحدة ، يحملها اثنان ، و لعله - لذلك - جاء التعبير هكذا " : انا رسول " ولم يأت " انا رسولا " و لقد كان الرسول هو موسى ، بينما كان هارون وزيره ، و الوحي كان يهبط عليه دونه ، و كان ينوب عنه عند غيابه.

وجاء في حديث طويل ماثور عن الإمام الباقر (ع) عن كيفية ذهاب موسى الى باب قصر فرعون ، تقول الرواية:

... "فعدا الى فرعون ، فوالله لكانني أنظر اليه طويل الباع ، ذو شعر آدم ، عليه جبة من صوف ، عصاه في كفه ، مربوط حقه بشريط ، نعله من جلد حمار شراكها من ليف ، فقيل لفرعون : ان على الباب فتى يزعم انه رسول رب العالمين ، فقال فرعون لصاحب الاسد:
خل سلاسلها ، و كان اذا غضب على رجل خلاها فقطعته ، فخلاها ، ففرع موسى الباب الأول - وكانت تسعة ابواب - فلما قرع الباب الأول انفتحت له الأبواب التسعة ، فلما دخل جعلن يبصن تحت رجليه كأنهن جراء ، فقال فرعون لجلسائه : رأيتم مثل هذا قط؟ (1) "

[17] لرسالات الله شواهد منها عليها ، ومن شواهدنا تحدي أكبر فساد في المجتمع ، دون خلاف أو مدهانة ، لقد تحدى نوح - عليه السلام - الطبقية ، و إبراهيم - عليه السلام - الوثنية ، و مثله فعل النبي محمد - صلى الله عليه وآله - ولوط تحدى الفساد الخلقي ، بينما واجه شعيب الفساد الاقتصادي و هكذا ، أما موسى - عليه السلام - فقد حارب العنصرية ، و طالب فرعون بتحرير بني اسرائيل الذين كان قد استضعفهم قائلاً:

[أن أرسل معنا بني إسرائيل]

منطق الطغاة

[18] يبدو من السياق ان فرعون - شأنه سائر شأن الطغاة - حاول ان ينسب نعم الله الى نفسه ، و يمن على موسى بأنه أنعم عليه بالتربية و التغذية.

(1) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٨.

[قال ألم نربك فينا وليدا]

فلماذا خرجت على أسس المجتمع و قيمه مادمت تربيت في احضانه ، و تغذيت من أفكاره و ثقافته ، و
لعلنا نستوحي من هذه الآية مدى اعتماد الطغاة على عامل التربية في إفساد ضمير الناس ، و بالرغم
من أهمية هذا العامل إلا أن رسالات الله تتحداه ، فاذا بموسى الذي كان ينسب الى فرعون عند الناس
حيناً يخرج عليه ، و يهدم سلطانه ، و إذا بمؤمن آل فرعون يعيش في بلاطه ثم يثور عليه ، و اذا بزوجته
آسية بنت مزاحم تكون نصيرة الحق ، و تضحى بنفسها في سبيل الله ، و اذا بأصحاب الكهف و هم وزراء
طاغوت دهرهم (دقيانوس) ينقلبون الربهم.

ثم قال فرعون:

[ولبثت فينا من عمرك سنين]

وهكذا يقول الطغاة : الم نعبد الشوارع ، و نبني المستشفيات . الم يتخرج من جامعاتنا كذا طالب ، ألم
يتقدم اقتصاد بلادنا !؟

انهم يخطئون مرتين : اولاً : حين يجعلون التقدم المادي دليلاً على سلامة نهجهم ، بينما التقدم المادي
قد يكون وليد عوامل أخرى كانبعاث ابار البترول ، أو جودة موسم الزراعة ، أو حتى جهود الناس من
علماء ، و مدراء ، و تجار ، و عمال ، و فلاحين . الناس يعملون الحكام يفخرون ، و انما فخر الحكام
بإشاعة العدل ، و المحافظة على الحرية ، و توفير فرص الكمال الروحي.

ثانياً : حين يعطون الناس أرقاماً خاطئة ، و يذكرون فقط الجوانب المشرقة ويسكتون عن الجوانب
السلبية ، و يرهبون من يتحدث عنها حتى لا تبدو فضائهم.

لقد من فرعون على موسى انه سمح له بأن يعيش مستضعفاً في بلاده ، و كأن القاعدة كانت تقضي
بقتل موسى ، أما ان يبقى حياً يتنفس فانها نعمة يمن بها عليه.

[19] وذكره بقتل القبطي ، و اعتبرها جريمة كبيرة تجعل صاحبه في مصاف الكفار ، فقال:

[و فعلت فعلتك التي فعلت و أنت من الكافرين]

ان حكام الجور يضعون قوانين يحكمون بها سيظرتهم على الناس ، ثم يعتبرون الخروج عليها جريمة بل
كفراً - و لعل فرعون أراد ان يعير موسى بأنه لم يكن يومئذ يؤمن بالله - و يفتشون في ملف الثائرين
ليجدوا فيها ثغرة يدخلون منها عليهم ، و ينسون ان بقاءهم في السلطة رغماً على الناس أكبر جريمة ،
و أعظم كفراً.

و قد يكون القانون سليماً ، و لكن لا يحق للسلطان الجائر ان يكون منفذاً له . اذ ان سلطته ليست
شرعية ، و حين ينفي الثائر شرعية السلطة لا ينبغي الحديث عما يترتب عليها من الانظمة السائدة.

ولكن الطغاة يريدون تضليل الناس بذلك ، و على الرساليين الا يأبهوا بذلك أبداً ، و يعيدوا إلى أذهان
الناس أصل وجود النظام ، و الذي لو لم تثبت شرعيته لا يحق له تنفيذ القانون ، بل تنفيذ القانون بذاته
يصبح جريمة تسجل عليه و على أركانه.

[20] لقد قتل موسى القبطي الذي أراد سخرة الإسرائيلي ، و لعله كان يقتله ان لم يقبل بسخرته ، و
بذلك كان الرجل يستحق القتل بحكم القيم الحق التي فطر الله الناس عليها ، و جاءت بها شرائع الله .
أوليس من قتل دون نفسه او عرضه أو ماله فهو شهيد ؟

ويبدو ان موسى تجاوز الحديث عن مقتل القبطي ، و ركز على أمرين:

الاول :انه لم يكن كافرا بالله يومئذ (ان كان مراد فرعون بقوله : " من الكافرين " الكفر بالرب) و انما كان ضالا بسبب فقدانه للرسالة التي هي الهدى و الضياء ، فقال:

[قال فعلتها إذا وأنا من الضالين]

ان الضلال ليس كالجحود و الكفر انما هو عدم الهدى و هو ليس عيبا ، و قد قال ربنا عن نبيه الأكرم - صلى الله عليه و آله - : " و وجدك ضالا فهدي " ولم يكن الرسول ضالا ، انما لم يكن يحمل رسالة فهده الله اليها.

و كل أنبياء الله بشر يفقدون العلم و الحكم قبل النبوة و الرسالة ، و إنما يتميزون على سائر الناس بالوحي ، و ليس بعنصر إلهي يتداخل فيهم ، و القرآن حافل ببيان هذه الحقيقة تصريحاً أو بالإشارة ، و قد قال سبحانه : " قل انما أنا بشر مثلكم يوحي الي. "

و دليل صدقهم أساسا هو ان الوحي يحدث تحولا فجائيا فيهم ، فبينما الرسول يلبث في قومه دهرا ، لا يدعوهم الى شيء ، تراه يبعث اليهم برسالة متكاملة ، من المستحيل ان يكون قد ابتدعها من نفسه بين عشية و ضحاها.

و هذا بخلاف العلماء و الباحثين الذين تتكامل أفكارهم و بحوثهم يوما بعد يوم.

و لعل في قوله : " اذا " دلالة على أنه رد التهمة أساسا ، و أجابه : انه اذا سلم بوجود نقص عنده - جدلا - فانما هو الضلال ، و عدم الوحي.

وجاء في حديث ماثور عن الامام الرضا عليه السلام:

"انه اراد انه ضل عن الطريق بوقوعه الى مدينة من مدائن فرعون " (١) [٢١] و قد فر موسى عن مدائن فرعون خشية عنصريته ، التي كان يدين - بموجبها - أي واحد من بني اسرائيل بمجرد الصراع بينه و بين الأقباط.

[ففررت منكم لما خفتكم]

والآية تدل على أن الفرار من الظلم فضيلة ، أولا اقل لا بأس به.

و نستوحي أيضا من الآية : ان التمرد على قوانين الانظمة غير الشرعية عمل شريف.

ولأن موسى نصر الحق ، و رفض الخضوع لنظام الطاغوت ، و لأنه توكل على الله ، و هاجر عن بلاد الكفر ، فان الله أكرمه بالنبوة و الرسالة.

[فوهب لي ربي حكما]

أن حرف الفاء يوحي الينا بأن هناك علاقة بين فراره من ظلم فرعون و بين الحكم الذي وهبه الله له ، و لعل الحكم هو العلم ، و لعله النبوة التي تسبق الرسالة.

[و جعلني من المرسلين]

و نستوحي من كلمة " جعلني " ان صاحب الرسالة هو الحاكم و الخليفة في الأرض ، و ان هذا المنصب بحاجة الى قرار و جعل و تنصيب.

[22] ورد موسى جدل فرعون اذ قال : " الم نربك فينا وليدا " : بان استعبادك لبني اسرائيل ، و ذبح أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، و استخدام بعضهم لتربية البعض الآخر كرها ، أعيب عليك ذلك ، واين تلك من هذه ، تمن علي التربية و لكني أعيرك بما فعلت ببني اسرائيل.

من الذي ربى موسى ؟ أليس بنو اسرائيل أنفسهم بأمر من فرعون ، ثم ما الذي الجأ أم موسى لتجعله في التابوت ، ثم تقذفه في اليم ، و ما الذي أعطى الحق لفرعون ان يقتل هذا و يعفو عن ذلك ، و يسرق أموال هذا و يضعها عند ذاك . أو ليس كل ذلك جريمة لابد ان يعاقب عليها فرعون ، ذو الظلم و الطغيان ، و ليس ثمة نعمة يشكر عليها.

[و تلك نعمة تمنها علي أن عبت بني إسرائيل]

و نستوحي من الآية فكرتين:

أ - ان فراغنة كل عصر يجب ان يلقموا حجرا كلما زعموا ان عليهم منة على الناس ، ذلك أن جميع تقلباتهم في البلاد و تصرفاتهم في شؤون العباد جرائم لانها ليست بإذن الله ، و لا بتحويل من الناس.

ب - ان موسى تجاوز نفسه و تحدث عن كل بني إسرائيل ، كما تجاوز الحديث عن قضية محدودة الى بيان جذرها ، و هكذا ينبغي الا يقع الفرد الرسالي في الخطأ بالحديث عن ذات القضية التي يتحدث عنها الظالمون ، ولا بالحديث عن أنفسهم بل يتحدثوا عن جذور المشكلة حسب نهجهم الاعلامي المستقل ، و عن آلام الشعب جميعا . انهم - وحدهم - ممثلوا الناس ، و عليهم ان ينطقوا باسمهم و عن مشاعرهم.

[23] لم يجد فرعون نفعا توسله بالقضايا الجانبية ، لأن موسى جاء بحجة أبلغ ، فاضطر الى الجدل حول جوهر الرسالة ، و يبدو من سياق الحديث انه اتخذ نهج الإستهزاء و سيلة لجدله.

[قال فرعون وما رب العالمين]

لم يقل : ومن رب العالمين لجهله المفرط ، و اسلوبه الساخر ، و لعله سأل عن طبيعة الله ، فلم يسترسل موسى معه ، لأن معرفة الذات مستحيلة.

[24] إنما مضى موسى قدما في دعوته الى الله عبر آياته ، و بين أن جهلهم بالله آت من نقص في أنفسهم.

[قال رب السموات و الأرض وما بينهما إن كنتم موقنين] و هكذا ينبغي ان يستدل المؤمن على ربه بآياته و افعاله ، مقتديا بنهج أنبياء الله.

جاء في حديث ماثور عن أمير المؤمنين - عليه السلام - ، في صفة الله سبحانه:

"الذي سئلت الأنبياء عنه ، فلم تصفه بحد ، ولا ببعض ، بل و صفته بفعاله ، و دلت عليه بآياته " (١) و حين قال موسى : " ان كنتم موقنين " أشار إلى أن الإيمان بالله لن يبلغه من لا يجهد ولا يبحث عن علم و يقين ، وان جهلهم بربهم ناشىء من نقص فيهم ، حيث سدوا منافذ قلوبهم عن نور المعرفة.

[25] كان الحديث بين موسى و فرعون ، فأدار فرعون رجاه باتجاه الملام (١) المصدر / ص ٤٩.

حوله ، لماذا ؟ هل خشي ان ينقلبوا عليه ، أم أراد ان يتظاهروا على موسى حين شعر بضعف حجته ؟

[قال لمن حوله ألا تستمعون]

أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء آخر . وفي حديثه نبذة استهزاء ، و كأنه يقول : ان حجتة ضعيفة.

[26] لم يأبه موسى - عليه السلام - بسخريته ، و التزم نهجه القويم في التذكرة بالرب ، و تحطيم أغلال الجهل عن أنفسهم.

[قال ربكم و رب ءابائكم الأولين]

فهو الله الذي كان على آباءكم التسليم له ، فلا يجوز التسليم لآبائكم إن كانوا كافرين به ، ولا ينبغي تقديسهم ، و الجمود على أفكارهم البالية ، و اذا شمل آباءكم العذاب بسبب كفرهم بالرب فان ذات العذاب سينزل عليكم لذات السبب ، هكذا فك غل عبودية الآباء عنهم، و حذرهم من مغبة الجحود.

[27] و خرج فرعون عن طوره ، و اتهم موسى بالجنون ، مستخدما أسلوبه الساخر ، اذ وجه الخطاب الى الملائكة يثير فيهم العصبية.

[قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون]

هكذا بلغت الرعونة عند فرعون ذروتها حيث أنهم أتهم رسول الله رب العالمين بالجنون.

[28] أما موسى الذي لم يرهب إعلام فرعون التظليلي ، و لم يغضب لنفسه ، فقد مضى في سبيله يدعو الى ربه بالتذكرة تلو التذكرة.

[قال رب المشرق و المغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون] وهذا بذاته دليل صدق دعوته انه لم يقم لنفسه بل لربه ، ولا يدعو الى ذاته بل الى الله ، و هكذا ينبغي ان يتحمل الرساليون كل أذى ، ولا ينهاروا بسبب تهم الطغاة انى كانت كبيرة.

[29] و انقلب فرعون خائبا من أسلوبه التظليلي الساخر ، فاتجه الى التهديد:

[قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين]

ان الطغاة يرهبهم قوة المنطق فيلجؤون الى منطق القوة ، و يخافون على عروشهم فلا يتورعون عن ارتكاب اية جريمة.

و لكن موسى - عليه السلام - و كل الدعاة الى الله سوف يبلغون مستوى عاليا من النصر يعرفون النظام من لباس التضليل ، و يلجؤون الى استخدام آخر و سيلة لهم للسيطرة الا وهي الارهاب.

[30] و كما الجبل الأشم صمد موسى امام تهديد فرعون ، كما صمد أنفا امام سخريته و تهمه ، فلم يزل يواجهه بسلاح المنطق.

[قال أولو جئتك بشيء مبين]

فيه دلالة ملموسة ، تكون أقرب الى عقولكم المغلفة الجامدة.

[31] و هنا أيضا خسر فرعون الموقف ، إذ طالبه فعلا بذلك الشيء المبين ، ماضيا في غروره و ظنه أن الباطل لا يغلب.

[قال فأت به إن كنت من الصادقين]

[32] استجاب النبي موسى للتحدي فورا.

[فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين]

كان ثعبانا ضخما ، قد فغر فاه ، كاد يلتهم قصر فرعون بما فيه.

[33] و نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين]

و بهت فرعون ، و فlicht حجة موسى ، و ظهر برهانه.

فألقى السحرة ساجدين

هدى من الآيات

ازداد الصراع احتداما ، و حاول فرعون أن يتهم موسى بالسحر ، و اثار فيهم حب الوطن زاعما : انه يريد ان يخرج الناس من ارضهم ، و استمالهم بالتشاور معهم لمعرفة رأيهم في مصير موسى ، فاشاروا عليه بحبسه ، و بعث العملاء الى اطراف البلاد لجمع السحرة الماهرين ، فلما حشروا ليوم عيد دعوا الناس للإجتتماع ، محددين هدفه سلفا باتباع السحرة ، و جاء السحرة طالبين من فرعون أجرهم فبالغ في إعطاء الوعود لهم ، فقال لهم موسى : القوا حبالكم ، فلما فعلوا اقساموا بعزة فرعون انهم هم الغالبون.

و قد ترددت كلمة الغلبة في الآيات مشيرا - فيما يبدو - الى حدة الصراع و مصيريته.

و القى موسى عصاه فاذا بها تلتهم افكهم ، فالقى السحرة ساجدين ، قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى و هارون ، و انقلب السحر على الساحر.

أما فرعون (الذي لم ينقصه العناد) فقد قال لهم : لماذا آمنتم به قبل ان آذن لكم ؟ (و احتوى الهزيمة سريعا) و قال لهم : انه قائدكم ، و انتم تشاركون معه في الثورة ، و هددهم بانه سوف يقطع ايديهم وارجلهم ، و ليصلبهم أجمعين.

و مرة أخرى اثبتت الرسالة قوتها حيث قال السحرة " : لا ضير انا الى ربنا منقلبون " الذي نطمع ان يغفر لنا خطايانا ، و ان يجعل مبادرتنا الى الايمان كفارة لذنوبنا.

بينات من الآيات

جمع السحرة

[34] لايد ان يكون صاحب الرسالة مستعدا أبدا لتطورات الصراع ، و مضاعفة التحديات ، حتى تبلغ الذروة ، فهذا النبي العظيم موسى افتتح دعوته بقول لين ، و استمر على ذلك النهج بالرغم من استفزاز فرعون بسخريته اللاذعة ، و لكن فرعون توعدده بالسجن فجاءه موسى بشيء مبين ، و مضى فرعون في طريق العناد فاتهم موسى بالسحر.

[قال للملا حوله إن هذا لساحر عليم]

و يبدو ان السحر كان منفورا منه بالرغم من انتشاره بين الناس يومئذ ، و قد الصق تهمة السحر بموسى و لكنه ما لبث ان استعان بالسحرة و وعدهم بان يجعلهم من المقربين اليه ، ثم لما آمنوا عاد و اتهم موسى بأنه كبيرهم.

و هكذا يتقلب الطغاة حسب مصالحهم ، و هذا التقلب - بذاته - دليل زيفهم.

[35] جبل الانسان على حب أرضه التي نبت منها ، و يستغل الطغاة هذا الحب بصورة قذرة ، و يدعون أبدا أنهم حماة الأرض ، و دعاة الأمن من الخطر الخارجي أو الداخلي.

و هكذا اتهم فرعون موسى بأنه مخل بالأمن ، و أن هدفه النهائي طرد الأقباط من أرضهم ، فقال:

[يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره]

و لم يكن فرعون يأبه براء الناس لأنه كان يزعم أنه الأهم ، و ربهم الأعلى ، و كيف يجوز للرب ان يستشير المربوبين؟!

و لكنه حين خاف أنهيار عرشه بادر الى المشورة ، لا لكي ينتفع بعقولهم و تجاربهم ، أولا ترى كيف كان يبادر بالجواب قبلئذ دون استشارة ؟ وانما يستميلهم ، و يمنع من تأثير حجج موسى البالغة فيهم ، و أيضا لكي يشاركوه في جريمته التي نوى ارتكابها بحق النبي موسفلا تأخذهم به رافة من بعد تنفيذها .

هكذا خاطب من حوله قائلا:

[فماذا تأمرون]

و هكذا الطاغوت أبدا لا يريد آراء الناخبين ليخضع لها ، بل بحثا عن الأهداف التالية:

أ - الإيحاء إلى الناس بأنهم يضعون القرار لأنفسهم حقا ، و ليس هو وحده.

ب - جس نبض الشعب ، و معرفة مدى تأثير اعلامه فيهم ، و مدى قوة معارضيه ، و مكامن نفوذهم ليقوضهم.

ج - لإضفاء الشرعية الكاذبة على حكمه ، كذلك تراهم يبادرون الى الانتخابات اذا بلغ بهم الخوف مداه ، و على الرساليين ان يعوا هذه اللعبة ، و ان يقوموا بتوعية الناس سلفا بما يقوم به الطغاة لخداعهم ، و الاستمرار في التسلط عليهم.

[36] كانت الثقافة الفاسدة ، و الاعلام المضلل ولا زالت أعظم ركيزة لسيطرة الطغاة ، و لقد كانت آثار الإغواء و الفتنة و التضليل أبلغ بكثير من آثار السجن و القتل و التعذيب.

و يبدو ان نظام فرعون كان يستخدم السحر و سيلة لتكريس سلطته ، و قد كان السحر منتشرا بين الاقباط يومئذ ، و السحر نهاية مطاف الحضارة ، و انتشاره يدل على وصول الناس الى أدنى مستوى من العلم و المعرفة ، أنه ليس إلا اثاره للخيال عبر مجموعة حركات و أصوات والعب خادعة ، ولا يتأثر به إلا من سلم نفسه لتأثيراته.

و يبدو ان مركز تأثير السحر هو أعصاب الناس عبر منبهات صوتية ، و حركات متناغمة ، و حركات بهلوانية .

هكذا أشار الملأ من حول فرعون عليه ان يستغل السحرة لمواجهة آية موسى بعد اعتقاله و أخاه.

[قالوا أرجه و أخاه]

اي ابقيهما رهن الاعتقال ، و بالرغم من أن مستشاري فرعون لم ينصفوا رسولهم ، و لكنهم كانوا أقرب رشدا من مستشاري نمرود حيث أمره رأسا بحرق نبيهم إبراهيم - عليه السلام - و في الحديث : أن أولئك كانوا أولاد زنا بينما كان هؤلاء رشدة.

وفي رواية أخرى عن ابي عبد الله الصادق (ع) قال:

"كان فرعون إبراهيم و أصحابه لغير رشدة ، فإنهم قالوا لنمرود : " حرقوه و انصروا آلهمكم إن كنتم فاعلين " و كان فرعون موسى و أصحابه لرشدة ، فإنه لما استشار أصحابه في موسى قالوا : " أرجه و أخاه و ارسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم " (١)

[و ابعث في المدائن حاشرين]

أرسل إلى أطراف البلاد من يجمع السحرة ، و هكذا أعلن فرعون - حسب هذا الرأي - حالة الاستنفار القصوى لجهازه الثقافي و الاعلامي لإحساسه بمدى خطورة التحدي.

[37] و هكذا أمره بتعبئة كل المهرة من السحرة.

[يأتوك بكل سحار عليم]

فوقع السحرة ساجدين

[38] [فجمع السحرة لميقات يوم معلوم]

و لعله كان يوم عيد قومي لهم.

[39] كان بإمكان فرعون أن يجري الصراع على حلبة قصره ، بين النبي موسى و السحرة من انصاره ، و لكنه دعا الناس جميعا ليشهدوا المناقشة ، كما فعل من قبل نمرود حيث لم يكتف حين أراد حرق إبراهيم - عليه السلام - بقليل من الحطب ، (١) بحار الانوار / ج ١٢ / ص ٣٢

بل أشعل نارا كانت تلتهم الطير على بعد أميال ؟ لماذا ؟

لأن الطغاة يعيشون أبدا حالة الهلع ، فإن قلوبهم تهتز من أدنى معارضة ، فيتظاهرون بالقوة لتعديل توازن أنفسهم ، و لكي يرهبوا الناس أن يتأثروا بإعلام المعارضة ، و هكذا فعل فرعون:

[و قيل للناس هل أنتم مجتمعون]

كان التعبير - هذه المرة - رقيقا ، لما أحس به فرعون من خطر محقق ، فأراد استمالة الجماهير.

بلى .. ان الطغاة يريدون تمرير قراراتهم من خلال رأي الناس ، لكي يوهموهم أنهم هم أصحاب القرار ، و مسكينة هذه الشعوب الجاهلة كم و كم تمر عليها هذه اللعبة و حتى هذا اليوم.

[40] لم يكن هدف حشد الناس جعلهم الحكم بين الناس و المعارضة ، ليختاروا ما يرونه حقا . كلا ..
انما كان الهدف تكريس سلطة فرعون ، لذلك قالوا:

[لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين]

و لعل هذه الآية تشير الى الهجمة الإعلامية التي قامت بها أجهزة السلطة ضد موسى - عليه السلام - و صنعت أجواء رفض رسالة الله ، و اتباع السحرة حتى قبل نزولهم الى حلبة التنافس.

[41] وجاء السحرة ، و اجتمع الناس ، و عبئت الأجواء لتأييد فرعون ، و تكونت فرق التشجيع على أطراف الحلبة لصالح السحرة ، و دقت الطبول ، و استعد الجلادون للإنزال اقسى العقوبات بموسى و أخيه ، و التنكيل ببني إسرائيل ، و خنق كل صوت للمعارضة ، و تمثل السحرة أمام فرعون يطلبون اجرا . أو ليسوا قد سخروا طوال الفترة للعمل في البلاط بلا أجر ، أو لم يكن عمل السحرة شائعا في عهد فرعون . أو لم تنتشر على أطراف أهرامات مصر التي بناها الفراعنة قبور المحرومين على امتداد أميال ، من أولئك الذين كان يجمعهم النظام من أطراف مصر ليبنوا مقابر لأركانهم ، و ليعلو بذلك مجده ، ثم يسخرهم بلا أجر في ظروف قاسية ، فاذا ماتوا أهال عليهم حفنة من التراب و جاء بغيرهم ؟! أه كم استخف

الظالمون بأرواح البشر ، و الى اليوم ، و الى متى !؟

كلا .. هذه المرة نطالبه بأجر . فرعون هذا اليوم يختلف عنه بالأمس ، انه مضطرب . دعنا نستغل ذلك لمطالبته بأجر على الأقل.

[فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين] فإذا كان الأمر كذلك فسوف نبذل المزيد من الجهد للغلبة.

لقد اهتز ضميرهم منذ اللحظة الأولى التي واجهوا فيها موسى.

فمن هذا الراعي الذي جاء بعصاه يتحدى أكبر طاغوت ، و أعظم امبراطور ، و لماذا عجز فرعون عن التنكيل به كما ينكل بألوف الناس من بني قومه ؟!

و جاء في تفسير علي ابن ابراهيم : " ان السحرة حين بصروا بموسى ، رأوه ينظر إلى السماء ، قالوا لفرعون : انا نرى رجلا ينظر الى السماء ، و لن يبلغ سحرنا الى السماء " (١)(١) تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٥١

[42] فرعون يعرف - كما سائر الطغاة - بان العرش انما يصنعه هؤلاء (ادعياء الدين و العلم) الذين يسرقون سلاح الرفض من أيدي المحرومين ، و يزرعون فيهم الخوف و الخنوع ، و انه لا بد من شراء ضمائر هذه الطائفة المخاسرة بأي ثمن . لذلك...

[قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين]

ان القيمة الحقيقية لهذه الضمائر الخائنة هي المشاركة في الملك ، و هذا ما تبرع به فرعون ، و وعد به السحرة ، أو ليسوا قد شاركوا في صنع العرش و في كل الجرائم التي يرتكبها صاحبه ، فلماذا لا يشاركونه في غنائه.

و لكن العلماء الفسقة لا يعرفون عادة القيمة الحقيقية لما يبيعونه ، فتراهم يرضون بالثمن الزهيد ، فيخسرون الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين.

[43] من أعظم صفات الأنبياء (ع) التي تشهد بصدقهم : تحديهم لقوى أعظم منهم - كبشر - اضعافا مضاعفة ، مما يشهد باعتمادهم على رب القدرة و العظمة سبحانه.

هكذا تحداهم موسى.

[قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون]

و ما عسى ان ينفعكم ما تلقون أمام قدرة الرب ؟!

[44] و لم يكن يملك أولئك البؤساء غير مجموعة حبال و عصي فألقوها.

[فألقوا حبالهم و عصيهم]

و قد استنفذوا كل جهدهم بذلك ، و أضافوا اليه القول قسما:

[و قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون]

كانت عزة فرعون - في زعمهم - منتهى القوة الموجودة في الأرض ، فأقسموا بها ، و حين يصل الانسان

الى الاعتزاز بقوة مادية بهذه الدرجة التي يحلف بها فان نهايته قد آنت . أو ليس من أعتز بغير الله ذلك؟!
جاء في الحديث القدسي:

"العظمة رذائي و الكبرياء ازاري فمن نازعني فيها لعنته "[٤٥] هنالك أمر الله موسى بأن يلقي عصاه.
[فألقي موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون]

[46 - 47] خلق الانسان على الفطرة التي تتجلى فيها آيات الله ، و لو لم تلوث الصفحة البيضاء ، التي يتكون منها قلب البشر بالتربية الفاسدة ، و النظام الفاسد ، و الشهوات و .. و فسوف تنعكس عليها تجليات الرب.

و حتى لو تورط الإنسان في الذنوب فإن نفسه تظل تلومه ، و في لحظات خاصة يتعرض القلب لشلال من نور الحقيقة يكاد ينصدع به ، حيث يستيقظ فيه ذلك الوجدان ، و ينهض متحديا حجب الذنوب ، و اذا وفقه الله حدث فيه تحول مبارك و عظيم.

و هكذا خر السحرة ساجدين لله ، في وسط دهشة الجميع.

[فألقي السحرة ساجدين * قالوا ءامنا برب العالمين] هكذا ينبغي على من يحمل مشعل الثقافة الرسالية الا يهن ، ولا يني يهاجم الظلام الشيطاني . ذلك أن النور سيطوي الظلام أنى كان متراكبا.

[48] ولأن السحرة آمنوا بالله بدلالة موسى ، و حيث تجلت آية الله على يده ، فإنهم ذكروه ، و لأن هارون - بدوره - كان و زيرا لموسى فقد جاء ذكره عند هذه اللحظة . لحظة المفاجئة الكبرى.

[ارب موسى و هارون]

هكذا يقدر الرب أعمال عباده الصالحين.

[49] كان فرعون موعلا في الضلالة و الجحود ، فلم يهتد بكل تلك الآيات ، بل ظل يعاند بما أوتي من قوة

[قال ءامنتم له قبل أن ءاذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فليسوف تعلمون] و توعدهم بالعذاب الاليم ، حيث لم يبق أمامه حجة يبرر بها مخالفته للرسالة ، فقال:

[لأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف]

يدا من اليسار ، و رجلا من اليمين .

[و لأصلبنكم أجمعين]

[50] كان العقاب شديدا ، و لكن التقدير قضى ان يستقبله أولئك الذين كانوا الى عهد قريب من ركائز النظام ، لكي لا يرتاب أحد في صدق إيمانهم ، و بالتالي صدق الرسالة ، و تتم حجته على الناس.

[قالوا لا ضير إنا الى ربنا منقلبون]

كيف بلغ السحرة هذه الذروة من الإيمان بالله و رسالاته في لحظة ، كيف ايقنوا بالنشور الى درجة استساغوا الشهادة ، و اعتبروها عودة الى الله؟!

حين تتساقط حجب حب الذات ، و عبادة الأهواء ، و الخضوع للطاغوت ، فان الحقائق تتجلى مباشرة للقلب ، و يكون للعلم بها علما شهوديا ، و اليقين صادقا.

[51] ثم لأن السحرة طالما مشوا في ارض الله ، و انقلبوا في نعمه ، يأكلون رزقه ، و يعبدون غيره ، فلما تذكروا كانت الصدمة في نفوسهم قوية فأرادوا تكفير ذنوبهم التي أحسوا الآن بنقلها على كواهلهم ، و تطهير صفحة حياتهم بدم الشهادة ، فقالوا:

[إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين] و نستوحى من هذه الآية ان هناك مؤمنين آخرين اتبعوا نهج السحرة التائبين ، و انما كان هؤلاء طلائع في مسيرة الايمان.

كذلك و أورثناها قوما آخرين

هدى من الآيات

تتابع آيات سورة الشعراء في بيان الصراع الحضاري الذي كسبه رسل الله بأيدي الرب ، لما تتجلى فيه صفتا العزة و الرحمة الالهيتان.

هكذا أوحى الله إلى موسى بالهجرة الجماعية ، فقاد بني اسرائيل ناحية البحر ، و انبأهم بان فرعون يتبعهم.

أما فرعون فقد عبأ كل قواه ، حيث حشر جنوده من مدائنه ، و أضلهم بالقول : ان بني اسرائيل خليط مختلف و قليل ، و انهم أغضبونا بتصرفاتهم (سرقوا أموالنا ، و خرجوا عن ديننا) فأخرجناهم من بلادنا التي تتمتع بالبساتين و العيون و موارد و مساكن محترمة . بلى. و لكن الله أعاد بني اسرائيل اليها ، و أورثهم إياها.

فرحف جيش فرعون تلقاء بني إسرائيل عند الشروق ، فلما اقترب الجمعان قال أصحاب موسى : انهم سيدركونا بقواتهم العظيمة ، قال لهم موسى : كلا .. ان اللهمعي ، وهو سيهديني طريق النجاة ، فأوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك البحر الذي وصلوا اليه ، فلما ضربه بعصاه انقسم البحر ، و انكشفت فيه طرق يابسة ، فاستدرج الرب آل فرعون في البحر أيضا ، و لكنه أنجى بني اسرائيل (الذين خرجوا من الطرف الآخر) و اغرق الآخرين (الذين لم يزالوا فيه حين عادة المياه الى طبيعتها.)

ان في هذا الإعجاز آية لعظمة الرب و قدرته ، كما لرحمته و عطفه ، و لكن اكثر الناس لا يؤمنون.

و ان الله عزيز ينتقم من الجبارين ، و رحيم ينصر المستضعفين.

بينات من الآيات

و كانوا هم الوارثين

بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون

هدى من الآيات

في سياق تبيان الصراع بين رسالات الله و ثقافة الشعراء يضرب لنا الرب مثلا من قصة إبراهيم و قومه ، و كيف أوحى الله اليه بمقاومة الفساد العريض الذي تردوا فيه ، فعبدوا الأصنام ، و حين سألهم عن ذلك إبراهيم لم يملكوا حجة ، بل قالوا : انا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فأعلن البراءة منهم و من آباءهم و من أصنامهم ، و توجه الى عبادة رب العالمين ، الذي أعطاه خلقه و هداه ، و طعامه و شرابه و شفاه ، و هو يميته و يحييه ، و يرجو مغفرته يوم يلقاه ، و تضرع اليه : ان يهب له الحكم ، و يلحقه بمن مضى من الصالحين ، و يجعله فاتحة عهد صالح ، و ان يرزقه الجنة ، و يغفر لأبيه لانه كان من الضالين ، ولا يخزيه يوم البعث بالنار ، إنه يوم لا تنفع الأصنام ، كما لا يغنى اتباع الآباء شيئا ، فلا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . في ذلك اليوم تزلف الجنة ليدخلها المتقون ، و تبرز النار ليدخلها الغاوون ، الذين يسألون : اين ما كنتم تعبدون من دون الله ، فأين ذهب اصنامكم ، و اينتولى آباؤكم . هل هم قادرون اليوم على نصركم أو نصر أنفسهم؟! فلما لم يحيروا جوابا افحموا في النار مع الغاوين ، و جنود إبليس أجمعين.

و هناك تبين مدى ضلالتهم ، حيث اختصموا في النار ، فقال الكفار لأولئائهم : انا كنا في ضلال مبين اذ جعلكم سواء مع رب العالمين ، وانحوا باللائمة على الذين أضلوهم - لعلهم عنوا بهم ادعياء الدين و العلم - و نعتوهم بالإجرام ، و قالوا : لا أحد يشفع لنا ولا يصدقنا ، و يهمه أمرنا ، و تمنوا لو كانت لهم كرة

حتى يكونوا مؤمنين.

و يختم القرآن هذا الدرس ، كما ختم قصة موسى (ع) بان كل ذلك آية ، ولكن اكثر الناس لا يؤمنون ، ثم يذكرنا باسمي العزة و الرحمة لرنا العظيم.

بينات من الآيات

[70 - 69] نستوحي من قصص سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن فطرته الإيمانية تجلت حتى قبل ان يوحى اليه ، فاذا به يواجه أكبر فساد استشرى في قومه وهو عبادة الأصنام ، و اتباع الالباء على غير هدى.

يبدأ انحراف البشر بسبب همزات الشيطان ، و دفعات الشهوات ، و لكنه سرعان ما يلبس ثياب الشرعية ، و يضيف عليه أدعياء الدين و العلم و يأمر من المترفين القداسة الدينية ، و كذلك كانت عبادة الأصنام عند قوم إبراهيم.

[و اتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه و قومه ما تعبدون] ان إبراهيم يتحدى أولاً أباه ، الذي لم يكن والده انما كان عمه آزر الذي تبناه ، و لعل السبب يتلخص في أمرين:

اولا : ان أباه كان هو المسؤول المباشر عنه ، و الذي كان ينفذ عليه تعاليم مجتمعه ، و من خلاله كان يتعرض إبراهيم لضغط المجتمع الفاسد ، و دفعه باتجاه عبادة الأصنام.

ثانيا : ان إبراهيم كان في مجتمع رجعي يقلد الآباء ، و لذلك كان ينبغي أن يبدأ تحديه لهم حتى يصبح قدوة لكل من يعيش في مثل هذا المجتمع المتخلف.

[71] لقد اعترفوا بفسادهم ، و أنهم إنما يعبدون أصناما لا تضر ولا تنفع.

[قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين]

نصلي لها ، و نديم عبادتها ، و لعل هذا التعبير يوحي بانهم كانوا في شك من جدوائية عبادتهم لها ، و انما مضوا عليها اقتداءً بالسابقين.

[72] ان نظام الحياة قائم على النفع و الضر ، و ان فطرة الانسان تهديه إلى الرب في أوقات الشدة و عند الحاجة ، و هكذا سألهم إبراهيم : هل تستجيب هذه الاصنام عند الشدة ، حيث ينقطع رجاء الانسان من الوسائل المتاحة له (كما يستجيب الرب سبحانه) أو هل تنفع أو تضر في الأوقات العادية ؟!

[قال هل يسمعونكم إذ تدعون]

في حالة الشدة تتساقط الاوهام ، و يتعلق القلب بالخالق فلا يدعو غيره ، و هذا أكبر برهان على بطلان عبادة الأصنام.

[73] أو ينفعونكم أو يضرون]

هكذا ألقى إبراهيم حجرا كبيرا في محيط قلوبهم الراكد ، و أحدث فيها أمواج امتلاحة من الشك ، و الواقع : إن زرع الشك في القلب بالنسبة إلى الوضع الفاسد خصوصا عند أولئك الجامدين يعتبر أكبر إنجاز .

ففي حوار بين طبيب هندي ملحد ، و الإمام الصادق - عليه السلام - يلقي الامام الشك في روعه فيما يتعلق بعقائد الطبيب الفاسدة ، فيقول : لا ادري لعل في بعض ما ذكرت مدبرا ، و ما ادري لعله ليس في شيء من ذلك ؟

فيقول له الامام:

"اما اذا خرجت من حد الإنكار الى منزلة الشك ، فاني أرجو أن تخرج الى المعرفة " (١) [٧٤] و لم يملك القوم حجة ، فأحالوا القضية إلى التراث الذي هو آفة المتدينين ، حيث يختلط بالدين في ذهن الناس بما يصعب فكاهه عنه.

[قالوا بل وجدنا ءاباءنا كذلك يفعلون]

[75] هناك تجلى تحدي إبراهيم لقومه ، فأعلنها صراحة : أنني براء منكم و مما تعبدون ، لأن تلك الاصنام عدوة لي:

[قال أفرءبتم ما كنتم تعبدون]

و هذا التعبير بالغ درجة كبيرة من الاستخفاف و السخرية.

[76] [أنتم و ءاباؤكم الأقدمون]

(1)بحار الانوار / ج ٣ / ص ١٥٥.

اي أنني لا أتحدى فقط آباءكم القرييين إليكم ، بل حتى أولئك الأكثر فداسة عندكم وهم الافدمون .
أليس المجتمع الرجعي يكتسب فيه القديم قيمة تنامى مع مرور الزمان كانه الخل أو الخمر ؟!

[77] [فإنهم عدو لي]

أنني أعاديه بصراحة ، لانه هو الذي يعاديني.

لقد كانت تلك كلمة البراءة ، أزال بها ابراهيم الحصانة التي خلعها أولئك الرجعيون على الأصنام ، و لعل إبراهيم (ع) استهدف أيضا من ذلك أمرين آخرين :

أولا : إثبات عدم قدرة الأصنام على الإضرار بأحد اثبت ذلك عمليا ، حيث كان أولئك الجهلة يحذرون الأصنام ، و يتهيبون ترك عبادتها ، فكان قدوة في الرفض ، و هكذا من يتبع نهج إبراهيم من المؤمنين الصادقين ، يرفضون التسليم للطغاة ، و يصبحون قدوة في ذلك ، حيثيثبتون بعملهم ان الطغاة ليسوا بمعجزين في الأرض.

ثانيا : إن الأصنام رمز النظام السياسي و الإقتصادي ، و تقديسها حجر الزاوية في البناء الثقافي للمجتمع الجاهل ، و أن الاستمرار في عبادتها يعني استمرار الوضع الفاسد الذي يضر بالإنسان ، فالأصنام عدوة للإنسان فعلا ، و على الانسان أن يتخذها عدوا.

ولا يكفي رفض الأصنام ، بل لابد من التوجه الى الله ، لذلك قال ابراهيم (ع) :

[إلا رب العالمين]

[78] [الذي خلقني فهو يهدين]

لقد خلق الله كل شيء خلقا متينا ، و أجرى فيه سننا بالغة الدقة ، و هدى الإنسان الى تلك السنن بالغرناز ، و الفطرة ، و العقل ، و الوحي ، و تطابق الوحي و السنن أكبر شهادة على صدق الرسالة ، و

أبلغ حجة على حكمة الرب ، و حسن تديره سبحانه.

[79] و البشر مفلور على تقدير من يطعمه و يسقيه ، و لكن يخطأ في معرفة المصدر الحقيقي للطعام و الشراب . انه ينظر إلى الوسيلة ولا ينظر الى المصدر ، يرى الرافد و يغفل عن ينبوع ، يحس بيد الخباز و لكنه يجهل أو يتجاهل هل عشرات الأيدي من قبلها و يد الغييم ورائها جميعا.

أما صاحب الفطرة النقية التي تتحدى سلطة المجتمع ، ولا يضع انسانيته بالتسليم للفساد الثقافي السائد عليهم ، فهو الذي يهتدي إلى لب الحقائق ، و غيب الظواهر ، كمثل إبراهيم اذ قال:

[و الذي هو يطعمني و يسقين]

[80] لقد جعل الله في جسم الإنسان نظام مناعة ، يقاوم الجراثيم ، و يساعد على التغلب على المرض ، و مدى قدرة هذا النظام أو ضعفه ، و مدى قدرة الجرثومة و ضعفها خاضع لتقدير الله سبحانه ، و هكذا يموت أو يطيب المريض بما لا يتحكم فيه البشر مهما أوتي من علم.

و لو أفقد الله الجسم مناعته ، فلا أحد قادر على حفظه حتى ولو شرب أطنانا من الأدوية المضادة.

هكذا عرف إبراهيم بفطرته النقية الحقيقة هذه ، فقال:

[وإذا مرضت فهو يشفين]

ان الشفاء بيد الله ، و الله أودع في جسم الإنسان ما يتغلب به على المرض ، و افضل العلاج مقاومة المرض بقوة الجسم ، و قد أكدت النصوص الاسلامية على هذه الضرورة.

وجاء في الحديث:

"امش بدانك ما مشى بك"

و جاء في حديث ماثور عن الامام الصادق (ع) انه قال:

"من ظهرت صحته على مرضه فتعالج بشيء فمات فأنا إلى الله منه بريء (1) "وربما لكي يتحمل آلام المرض ، ولا يسرع الى مقاومته مما يفقده مناعته ، جاءت نصوص تؤكد ثواب المرض للمؤمن.

جاء في حديث ماثور عن عبد الله بن مسعود انه قال:

بينما نحن عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) اذ تبسم فقلت له : مالك يا رسول الله ؟ قال:

"عجبت من المؤمن و جزعه من السقم ، و لو يعلم ماله في السقم من الثواب لأحب الا يزال سقيما حتى يلقي ربه عز وجل " (٢)(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٥٥

(2)المصدر / ص ٥٦

و ندب الشرع كتمان الأكم ثلاثا ، و انبأنا أن في ذلك ثوابا عظيما ، فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

"قال الله تبارك و تعالى : ما من عبد ابتليته ببلاء فلم يشك الى عواده ، إلا أبدلته لحما خيرا من لحمه ، و دما خيرا من دمه ، فإن قبضته قبضته إلى رحمتي ، و ان عاش عاش و ليس له ذنب " (١) [٨١] في خضم المشاكل اليومية التي يواجهها البشر ينسى الحقائق الكبرى ، كمن يعالج شجرة في طريقه

فتحجبه عن الغابة ، وإنما المهديون من عباد الله يتذكرون أبدا تلك الحقائق الكبيرة . من أين والى أين ومن المدبر ؟

و الموت و الحياة هما أخطر ظاهرتين يمر بهما البشر ، و إذا كشفت عن بصره غشاوة الغفلة فانه يهتدي إلى من يقهر الناس بالموت ، ثم يعثهم للحساب ، قال ابراهيم (ع) :

[و الذي يميّني ثم يحييني]

[82] علاقة البشر بأي شيء أو شخص تنتهي بالموت ، ولكنها تستمر مع الرب الى يوم الدين ، حيث لا تنفع علاقة أخرى.

[و الذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين]

ان القلب الواعي تنكشف له الحقائق حتى يبلغ ذروتها ، المتمثلة في اليقين بالبعث و النشور ، و هكذا كان عند ابراهيم عليه السلام.

(1)المصدر.

[83]لقد تجلت الحقائق لقلب إبراهيم (ع) حيث سلم لرب العالمين ، ففاضت يقينا و سكينه ، و نطقت بتطلعات سامية من وحي تلك الحقائق ، فمن آمن برب العالمين ، و عرف أنه الخالق الهادي ، و المطعم الساقى ، و الشافي ، و المحي المميت ، و الغافر للذنوب فلا يملك نفسه أن يتضرع اليه ، و يطلب حاجاته.

و تطلعات الإنسان كبيرة ، لأن الله خلق الانسان في أحسن تقويم ، و أكرمه ، و فضله ، و أودع في نفسه روح النمو و التسامي إلا أن عبادة الأصنام تكبت النفس و تذللها و تميت تطلعاتها ، أما إبراهيم - عليه السلام - الذي تحرر من هذه العبادة فقد انفتحت قريحته بالدعاء ، و أعظم به و أعظم بمن دعا و أعظم بما دعا ، اذ قال:

[رب هب لي حكما]

هذا طلب عظيم ان تسأل الله ان يجعلك خليفته في الأرض ، و يبدو أن الحكم هنا النبوة أو العلم ، و مما يدعوا المؤمنون به قولهم:

"ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرّة أعين و اجعلنا للمتقين اماما " . (١) [و الحقني بالصالحين]

و أكرم الصالحين هم الأنبياء ، و يبدو أن إبراهيم (ع) طلب بذلك الإستقامة على الطريقة حتى النهاية ليلتحق بالصالحين ، وذلك لعلمه أن الأمور بخواتيمها ، و على الإنسان ان يوطن نفسه لمقاومة الضغوط حتى يحظى بعاقبة حسنى.

[84] قد ينتهي الانسان ، و يمحي أثره ، و ينسى ذكره إلا أن النفس السوية تتطلع الى بقاء ذكره الحسن من بعده ، كذلك قال ابراهيم:

(1)الفرقان / ٧٤

[واجعل لي لسان صدق في الآخرين]

و كان رسول الله - صلى الله عليه وآله - هو دعوة ابراهيم كما قال ، فهو - اذا - لسان صدق في الآخرين ، حيث جدد شريعته ، و اعلى ذكره.

كما فعل ذلك الإمام علي - عليه السلام - حيث جاء في تفسير علي بن ابراهيم في تفسير هذه الآية انه أمير المؤمنين عليه السلام . (١) و قد حرض الاسلام على البحث عن الذكر الحسن ليس باعتباره تطلعا مشروعا فقط ، و إنما أيضا لأنه يعكس كمال النفس و تكاملتها.

جاء في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين (ع) قال:

"الا وان اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال ، يورثه من لا يحمده " (٢) [٨٥] ما شر بشر بعده الجنة ، و منتهى رغبة النفس السوية الحصول على الجنة ، التي هي دار من ارتضاه الرب و أرضاه.

[واجعلني من ورثة جنة النعيم]

[86] أول من تحدى إبراهيم (ع) هو أبوه آزر ، و لعله كان يحس ان له عليه حقا ، فلا بد من ان يبر اليه ، فدعا له بالهداية ثم بالمغفرة ، فقال:

[و اغفر لأبي إنه كان من الضالين]

(1)المصدر / ص ٥٧

(2)المصدر.

ولعل الإستغفار للضال الذي لم يبلغ درجة الجحود حسن ، لا سيما إذا كان له حق ، و معنى الاستغفار هنا هدايته فيما يبدو .

و كان إبراهيم قد وعد أباه بأن يستغفر له ، فقال : " سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا " . (١) ولكن ابراهيم تبرأ منه لما تحول من الضلالة الى العناد و الجحود ، فقال ربنا سبحانه:

"وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة و عدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم " (٢) [٨٧] لم يكن إبراهيم مذنبا ، انه كان نبيا عليا ، عصمه الله من الذنوب ، و لكنه حين وجد نفسه في حضرة ربه و جدها حافلة بالنقص ، فلم يملك سوى الإستغفار ، و طلب المزيد من الطهارة و الكمال ، و ليست هناك لغة بين القلب و الرب أبلغ في الحب و الهيام من لغة كلغة التذلل و الاعتراف و طلب العفو . فقال ابراهيم عليه السلام:

[ولا تخزني يوم يبعثون]

ان الخزي ثمة بالنار حيث يقول المؤمنون : " ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيتة وما للظالمين من أنصار " (1)(3)مريم / ٤٧.

(2)التوبة / ١١٤ .

(3)آل عمران / ١٩٢ .

[88] يوم لا ينفع مال ولا بنون]

و أعظم ما يستعبد البشر في الدنيا حب المال و البنين ، فإذا تحرر من عبادتهما فقد فاز.

[89] [إلا من أتى الله بقلب سليم]

فإذا سلم القلب سلمت الجوارح ، و سلامة القلب بتطهيره من حب الدنيا ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، كما أخبر الرسول - صلى الله عليه وآله . _

و جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - في تفسير آية:

"القلب الذي سلم من حب الدنيا " (١١)

[90] في ذلك اليوم تؤتى الجنة و تزف الى المتقين كما العروس تزف الى زوجها ، أما النار فتبرز للكفار و يعلمون انهم موافعوها.

[وأزلفت الجنة للمتقين]

[91] [و برزت الجحيم للغاوين]

الذين ضلوا و اضلوا بعد علم.

[92] [الوحي يفك العلاقات الإجتماعية الفاسدة التي قد تتحول الى اقفال في القلب و أمراض ، و تمنعه السلامة ، ولكي ننظم علاقاتنا على أحسن وجه لابد ان نجعل يوم القيامة المقياس ، و نتساءل : هل نستفيد من هذه العلاقة فنحافظ عليها ، (١) مجمع البيان / ج ٥ / ص ١٦١ (طبعة بيروت)

أم لا فنتحرر منها ، قال الله:

[و قيل لهم أين ما كنتم تعبدون]

[93] [من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون]

كلا .. فلا ينصرون أحدا ، ولا هم أنفسهم ينصرون.

[94] [تتلاحق أمواج الكفار وراء بعضها لتلقي في جهنم الذين ضلوا و الذين اضلوهم ، لا أحد ينصر أحدا.

[فككبوا فيها هم و الغاوين]

أي دهدهوا ، و طرح فيها بعضهم على بعض.

و يبدو ان هناك ثلاث فرق هما الجماهير ، و الطغاة ، و من يؤيدهم . جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - قال:

"هم قوم و صفوا عدلا بألسنتهم ثم خالفوه الى غيره " (١) [٩٥] [و جنود إبليس أجمعون]

و هذا الفريق - كما يبدو - هم الذين ايدوا الطاغوت ، فالذين يككبون في النار - بالتالي - ثلاث فرق : من اتبعوا من عامة الناس ، و من اتبعوا من ولائهم ، و من ساعدوا من جنودهم.

[96] [و تقطع في يوم الحسرة أسباب العلاقة بين التابعين و المتبوعين ، بل تجدهم (١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٥٩.

يتلاومون و يتلاعنون.

[قالوا و هم فيها يختصمون]

[97] [تالله إن كنا لفي ضلال مبين]

[98] [إذ نسويكم رب العالمين]

لقد أترفوا بمدى ضلالتهم عن الحق و بعدهم عن الصواب ، إذ جعلوا أندادهم سواء مع رب العالمين.

[99] [و لكن من المسؤول عن ضلالتهم هذه ؟ انى كان فهو قد ارتكب جريمة كبرى بحقهم.

[وما أضلنا إلا المجرمون]

اختلف المفسرون في المجرم فقالوا : الذين اقتدوا بهم من الطغاة ، أو الشياطين ، أو الكفار السابقين ، الذين دعوهم الى الضلال.

و الواقع : أن كل أولئك ينطبق عليه هذا الوصف ، ولكن أحقهم جميعا بهذه الصفة هم أذعياء الدين و العلم الذين يشتغلون بتضليل الناس.

[100] [و اليوم أين أولئك المجرمون ؟!]

[فما لنا من شافعين]

[101] [ولا صديق حميم]

فلا أحد من هؤلاء المجرمين يشفعون لبعضهم ، ولا حتى الصداقات الحميمة تنفع ذلك اليوم.

بلى .. ان المؤمنين يشفع بعضهم لبعض كما جاء في نصوص صريحة.

فالنبى - صلى الله عليه وآله - يشفع لأمته ، و الأئمة - عليهم السلام - يشفعون لشيعتهم ، و المؤمنون يشفعون لبعضهم.

جاء في الحديث : عن أبان بن تغلب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

"ان المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفع فيهم حتى يبقى خادمه ، فيقول -و يرفع سبابتيه - : يا رب خويدي كان يقيني الحر و البرد ، فيشفع فيه [102] (1) " ثم تقطع الحسرة نياط أفئدتهم ان لو كانت لديهم فرصة أخرى حتى يكونوا مؤمنين.

[فلو أن لنا كرة]

رجعة الى الدنيا.

[فنكون من المؤمنين]

[103] [إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين]

بالرغم من تظافر الآيات.

[104] [وإن ربك لهو العزيز الرحيم]

هذه هي الحقيقة التي نستوحىها من كل تلك القصص التي يقصها ربنا في سورة الشعراء . هدى و نورا . ان ربك عزيز يأخذ الكافرين بقوة ، و هو رحيم ينصر المؤمنين بفضله و منه .

وما انا بطارد المؤمنين

هدى من الآيات

الصراع الدائر بين رسالة الله ، و ثقافة الأرض ، صراع ممتد عبر الزمن ، لأن رسالات الله تهدف تغيير كل القيم الجاهلية ، و إقامة كيان ثقافي جديد ، فحين يدعو نوح قومه الى التسليم و الإيمان بالله ، فانه يدعوهم في ذات الوقت الى التسليم لكل القيم الإلهية التي تحمل التحضر و التمدن لأولئك الناس الذين سلموا لخرافات الماضي ، و فساد الواقع ، و بالرغم من ان ال لرسل (ع) قد تحملوا الصعوبات في سبيل تبليغ رسالاتهم ، إلا أنهم استطاعوا أن يغيروا أفكار البشر ، حتى أن الأفكار الصحيحة التي نجدها في الأقسام الجاهلية لابد أن يكون مصدرها الرسل ، لأن الرسل كانوا بحق المحرك الاساسي للبشرية ، وإلا فإن البشرية كانت تسير بشكل طبيعي نحو النهاية.

و من الصعب على بشر عادي ، ان يربي جيلا كاملا ، و يرفعه الى سماء القيم ، لأن ذلك يستوجب ان يث فيهم و عيا و ثقافة و روحا إيمانيا يستحيل على البشر العادي امتلاكه ، فكيف يبثه في جيل كامل ، و عليه أيضا ان يتحدى الثقافة الموجودة ، و من يقف خلفها.

و يجب ان نقف إجلالا لذلك الفكر الذي يصيغ أجيالا مؤمنة . أن نقف إجلالا أمام صبر الرسل و تضحياتهم كنوح على نبينا وآله و عليه أفضل الصلاة و السلام.

كان يعيش مجتمع نوح الطبقية و التجبر في الأرض ، فكانوا يحتجون على نوح (ع) بقولهم : كيف نؤمن لك و اتبعك الأردلون؟! و كانوا يهددون نوحا - عليه السلام - و من اتبعه بالرحم تجبرا و علوا في الأرض.

و اتباع الازدلين لنوح ليست مبررا لعدم الإيمان ، فان كانوا اردلين ، فربهم أولى بحسابهم ، و على كل حال فلم تكن نهاية قوم نوح بأفضل من نهاية قوم فرعون أو قوم إبراهيم حيث دعا نوح ربه عليهم ، وسأله أن يفتح بينه و بينهم فتحا ، فأغرقهم الله و نجى نوحا و من معه من المؤمنين.

و مرة أخرى تجلت عزة الله بالانتقام من قوم نوح ، كما تجلت رحمته بنجاة المؤمنين ، و كان في ذلك أعظم آية ، و لكن أكثر الناس لا يؤمنون.

بينات من الآيات

[105] [كذبت قوم نوح المرسلين]

الانبياء خط واحد و متكامل ، ارسلوا كلهم من قبل رب واحد ، و تقف رسالاتهم جميعا ، من ناحية المبادئ العامة ، و تفترق في المحتوى الإجتماعي ، فموسى جاء لإزالة طاغوت زمانه ، وإنقاذ أمة مستضعفة ، و نوح جاء لإزالة الطبقية و التجبر ، و مجرد التكذيب برسول واحد يقتضي التكذيب بسائر الرسل جميعا.

وربما معنى هذه الآية أن الله أرسل في قوم نوح أنبياء كثيرين كان آخرهم نوح (ع) .

[106] [لقد أرسل الله الى قوم نوح الجبارين أبا لهم في النسب لكي لا تمنعهم عصبيتهم من اتباع رسالات الله ، و في هذا غاية المنة عليهم .

[إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون]

ألا تحفظون أنفسكم من غضب الرب بترك الفساد ، و يبدو أن قومه كانوا قد بالغوا في عمل السيئات.

[108 - 107] [إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله و أطيعون] أمرهم بطاعته باعتباره رسول الله اليهم ، وهكذا الرسل هم قادة فعليون للمجتمع ، و يعارضون القيادات الفاسدة.

[109] و فرق كبير بين قيادة الرسول لقومه و القيادات الأخرى ، إذ أنه - بخلافهم - لا يكتسب شيئا من قومه ولا يطلب أجرا.

[و ما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين] [١١٠] [فاتقوا الله و أطيعون]

[111] [قالوا أنؤمن لك و اتبعك الأردلون]

هذه هي الطبقية ، أن يتحول المستضعفون إلى أراذل ، و يمتنعون عن الإيمان لمجرد أن هؤلاء قد بادروا إليه.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم : إنهم عنوا بالأردلين الفقراء ، و جاء في تفاسير أخرى معان مشابهة كأصحاب المهن الدنيئة أو المساكين.

[113 - 112] [قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون] أي إني لا أعلم عنهم إلا خيرا ، فقد دعوتهم فاستجابوا لي ، و ما أنا بحاسبهم ان حسابهم الا على ربي.

[114] [وما أنا بطارد المؤمنين]

لست مستعدا للخضوع اليكم بطرد المؤمنين ، و إنما أنا نذير لكل الناس.

و هنا نلاحظ أن نبي الله نوح (ع) رفض ان يكون دينه دين المستكبرين ، فالمستضعفون إن كانوا مؤمنين مخلصين فهم خير من المستكبرين ، و الدين ليس ملكا لنوح (ع) انه ملك لله ، فلا يحق له طرد المؤمنين .

[115] [إن أنا إلا نذير مبين]

هذه حدود مسؤولياتي ، ما أنا إلا نذير مبين ، و من دخل في رحاب الله فالله أولى به.

[116] [قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين] انتهى دور الحجّة ، و جاء دور التهديد ، فهددوه (ع) بأنه إن لم يكف عن دعوته ليكونن من المرجومين ، لأنه يلحق الضرر بكيانهم الإقتصادي ، و الإجماعي - في زعمهم - إذ كان يحرّض - فيما يبدو - صغار القوم على كبارهم - لانه كانينادى بإزالة الطبقة - ويبدو - انهم كانوا حساسين كما غيرهم من الكفار تجاه الرسالة و أفكارها ، فلذلك ناصبوها العدا.

[118 - 117] [قال رب إن قومي كذبون * فافتح بيني و بينهم فتحا و نجني و من معي من المؤمني] أي اقض بيننا قضاء بالعذاب.

[119] [فأنجيناه و من معه في الفلك المشحون]

جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر (ع) ان المراد من الفلك المشحون:

"المجهز الذي قد فرغ منه ، و لم يبق الا دفعه " (١) [١٢٠] [ثم أغرقنا بعد الباقيين]

بعد ان يستئيس الرسل و متبعوهم ، أو يظنوا يقينا أنهم كذبوا أنذ ياتيهم نصر الله ، لأن إرادة الله اقتضت أن ينصر رسله و الذين آمنوا في الحياة الدنيا ، و يعذب من كذب ، و لكن الله لا ينصر إلا بعد جهد جهيد ، و هذه سنة الله.

[122 - 121] إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم [إن الله لا تغره كثرة الكافرين ، و إن أغلب الناس لا يتعظون بالعبرة ، ولا يؤمنون بالرسل ، ولا يستفيدون من أخطاء الماضين.

(1)المصدر / ص ٦٣.

ومرة أخرى تتجلى العزة الإلهية بإغراق الكافرين ، كما تتجلى الرحمة الالهية بنجاة المؤمنين.

و تتخذون مصانع لعلكم تخلدون هدى من الآيات

بعث الله لعاد من أنفسهم رسولهم هودا ، فكان يدعوهم الى رسالات الله ، و نبذ قيم الأرض - و ثقافة الشعراء - و بالرغم من أن هودا كان من نفس الوسط الإجتماعي لقوم عاد إلا أنه كان حنيفا عن ثقافة قومه ، و لم يتأثر بها لأنه اتصل مباشرة بالوحي ، فتحول من بشرعادي إلى بشر رسول.

و لقد أعطى الله لقوم عاد نعما و قوة ، فكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ، و يتخذون مصانع لعلهم يخلدون ، فطغوا و بغوا ، فكانوا اذا بطشوا بطشوا جبارين . و في مقابل عاد كانت الجزيرة العربية مليئة بقبائل لا تستطيع ان تؤمن معيشتها.

و في نهاية القصة يتعرض القرآن الى نفس العقوبة التي يختتم بها القصاص في هذه السورة ، و من ثم تستنتج نفس العبرة و هي ان الله عزيز رحيم.

بينات من الآيات

[123] كذبت عاد المرسلين]

كما أسلفنا أن التكذيب برسول يعني التكذيب بسائر الأنبياء ، فخط هود هو خط كل الأنبياء من قبله ، مع الإختلاف في المحتوى الإجتماعي لكل رسالة بسبب إختلاف الظروف ، و ليس إختلاف رسالات الله.

[124] إذ قال لهم أخوهم هود الأ تتقون]

كان هود من وسط قومه ، فلذلك سمى الله هودا أخا لقومه.

[125] إني لكم رسول أمين]

أحمل رسالته إليكم بأمانة و صدق.

و الأمين كلمة تتميز عن كلمة حفيظ ، فالحفيظ هو الحافظ للشئ ، بينما الأمين هو الذي يؤتمن و يحفظ و يؤدى.

[126] فاتقوا الله و أطيعون]

أو صاهم بتقوى الله ، و تطبيق مناهجه ، و التسليم لولايته و قيادته.

[127] و ما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين [أي لا أطمع في التسلط عليكم ، ولا

أريد منكم أجر تبليغ رسالة الله.

[128] [أتبنون بكل ريع ءاية تعيثون]

الريع هو المرتفع من الأرض ، و جمعه ريع ، و كانوا يتخذون لهم بيوتا عالية للهوهم و عبثهم على المرتفعات من الأرض.

[129] [و تتخذون مصانع لعلكم تخذلون]

كانوا يشيدون المصانع (القصور) كما في اللغة ، و بمراجعة مشتقات الكلمة (صنع - يصنع - صنعا - مصنوع - صانع) يتبين ان قوم عاد قد بلغوا نوعا من التقدم ، و قد بين الله سبحانه ذلك في سورة الأحقاف حينما قال سبحانه : " ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه " . (١١)

و يبدو ان الآلة كان لها أثر كبير على حضارة قوم عاد ، و استخدام الآلة في خدمة الإنسان أو في تسخير الطبيعة شيء حميد ، إلا أن الاستخدام السيء للآلة هو استخدامها بغرض الخلود.

[130] [و تمنى الخلود أو مجرد تصويره يدعو الإنسان الى الطغيان ، فلذلك بنى قوم عاد مساكنهم على الأرياع ، و شيّدوا لهم القصور ، فاعتروا بما صنعوا ، و عندما اغتروا تجبروا و تكبروا ، فوجهوا قولهم و بطشهم لمن حولهم ، قال تعالى :

[وإذ بطشتم بطشتم جبارين]

ان بطشكم ليس على المخطئين ، و لكن بطشكم من أجل نشر تسلطكم ، و نشر الرعب في قلوب الأمنين.

[131] [فاتقوا الله و أطيعون]

(1) الاحقاف / ٣٦.

كرر الله عن لسان هود (ع) كلمة التقوى أربع مرات ، و هذه الآية هي المرة الثالثة ، و ربما يتساءل البعض : لماذا كثر الله التقوى أربعاً ؟

و الجواب : ان التقوى كلمة ليست ذات بعد واحد ، فأمام كل ذنب تقوى ، فالتقوى في الكذب ترك الكذب ، و في الكفر الايمان ، و في الاجرام الترك ، و في الاعتداء التورع.

و على هذا فالتقوى في هذه الآية تتمثل في ترك العبثية ، و إبعاد فكرة الخلود ، و اجتناب البطش بالناس نكاية بهم ، و هكذا قوم هود كلما ذكر انحراف عندهم أمرهم بالتقوى في الله لأن الانحراف يؤدي الى العذاب الإلهي الذي لا بد من اجتنابه ، أما التقوى في الآية التالية فلعل المراد منها الشكر ، و ترك الكفر بنعم الله بعدم أداء حقوقها .

و قد أرفق هود بكلمة التقوى كلمة " واطيعون " للدلالة على أن الإصلاح يمر عبره ، لأنه يمثل خلافة الله في الأرض.

[132 - 133] [و اتقوا الذي أمركم بما تعلمون * أمركم بأنعام و بنين] ربما تشير هاتين الآيتين الى مرحلة البداوة التي مر بها قوم عاد ، و يشير الله اليها بقوله : " بأنعام و بنين " و هذه النعم عادة ما تكون لأهل الصحراء.

[134] أما المرحلة الثانية التي مر بها قوم عاد فهي مرحلة التحضر ، وذلك في قوله سبحانه:

[و جنات و عيون]

حيث ان الزراعة نوع من التقدم في مسيرة البشرية.

[135] [إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم]

أشفق هود على قومه أن يحل عليهم عذاب يوم عظيم ، و لعل الفرق بين العذاب العظيم و عذاب يوم عظيم الذي ذكره القرآن هو : ان العذاب اذا نسب الى اليوم فكأنه يستوعبه ، و يسنم بامتداده ، و لعله يكون أكثر من نوع واحد من العذاب . فحذرهم ذلك اليوم.

[136] [قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين] كلاهما سواء ، و عظت أم لم تعظ ، لن تؤمن لك.

[137] [إن هذا الأخلق الأولين]

و سم قوم عاد نبيهم هودا (ع) بالرجعية ، و الأفكار المتخلفة عندما قالوا " : ان هذا إلا خلق الأولين " و ذلك لأن نبي الله نوح (ع) أوصى بنيه بأن سيكون بعده نبي من ذريته ، و أعلمهم صفاته ، و أوصاهم بطاعته ، فكانت هذه الوصية تراثا يتوارثها الأجيال ، و كان عندهم عيد يقيمونه كل عام ، يذكرون أنفسهم بوصية جدهم نوح (ع) و عندما جاءهم هود كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين .

جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) انه قال:

"ان نوحا (ع) لما انقضت نبوته ، و استكمل أيامه أوحى الله اليه : يا نوح ! قد قضيت نبوتك ، و استكملت أيامك ، فاجعل العلم الذي عندك ، و الإيمان ، و الإسم الأكبر ، و ميراث العلم ، و آثار علم النبوة في العقب من ذريتك ، فاني لن اقطعها كما لم اقطعها من بيوتات الأنبياء ، الذين كانوا بينك و بين آدم (ع) و لنأدع الأرض إلا و فيها عالم يعرف به ديني ، و تعرف به طاعتي ، و يكون نجاة لمن يولد فيها بين قبض النبي الى خروج النبي الآخر " قال (ع) :

"و بشر نوح ساما (ابنه) بهود عليه السلام " (١) [١٣٨]] و ما نحن بمعذبين]

أي لسنا بمعذبين لكرامتنا عند الله ، و ربما تصورا أنهم ليسوا بمعذبين لاستحالة العذاب.

[139] [فكذبوه فأهلكناهم]

يختصر الله المسافة بين التكذيب و الإهلاك بقوله : " فكذبوه فأهلكناهم " لأن هذه الفترة ينسأها من يحل عليه العذاب ، فتكون عنده الحياة يوما أو بعض يوم ، و لحقارتهم أيضا عند الله عمهم بالجملة ، مختصرا كل حياتهم و ما بنوا و ما بطشوا وما كفروا في هاتين الكلمتين:

[إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين]

أي في اهلاكهم آية ، و لكن أكثر الناس عندما تمر عليهم مثل هذه العبر لا يؤمنون بها ، فيجري عليهم الله سنته بأن يهلكهم بعد الإنذار.

ولكن الذي يستفيد من العبر هو من آمن ، و خاف و عيذ الله ، و صدق بأن الله عقابا.

[140] وإن ربك لهو العزيز الرحيم]

تتجلى عزة الله بأن أخذ قوم عاد أخذ عزيز مقتدر ، و تتجلى رحمته أنه نجى هودا ومن آمن معه.

ولا تطيعوا أمر المسرفين هدى من الآيات

عاش قوم ثمود ، و هم عشر قبائل في أطراف الجزيرة العربية ، في إحدى الواحات ، عند سفح جبل منيع (مدائن صالح) و صنعوا بيوتهم فيه ، و كانوا يزرعون أسفل الوادي ، فازدهرت حضارتهم ، و انحرفوا عن فطرتهم بعد ما بطرت معيشتهم ، و البطر جعل قوم ثمود طبقتين : طبقة غنية متسلطة ، و أخرى فقيرة مسحوقة ، ففسدوا و أفسدوا معهم المستضعفين.

فجاء نبيهم صالح (ع) لينهي الناس عن إطاعة أمر المسرفين ، المفسدين في الأرض ، الذين لا يصلحون ، و آتئذ اتهموه بأنه من المسحرين ، فأت بأية إن كنت من الصادقين ، فجاءهم بالناقاة لها شرب و لهم شرب يوم معلوم ، خانوا الله فيها فعقروها فأصبحوا نادمين.

وأخيرا يتعرض الله لنفس النتيجة التي يكررها في كل درس.

بينات من الآيات خصائص الرسول

[141] كذبت ثمود المرسلين]

الذي يكذب برسول ما ، لو فكر قليلا لرأى ان سنة الله في الحياة ان يبعث رسلا ، وارسال صالح الى قومه ثمود لم يكن خارجا عن تلك السنة ، قال تعالى : " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير " . [١٤٢] [١] إذ قال لهم أخوهم صالح الا تتقون]

و التقوى هنا الحذر من العذاب الذي يتوقع نزوله بسبب فسادهم في الأرض.

و لعل تكرار استخدام هذه الكلمة في هذه السورة يهدف زرع نية التقوى في القلب ، إذ أن السياق يربط بين هلاك القوم بذنوبهم و بين أعمالهم ، لعل التالي للذكر - أنا و أنت - يزداد إيمانا بهذه الحقيقة : إن الجزاء سينتج العمل ، فلا يختار عملا سيئا مهما كان صغيرا ، ذلك أن سنة الله واحدة في الحقائق الكبيرة و الصغيرة ، فالنار هي النار ، طبيعتها واحدة في قليلها و كثيرها.

[143] و للداعية الى الله شرطان : رسالة يعيها تماما ، و أمانة يحافظ عليها.

[إني لكم رسول أمين]

[144 - 145] وهكذا تنتظم الحياة اليوم بفقده الدين (الرسالة) و الإلتزام به ، و الانسجام بالعدالة الشرعية (الأمانة.)

(1) فاطر / ٢٤.

و مسؤولية الناس تجاه الرسالة تقوى الله ، و تجاه حامل الرسالة طاعته.

[فاتقوا الله و أطيعون * وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين] تأكيد لله - سبحانه و تعالى - على هاتين الآيتين في هذه السورة يبين لنا أن من صفات الرسل أنهم يتخذون رسالتهم وسيلة للتقرب الى الله ، بيد أن الشعراء يتخذون شعرهم وسيلة للإكتساب.

[148 - 147 - 146] أتركون في ماها هنا ءامين * في جنات و عيون * و زروع و نخل طلعتها هضم
[تحسبون أنكم متروكون .. تتمتعون بالنعم و الأمن ، و حولكم جنات و عيون ، و زروع و نخل طلعتها
جميل جذاب و منسق.

فلا تحسبوا أن النعم والأمن تدون لكم ، و انتم مخلدون فيهما ، فقد يأخذكم عذاب بئيس ، فلا
تستطيعون صرفا ولا نصرا.

[149] و كذلك لا ياخذكم الغرور بقوتكم لأنكم تبنون لكم بيوتا فارهة ، غاية في القوة و المتانة و الإبداع.

[و تحتون من الجبال بيوتا فارهين]

لقد بلغت حضارة ثمود مبلغا من التقدم ، حيث اهتموا بالزراعة ، كما اهتموا ببناء المصائف و المدن
الجبليّة ، و قد وصف الله بيوتهم التي ينحتونها بانها فارهة ، و هذه ليست من عادة المناطق الجبلية ، و
انما يبنون الواسع من البيوت في سفوح الجبال لأنهم استكبروا في الأرض.

[151 - 150] فاتقوا الله و أطيعون * و لا تطيعوا أمر المسرفين [للإسراف أبعاد : إما في المال ، أو في
الظلم ، أو في المعاصي ، و هذا يؤكد انه كان في قوم ثمود كثير من الطواغيت المتكبرين.

و الملاحظة الأخرى أن الطبقية كانت منتشرة فيهم ، إذ قال نبيهم صالح (ع) لهم : " ولا تطيعوا أمر
المسرفين " حيث يبدو أن هذه الطبقة أضحت طائفة خطيرة تزحف نحو القيادة.

و قال لهم نبيهم صالح (ع) اطيعوني ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، و قد سبق طاعته بتقوى الله و قال : "
فاتقوا الله و أطيعون " لكي يبرر طاعته للناس بأن طاعته امتداد لطاعة الله.

و يبدو أن جوهر الفساد ، أو العامل الرئيسي له هو الإسراف ، فاذا زادت النعمة على الإنسان أسرف
في تلك التي أعطها الله إياها ، و بالتالي جعلها مادة لفساده ، فقد يعطي الله إنسانا نعمة الجمال
فيفسد بها ، أو نعمة الجنس فيفسد بها ، أو نعمة المال و الولد فيتجبر بهما و يطغى على من هو دونه
... وهكذا.

فبدل أن يصل بهذه النعم إلى رضوان الله ، و إصلاح المجتمع ، و عمارة الأرض ، إذا به يصل إلى عبادة
ذاته ، و بالتالي الإفساد في الأرض.

ان الله يرزقنا النعم كي نستفيد منها في عمارة الأرض ، و البلوغ الى جنانه و مرضاته - سبحانه - فقد
رزقنا الله اليد لنأخذ بها حقنا لا ان نبطش بها ، و العين لنبصر بها لا ان ننظر الى الحرام ، و اللسان كي
نسمع الناس الحكمة لا ان نتناول به بالغيبة و البهتان و السباب .. و هكذا.

وفي يوم القيامة يحتج الله على العباد ، فيأتي بيوسف حجة لمن فسد بجماله ، و بمريم لمن باعت
نفسها ، و بأيوب لمن لم يصبر عند البلاء.

[152] من هم المسرفون ؟

بعد ان كانت ثمود تعمر الأرض بالزراعة و البناء ، نمت فيها طبقة المسرفين الذين أصبحوا بؤرة الفساد ، و
عندما تنحرف مسيرة المجتمع ، و يتسنى ذروة القرار فيها أناس همهم الإفساد ، فان خطاهم نحو
النهاية سوف تتسارع ، و في هذه اللحظات الحاسمة من تأريخ الأمم يبعث الله رسله لعلهم يتوبون اليه ،
و يتقونه و يطيعون رسله.

[الذين يفسدون في الأرض]

وإذا غلب على الانسان حالة الإفساد فانه لن يكون مصلحا ، و ما يتظاهر به من الدعوة الى الاصلاح هواء ، و هذا شأن المسرفين.

[ولا يصلحون]

و اليوم يصنع المستكبرون و سائل إبادة البشرية جميعا ، ثم ينادون بالسلام أو بحقوق الانسان و هم كاذبون.

و لعل من معاني الاسراف بالاضافة الى الاسراف بالمال ، الاسراف بالفساد ، و سفك الدماء.

جاء في الحديث عن الامام الباقر (ع):

"المسرفون هم الذين يستحلون المحارم ، و يسفكون الدماء " (١)(١) ميزان الحكمة / ج ٤ / ص ٤٤٧.

[153] قالوا إنما أنت من المسحرين]

أي أنه قد أصيب بسحر ، و يبدو ان هذا الكلام تهمة خفيفة بالجنون

فأت بآية

[154] ما أنت إلا بشر مثلنا]

انت بشر مثلنا ، و صحيح ان الرسول بشر مثلهم إلا أنه يوحى إليه ، و قد كانوا يتصورون - كما فرعون و كفار قريش - أن الرسول يجب ان يكون متميزا عليهم ، بأن يكون معه الملائكة ، أو يلبس الذهب ، أو يملك الخزائن ، أو أنهم من جنس آخر غير جنس البشر ، و إنما أرسل من جنس البشر لكي يكون الايمان به بحرية ، و عن يقين و علم تامين ، فلو أرسل الله الرسل كما يتصورون إذا لا نتفى أساسا الاختبار.

[فأت بآية إن كنت من الصادقين]

يؤمن بعض الناس بمجرد رؤية شواهد الرسالة ، كأن يؤمنون لأن رسلهم السابقين أشاروا الى هذا النبي ، بينما يؤمن بعضهم لما يراه من صفات الرسل ، و هناك أناس لا يؤمنون الا بالمعجزة ، و يبدو أن قوم ثمود كانوا يعرفون رسولهم ، ولكنهم يفقدون الثقة به ، فهم يحتاجون الى دليل صارخ على صدقه.

[155] قال هذه ناقة لها شرب و لكم شرب يوم معلوم [أتى لهم صالح بمعجزة الناقة و فضيلها التي تشرب الماء يوما ، و يشربون الماء يوما ، و في اليوم الذي تشرب فيه تدر عليهم اللبن.

[156] ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم]

وأمرهم بأن لا يمسوا الناقة بسوء ، فيأخذهم الله بعذاب يوم عظيم.

فالإنضباط ، و التزام الأوامر لها الفضل الأكبر في ديمومة الحضارة ، و بعكسها التسبب و الإعتداء ، لأنهما يخالفان سنن الحياة الطبيعية.

[157] فعقروها فأصبحوا نادمين]

انهم شعروا بالندم على قتلهم الناقة (و القتل من الذنوب التي تورث الندم) كما في الحديث الذي استدل بقوله في قصة ابني آدم : " فقتله فاصبح من النادمين . "

[158] فأخذهم العذاب]

نزل بهم العذاب ، و كان طاغية عليهم.

[إن في ذلك لأية و ما كان أكثرهم مؤمنين]

فهل من معتبر؟! فبالرغم من ان إهلاك القوم نذير صاعق الا أن آذان أكثر الناس تصم دون هذا النذير.

[159] وإن ربك لهو العزيز الرحيم]

جمع في نفسه العزة و الرحمة ، فهو شديد العقاب ، و لكن رحمته سبقت عذابه الا على القوم الكافرين عندما يسלט عليهم العذاب ، فأنثذ لا محل لرحمته.

أتأتون الذكران من العالمين هدى من الآيات

في سياق بيان رسالات الله و اهدافها الاصلاحية يبين ربنا قصة قوم لوط الذين انحرفوا جنسيا ، فارسل الله اليهم رسولا من أنفسهم انبأهم بأنه يحمل اليهم رسالة ربهم بأمانة ، و أمرهم بتقوى الله و طاعته وقال : بانه لا يطلب منهم اجرا ، و لكنه يعمل لهم في سبيل الله الذي يرجو ان يعطيه الاجر الوافي ، ثم واجه انحرافتهم الكبرى و هي الاباحية والشذوذ الجنسي ، حيث كانوا يأتون الذكران من أي قوم كانوا ، و يذرون ما خلق الله لهم من أزواجهم ، و نعتهم بالتعدي عن الحق و الجور.

فهدوه بالاخراج ان لم ينته من معارضتهم ، ولكنه تبرأ من عملهم ، وسأل الله ان ينقذه من ذلك العمل القبيح ، فنجاه الله و أهله جميعا سوى زوجته العجوز التي هلكت و اوضحت عبرة.

و دمر الله الآخرين ، وذلك بان أمطر عليهم مطر السوء ، و بنس المطر كانلاولئك الذين تم سلفا إنذارهم و بقيت من قصتهم آية و علامة لعل الناس يهتدون ، الا أن أكثر الناس لا يؤمنون . و خلاصة الحقيقة التي يمكن معرفتها بهذه الآية هي ان الله عزيز رحيم.

و هكذا تختلف صور الفساد و نهايته واحدة مهما اختلفت صورته ، و لعل السبب الرئيسي للفساد هو الاسراف.

بينات من الآيات أتأتون الذكران ؟

[164 - 160] كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إنني لكم رسول أمين * فاتقوا الله و أطيعون * وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين [ذات الكلمات ، و ذات النبوة نسمعها من لوط (ع ،) لان جوهر الانحراف عند كل قوم واحد ، بالرغم من اختلاف صورته ، فلا بد ان يكون جوهر الرسالات واحدا ، بالرغم من اختلاف كل رسالة عن غيرها في مجال الاصلاح الذي يستتبع نوع الانحراف.

[165] أتأتون الذكران من العالمين]

و لعل هذه الآية تشير الى طبيعة فساد الاباحية و الشذوذ الجنسي حيث إنه ينتشر و يتعدى حدود البلد ، و قد انتشر فعلا الفساد الخلقي عند قوم لوط حتى قال أسفا : أليس منكم رجل رشيد؟! ، و تعدى فعل الفاحشة الى كل العالمين.

[166] و تذكرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون]

عادون : أي تتعدون.

كان تركهم الازواج و اقبالهم على الذكران تعديا و تجاوزا ، بل و تمردا على الفطرة التي فطر الناس عليها ، و لم يكن هدفهم - والله أعلم - اشباع شهوتهم ، بالرغم من ان الله يلقي على الملاط به - و العياد بالله = شهوة النساء ، فمقاربة النساء أكثر شهوة من مقاربة الرجال ، و لذا سماهم الله سبحانه بالعادون.

و الزواج في الاسلام ضمان من الانحراف ، و هو صمام أمان لمثل هذه الانحرافات و التي صارت تحتاح البشرية بشكل مريع.

اني من الغالين ولا تعثوا في الأرض مفسدين هدى من الآيات

و اصحاب الأيكة أيضا كذبوا الرسل ، اذ قال لهم نبيهم شعيب (ع) : أوفو الكيل ولا تكونوا من المفسدين ، و زنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تعثوا في الارض مفسدين ، فكذبوا رسولهم ، و تحدوه ان يأتيهم بآية ، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم.

و اصحاب الأيكة هم قوم يسكنون جانبا من غابة خضراء ، و الأيكة هي الأشجار الملتفة حول بعضها.

إنهم اصبحوا سباعا على بعضهم البعض ، كل يبحث عن الرزق من غيره ، فبدل ان يتعاونوا مع بعضهم من أجل استخراج خيرات الطبيعة ، و استثمار تلك الغابات أصبحوا يطففون الميزان ، و عصوا رسولهم شعيب.

بينات من الآيات و زنوا بالقسطاس المستقيم [176] كذب أصحاب الأيكة المرسلين

الأيكة و جمعها أيائك وهي الغياط و الحدائق الكثيفة.

[177 - 180] إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله و أطيعون * و ما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين [كل الانبياء جاؤوا بمحتوى عقائدي واحد ، و لذلك فالتكذيب برسول تكذيب بكل الرسل ، و لعل تأكيد الانبياء على أنهم لا يطالبون بأجر يعتبر بمثابة اسقاط حقوقهم سلفا.

[181] أوفوا الكيل و لا تكونوا من المخسرين]

[182] و زنوا بالقسطاس المستقيم]

زنوا بالعدل و القسط ، و القسطاس هو الميزان ، و ليس ميزانا فحسب بل ميزانا مستقيما ، و يبدو ان الواجب هو العطاء بمقدار الوزن لا زيادة ولا نقصان ، و جاءت الروايات لتجعل الوفاء بالميزان من المستحبات ، فواجبك ان تعطي مستقيما ، و لكن من المستحب ان تزيد في الكيل.

[183] [ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين] كانت علاقة اصحاب الأيكة ببعضهم علاقة إفساد ، فبدل ان يتعاونوا على الانتاج اذا بهم يفسدون في الارض ، و كان البعض يأكل من الآخر ، فكان الزارع لا يعتمد على زراعته ، و المنتج لا يعتمد على انتاجه ، لأنهما كلما زرعا و انتجا أكل ريعهما الرأسماليون الجشعون ، فكانوا مضطرين ان ينضموا الى هذا الكيان الفاسد اقتصاديا ، و يبدو أن السلطة كانت للساوقين شأنهم شأن الانظمة الرأسمالية اليوم و الواقع : نفسية الحريص هي نفسها نفسية الفاتح العسكري ، الامبراطور و ، ، و ، ، و نفسية هؤلاء و غيرهم هي نفسية لاستعلاء ، قالتعالى : " وانه لحب الخير لشديد " (1) و جاء في الحديث :

"ان ابن آدم لو كان يملك مثل أحد ذهباً لتمنى آخر "وهذه النفسية قد تكون عند الفقير ، فهناك فقراء متكبرين ، و جاء في قصة : ان الرسول (ص) مر و بعض أصحاب احد طرقات المدينة ، و اذا بامرأة عجوز

شمطاء دميمة الخلق ، تلم رزقها من القمامة ، فقيل لها : افسحي الطريق لرسول الله (ص) فقالت : ان الطريق ليس ضيقا ، فنهرها الاصحاب ، فقال لهم الرسول (ص) :

"دعوها فانها امرأة جبارة "

[184] [واتقوا الذي خلقكم و الجيلة الأولين]

اتقوا الله الذي خلقكم و الذين من قبلكم ، ولا تتعاملوا بينكم بالتطفيف.

[185] [قالوا إنما أنت من المسحورين]

لماذا قالوا إنك من المسحورين ، اي المسحورين ؟

(1)العاديات / ٨.

قالوا ذلك لأنهم كانوا يحترمون شعيبا (ع) و كان فيهم مرجوا ، و كانوا يعتقدون الآمال عليه لسعة عقله.

قال تعالى : " قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد اباؤنا أو ان نفعل في أموالنا ما نشاء انك لانت لحليم الرشيد " . (١)فما نسبوه الى الجنون ، و انما قالوا : انت متأثر بسحر الآخرين.

[186] [وما أنت إلا بشر مثلنا و إن نظنك لمن الكاذبين] [انت بشر مثلنا ، فهل يمكن ان تكون رسولا؟! انا نظنك من الكاذبين.

[187] [فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين] [لم يصدقوا ان الله قادر على ان يزيل النعم عنهم ، فتحذوا رسولهم ان يسقط عليهم كسفا من السماء ، فكيف يؤمن من عاش محاطا بالنعم بعذاب من عند الله؟!]

و يبدو ان شعيبا (ع) خوفهم عذاب الله ، و هل هو الا نذير بين يدي عذاب ميبين ؟!

[188] [قال ربي أعلم بما تعملون]

لم يدع على قومه بالعذاب ، و انما أوكل أمرهم اليه سبحانه ، فهو أعلم بهم ، و أعلم بما هو الأصلح ، ان شاء هداهم و ان شاء عذبهم.

(1)هود / ٨٧.

[189] [فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم] [فلما كذبوا رسولهم أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، اذا أصيبوا بحر شديد ، و استمر ذلك الحر ستة أيام ، فمات الكثيرون ، و لم تنفعهم اياتهم و غياطهم ، فلما كان يوم السابع ، أرسل الله عليهم سحابة تظللهم ، فصاروا يمشون معها كلما مشت ، فلما توسطوا الصحراء ، أنزل الله عليهم من السحابة صاعقة ، فاذا هم خامدون ، نعم كلما أحدث الناس ذنبا أحدث الله لهم بلاء مناسبا لذلك الذنب ، و يبدو ان نوع العذاب الذي نزل على اصحاب الأيكة كان متناسبا مع ذنبهم ، حيث انخدعوا بالسحابة بمثل ما غشوا بعضهم ، و طففوا في الميزان.

[190] [إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين]

كل انحراف في أية أمة يتبعه نوع محدد من العذاب ، و كل انحراف في الماضي هناك ما يشابهه في الحاضر ، و كل عذاب هو أية لمن يمارس نفس الانحراف.

[191] [وإن ربك لهُو العزيز الرحيم]

نزل به الروح الامين

هدى من الآيات

محتوى رسالات الله واحد ، و انما اختلفت حسب الظروف ، لان كل رسالة استهدفت اصلاح الفساد المستشري في المجتمع الذي أنزلت فيه ، و كذب كل قوم رسولهم ، فانتصر الله للرسول و للمؤمنين ، و أهلك الآخرين بعذاب شديد.

هذا ما استوحيناه مما مضت من آيات ربنا ، أما هذا الدرس الذي هو خلاصة حقائق السورة - هو و الدرس التالي و الاخير - فانه يحدد معالم الرسالة الالهية و خصائصها المميزة:

الف : لا تخص رسالات الله بقوم أو أرض أو زمن . أليست هي من رب العالمين فهي كالغيب تشمل بركاته كل بقعة ؟.

باء :انها رسالة حق تعكس حقائق الحياة المشهودة و المغيبة ، المادية و المعنوية ، و تمتد من الدنيا الى الآخرة ، و تتجاوز المصالح العاجلة الى المنافع الآجلة ، أليس قدنزل بها الروح الامين ؟

جيم : انها تهدف الاصلاح الجذري الذي ، يتم باقتلاع جذور الفساد و الانحراف.

دال :و تخاطب الناس بلغتهم ، و لغتها ليست كلغة الشعراء غامضة معقدة ، انما هي لغة الواقع التي تكشف الحقائق جلية واضحة " بلسان عربي مبين. "

هاء : خطها ممتد عبر العصور من آدم (ع) الى النبي الخاتم محمد (ص) فهي في زبر الاولين ، و يعلمه علماء بني اسرائيل.

و انما يتمرد عليها الجاهلون بعصبيتهم ، فلو أنزل على بعض الاعجميين ما كانوا به مؤمنين.

و شأنها شأن الرسالات الاولى ، لا يؤمن بها المجرمون حتى يروا العذاب الاليم ، الذي يأتيهم فجأة فيطلبون فرصة أخرى بينما هم اليوم يستعجلون عذاب الرب.

و حتى لو تناول بهم العمر سنين فماذا ينفعهم حين يأتيهم العذاب ، و يختم عمرهم بسوء ؟

و لكن الرب لا يعذبهم حتى يبعث من ينذرهم ، كذلك سنة الله في كل قرية يعذبها ، و ما كان الله ظلما للعبيد.

و ليست الرسالة من وحي الشياطين ، ولا يتناسب معهم ، ولا يقدر على ذلك ، لانهم معزولون عن السمع.

بينات من الآيات

[192] من أعظم شواهد الحق في رسالات الانبياء انها تتجاوز الحواجز المادية بين الانسان و نظيره الانسان ، مما يشهد على أنها تنزيل من الله الذي خلق العالمين و دبر أمره.

[و إنه لتنزيل رب العالمين]

الضمير المتصل في " أنه " يرجع الى القرآن أو الى الوحي ، الذي هبط مرة على آدم و من بعده نوح ، و هود و صالح ، و إبراهيم ، و .. و .. ، لان جوهر الرسالات واحد ، وأما تفضيل القرآن عليها جميعا ، فلانه خاتم للرسالات ، و مهيمن عليها جميعا.

[193] نزل به الروح الأمين]

نزل به جبرئيل (ع) الذي كان أمينا على وحي الله . و لعلنا نستوحي من هذه الكلمة : ان الرسالة هي فوق مادية ، و انها دقيقة حيث تعكس الحقائق بلا أية زيادة أو نقيصة.

[194] على قلبك لتكون من المنذرين]

الانذار هو محاربة الوضع المنحرف بقوة ، و الانذار هو التخويف مع التحذير ، فالقرآن جاء منذرا قبل ان يكون مبشرا ، و قد جاءت بعض الآيات تحصر عمل النبي في الانذار.

[195] بلسان عربي مبين]

تأكيد الله على كلمة العربي للقرآن ، يدل على أهمية هذه اللغة و ضرورة تعلمها ، لأنها لغة القرآن ، و العربية هي أوسع اللغات لتقبل مثل هذا القرآن.

و قد جاء في معاجم اللغة : ان اعراب الكلام ايضاح فصاحته ، و العربي المفصح ، و الاعراب - بالكسر - البيان.

وفي الحديث عن قول الله تبارك و تعالى : " بلسان عربي مبين " قال:

"يبين الألسن ، و لا تبينه الألسن " (١) و لعل معناه ان اللغات لا تترجم - بدقة - العربية و ليس العكس.

[196] و إنه لفي زبر الأولين]

ان من شواهد صدق رسالة النبي (ص) توافقها مع رسالات الله السابقة ، و تبشير الانبياء بها ، و تعاهد المؤمنين على التواصي بها جيلا بعد جيل.

[197] أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماؤا بني إسرائيل [أوليس دليلا كافيا أن يؤمن به بعض علماء بني اسرائيل مثل عبد الله بن سلام ، واسيد بن خضير ، و غيرهم ؟ وايمان مثل هؤلاء حجة قوية ، أولا : لانهم من بني اسرائيل ، و ثانيا : لانهم من علمائهم و تقاتهم ، و قد أكد الله في سورة الاحقاف مضمون هذه الآية عندما قال : " قل أرأيتم ان كان من عند الله و كفرتم به و شهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فأمن و استكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين. "

[199 - 198] و بعد ان يبين السياق شواهد الصدق في رسالة الاسلام شرع(١) تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٦٥.

يبين عوامل الكفر بها من قبل أولئك الجاهلين ، و من ابرزها:

أولا : العصبية.

[ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين] لو نزل هذا القرآن على نبي أعجمي ما كانوا ليؤمنوا به اذ تستبد بهم العصبية ، فمن الله عليهم اذ أرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، و جاء في الحديث عن ابي عبد الله (ع) انه قال في تفسير الآية:

"لو نزلنا القرآن على العجم ما أمنت به العرب ، و قد نزل على العرب فأمنت به العجم ، فهذه فضيلة العجم " (١) ثانيا : العامل الثاني لكفرهم ارتكابهم الجرائم.

[200] كذلك سلكناه في قلوب المجرمين]

الجريمة من أهم الأسباب التي تمنع قبول الرسالة ، لان الذي سقط في وحل الجريمة ، و سمح لنفسه ان يكون طعمة للشهوات الرخيصة لا يؤمن بالرسالة ، لان الرسالة أعلى من ان يطولها ، كمن هو في بئر عميقة ظلماء ، كيف يرى نور الشمس ، بل كيف يستوعب معنى نور الشمس ؟!

فحينما يكون عقل الانسان محكوما بشهواته ، و مضروبا على قلبه بالاسداد ، مليئا بالهوى ، ينزاح عنه الحق لان قلبه أصلد من ان يستقبلها.

(1)المصدر.

وقال بعض المفسرين : ان معنى الآية ، كما أنزلنا القرآن عربيا مبينا أمرناه و أدخلناه و أوقعناه في قلوب الكافرين ، بأن أمرنا النبي (ص) حتى قرأه عليهم وبينه لهم . (١)و يبدو ان سياق الآيات يوحي بالتفسيرالاول كما جاء في آية كريمة : " و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا " (٢) و كما جاء في آية اخرى : " و ليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا و كفرا " (٣) ، و هكذا تكون كلمة سلكناه أجريناه بحيث اصبحت تلك سنة تجري لافكك منها!

[201 - 202] فطبيعة المجرمين انهم لا يؤمنون بهذا الرسول العربي - بغض النظر عن الاعجمي . هناك يتسائل المجرمون هل هناك فرصة أخرى لنا فهم:

[لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم * فيأتيهم بغتة و هم لا يشعرون] [٢٠٣] [فيقولوا هل نحن منظرون]

[204] أفبعذابنا يستعجلون]

أما اليوم فتراهم لا يؤمنون حتى يأتيهم العذاب و كأنهم يستعجلون العذاب.

[205 - 207] أفريت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون
(١) مجمع البيان / ج ٥ / ص ١٨٥

(2)الإسراء / ٨٢

(3)المائدة / ٦٨

لو أخرنا عنهم العذاب ، و متعناهم سنين ، و جاءهم العذاب ، هل تنفعهم هذه السنين وهذا التمتع ، فما الله بمزحهم من العذاب ان يعمرؤا الف سنة ، و الله بصير بما يعملون.

لقد عمر نوح (ع) ثلاثة آلاف سنة ، ولم يبن له الا كوخا يستر نصفه ، فجاءه عزرائيل و سأله : لم لم تبين لك بيتا يسترك ؟ قال : ان الذي أنت وراءه كيف يبني بيتا.

[208] وما أهلكنا من قرية إلا لاهلها منذرون]

ان الله لا يعذب قرية الا بعد ان يرسل اليها منذرين ، و بذلك تتجلى رحمة الله باظهر ما يكون . قال تعالى :
" وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " . (١) [209] [ذكرى وما كنا ظالمين]

ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع و هو شهيد ، و حين يعذبهم الله فليس بظالم ، لانه قد أرسل اليهم رسلا من قبل.

[210 - 211] إن جوهر الفكرة التي يوحى بها الله تختلف عن جوهر الفكرة التي يلقيها الشيطان ، و يتناقض معه تناقضا كلياً ، فمصدر هذا الهوى ، و مصدر ذلك نور الله ، و هذا يضل ، و ذلك يهدي ، و هذا يستثير الشهوات ، و يأمر بالفحشاء و المنكر و البغي ، و ذلك يثير العقل ، و يأمر بالعدل . فكيف يختلطان ؟

[وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون](١) الاسراء / ١٥ .

لم تنزل الشياطين و من اتبعهم من ادعاء المعرفة مثل هذا القرآن ، و ما ينبغي لهم لانه لا يتناسب و طبيعتهم ، و لا يستطيعون ذلك لانهم .

[212] [إنهم عن السمع لمعزولون]

اي سماع الوحي من الله سبحانه .

و بهذا نميز بصائر الوحي عن تخربات الشياطين .

ان الطريق للتمييز بينهما يتم بمعرفة مصدرهما ، و كذلك بمعرفة آثارهما .

فبصائر الوحي التي من عند الله أو من عند رسوله و أولي الامر من بعده تبعث فيك المسؤولية ، و تنير لك الطريق ، و تهديك صراطا مستقيما ، بعكس تخربات الشياطين التي تبعث فيك التكذيب والاستهزاء و الحقد ، و الانانية و .. و .

وأنذر عشيرتك الأقربين هدى من الآيات

تختم سورة (الشعراء) ببيان الفوارق الكبيرة بين رسالات الرب و ما يوحىه الشيطان ، و يبين السياق هنا ان محور رسالات الله التوحيد ، و يمضي قدما في بيان صفات الرسول النابعة من هذا المحور ، فالرسول نذير لا قرب الناس اليه وهم عشيرته ، و هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، و يعلن براءته من العصاة متوكلا على العزيز الرحيم ، و يتهدد بالليل (و قد انحدر من سلالة طيبة) (و الله يسمعه و يعلم خبايا شؤونه .

وفي الجانب الآخر يهبط الشيطان الى كل كذاب فاجر ، و يوحى الشياطين في أسماع تابعيهم واكثرهم كاذبون .

أما الشعراء فان حزبهم التابعين لهم هم الغاؤون ، الذين يتبعون اهواءهم ، و كلامهم غير مسؤول ، فتراهم في كل واد يهيمون ، ضالين ضائعين ، و هم يقولونملا يفعلون .

بلى . هناك فئة من الشعراء مؤمنة سالحة ، و يذكرون الله كثيرا (لكي لا يخدعهم الشيطان) و اذا ظلمهم الجبارون لقولهم الحق فهم ينتصرون ، و ان عاقبة الظلم الخيبة ، و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

بيانات من الآيات

[213] [توحيد الله صبغة رسالاته ، فهو في السياسة : العدل ، و الاحسان ، و الشورى ، و الأمن ، و الحرية ، و هو في الاقتصاد الانصاف ، و القوام ، وفي السلوك : الفضيلة ، و التقوى ، و في الثقافة : التثبث ، و اتباع احسن القول ، و الاستماع الى الناطق عن الله دون الناطق عن الشيطان .

ومن شواهد صدق رسالة النبي (ص) (دعوته الخالصة للرب ، و حبه الشديد ، و تفانيه في سبيل الله .

[فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين]

[214] ومن خصائص الرسول و شواهد صدقه تعالیه عن الضغط من أي مصدر يأتي ، و لذلك فهو يؤمر بانذار عشيرته أولاً.

[وأنذر عشيرتك الأقربين]

و هكذا فعل الرسول و تحدى أول ما تحدى عشيرته الأقربين ، كما فعل إبراهيم (ع) إذ واجه برسالة الله أباه أولاً . دعنا نستمتع الى حديثين في هذا الشأن:

عن أمير المؤمنين (ع) قال:

"لما نزلت : " و أنذر عشيرتك الأقربين " أي رهطك المخلصين ، دعا رسول الله (ص) بني عبد المطلب و هم إذ ذاك أربعون رجلا - يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا - فقال أيكم يكون أخي ، و وارثي ، و وزيري ، و وصيي ، و خليفتي فيكم بعدي ؟ فعرض عليهم ذلك رجلا رجلا ، كلهم يأبى ذلك ، حتى أتى علي فقلت : انا يا رسول الله ، فقال : يا بني عبد المطلب ! هذا وارثي ، و وزيري ، و خليفتي فيكم من بعدي ، فقام القوم يضحك بعضهم الى بعض ، ويقولون لأبي طالب : فد أمرك ان تسمع و تطيع لهذا الغلام " (١) وفي رواية أخرى:

"انه لما نزلت هذه الآية " و أنذر عشيرتك الأقربين " سعد رسول الله (ص) الصفا فقال : يا صباحا ! فاجتمعت اليه قريش ، فقالوا : مالك ؟! فقال أرايتكم إن أخبرتكم أن العدو مصيحكم او ممسيكم ما كنتم تصدقونني ؟ فقالوا : بلى . قال : فإنني لكم نذير بين يدي عذاب شديد ، قال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ، فأنزل الله : " تبت يدا أبي لهب و تب " (٢) و نستوحى من هذه الآية أن عامل الرسالة الإلهية لا يعتمد على أية قوة أرضية في إبلاغ رسالات ربه ، إنما يتوكل على الله ، لذلك يستطيع ان يتحدى انحرافات الناس جميعا ، حتى ولو كانوا عشيرته الأقربين.

كما تشير الآية الى أن مجرد القرابة من رسول الله لا يخلص الانسان من نار جهنم . بالرغم من أن النبي (ص) يشفع في امته ، و قد قال له الرب سبحانه : " و لسوف يعطيك ربك فترضى " أي من الشفاعة.

(1) علل الشرائع / الشيخ الصدوق ، ص ١٧٠ .

(2) تفسير مجمع البيان / ج ٧ / ص ٢٠٤ .

جاء في خبر مأثور عن أبي أمامة ، فيما أخرجه الطبراني و أبي مردويه قال " : لما نزلت " و أنذر عشيرتك الأقربين " جمع رسول الله بني هاشم فأجلسهم على الباب ، و جمع نساءه و أهله ، فأجلسهم في البيت ، ثم اطلع عليهم ، فقال:

"يا بني هاشم ! اشترؤا أنفسكم من النار ، و اسعوا في فكاك رقابكم ، و افتكوها بأنفسكم من الله ، فإنني لا أملك لكم من الله شيئا " ثم أقبل على أهل بيته فقال:

"يا عائشة بنت أبي بكر ، و يا حفصة بنت عمر ، و يا أم سلمة ، و يا فاطمة بنت محمد ، و يا أم الزبير عمه رسول الله ! اشترؤا أنفسكم من الله ، و اسعوا في فكاك رقابكم فإنني لا أملك لكم من الله شيئا ولا أعني .. " [٢١٥] و في الوقت الذي ينذر عشيرته الذين هم أقرب الناس اليه ، يؤمر بالرحمة للمؤمنين ، حتى ولو كانوا بعيدين عنه ، فهو كالتائر الذي يخفض جناحيه لأولاده الصغار.

[و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين]

ان هذا السلوك يساهم في صنع المجتمع المبدئي المتسامي عن العلاقات المادية ، و نستوحى من هذه الآية أهمية التواضع و بالذات عند من يحمل رسالة ربه .

جاء في كتاب مصباح الشريعة المنسوب الى الامام الصادق (ع):

"و قد أمر الله أعز خلقه ، و سيد بريته محمد (ص) بالتواضع ، فقال عز وجل:

(1)تفسير الميزان / ج ١٥ / ص ٣٣٤.

"و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين " و التواضع مزرعة الخشوع ، و الخشية ، و الحياء ، و أنهن لا تتبين إلا منها وفيها ، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي الا للتواضع في ذات الله " (١) [٢١٦] و تتجلى مبدئية الموقف في التبرء ممن يخالف الشرع الإلهي.

[فإن عصوك فقل إنني بريء مما تعملون]

ان الرسول لا يقدم تنازلات أمام رسالات ربه ، و قد كان (ص) شديدا اذا عصي الله ، و كان يغضب بشدة على من يحاول أن يشفع عنده في حد.

و كذلك كان خلفاؤه الراشدون ، فهذا أمير المؤمنين (ع) يقدم عليه أشرف قومه ، و قيادات جيشه ، يعرضون عليه العفو عن ارتكب منه ما يستحق الحد ، فيعدهم بأن يعطيهم ما يملك ، ثم يقدمه و يضر به الحد ، و حين يسألونه يقول : هذا مما لا أملكه.

[217] و لكي يتابع مسيرة الإصلاح بحزم و استقامة يتوكل الرسول على ربه الذي يؤيد بقوته المؤمنين على الكافرين.

[و توكل على العزيز الرحيم]

ان التوكل على الله لب استراتيجية أصحاب الرسالة ، و كلما كان إيمانهم برسالتهم أعمق ، كلما كان للتوكل على الله في استراتيجيتهم نصيب أكبر.

و من الواضح أن إسمي " العزيز الرحيم " ذكرا في فاتحة هذه السورة ، و أيضا بعد بيان كل قصة من حياة النبيين (ع).

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٦٩.

[218] [لقد جاء الجواب و اضحا عندما عدد موسى (ع) عند نزول تباشير الوحي على الله لاصعوبات ، و تبعهم فرعون و جنده " قالوا انا لمدركون " جاء الجواب قويا و قال موسى لهم : " كلا ان معي ربي سيهدين. "

وهنا حين أمر الله رسوله بالتوكل على العزيز الرحيم أنبأه بأنه مهيمن عليه ، يراه حين يقوم للتبتل اليه ، و حين يقدم بمهامه الرسالية.

[الذي يراك حين تقوم]

[219] و هكذا يراه حين يقوم للصلاة.

[و تقلبك في الساجدين]

جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر -عليه السلام- في تفسير هذه الآية : "في أصلاب النبيين صلوات الله عليهم (1) "

و اعتمادا على هذه الرواية فان الآية توحى بطهارة مولد الرسول و ابائه و أمهاته ، فقد اختار الله لنور محمد (ص) انقى الأصلاب ، و أطهر الأرحام ، ايمانا و شرفا و فضيلة.

الأفاكون و الشعراء

[220] كما لرسالات الله خصائصها و معالمها و شواهدا كذلك الثقافات المادية ، و الأفكار الجاهلية ، و إذا تبصر الإنسان بسلمات هذه و تلك اهتدي الصراط السوي ، إذ أضحى قادرا بتوفيق الله و نوره ان يميز بين فكرة خاطئة يوحى بها(١) المصدر. /

الشیطان ، و حقيقة يهتدي اليها بالوحي و العقل.

و الحق و الباطل يختلطان في الدنيا لتكون الدنيا دار ابتلاء ، ليس فقط لإرادة البشر ، و انما أيضا لوعيه ، فمن عرف كيف يميزها عن بعضهما آمن شر الضلالة ، و أكثر الناس يضلون باهوائهم.

دعنا نشعر من أصل تكون الفكرة و مصدرها : القلب كصفحة بيضاء تنعكس عليها حقائق الخلق بما اعطاه الله من نور العقل و العلم ، و لكن قد يتراءى للقلب أشياء و لكن من دون ان تكون لها - أساسا - حقيقة خارجية . كيف يتم ذلك ؟

دعنا نضرب مثلا : انك تعلم أن العين ترى الأشياء عبر الضياء ، و لكن هل حدث لك ان صدمت بشيء فتراءى لعينك بريق شديد ، أو هل داخ رأسك فرأت عينك مثل الانجم . ما هذه ؟ انها ارتعاشة اعصاب العين ، و ليست أشعة الأشياء تنعكس عليها ، أنها -بالتالي- حركة ذاتية للعين ترى حركتها الداخلية . أليس كذلك ؟!

ومثل آخر : هل اصبت بنزلة برد ، و هل حدثت لديك قشعريرة شديدة ؟ إن مصدرها الاعصاب في الداخل ، و ليست عاصفة ثلجية في الخارج.

و هؤلاء الذين يستخدمون المخدرات يرون أشياء كثيرة ليس لها واقع . انما هي حركة أعصابهم من الداخل ، كذلك في داخل القلب مصدران للأفكار لا يمتان إلى الحقائق بصلة:

أولا : الأهواء : حيث ان السماح للهوى باحتلال كل القلب يجعله اسودا لا يبصر نورا ، انما يبتدع الأفكار ابتداعا ، و هذا هو الإفك بذاته.

ثانيا : الخيال : الذي هو بدوره حركة ذاتية للقلب ، لا شأن لها بالواقع الخارجي ، إلا أنه أخف وطأة من الإفك.

و لعل السياق يشير الى هاتين الطائفتين في فاتحة حديثه عن إحياءات الشيطان ، يقول ربنا:

[هل أنبئكم على من تنزل الشياطين]

الشیطان كما يبدو من التدبر في سياق الآيات - التي ذكر فيها - هو كل غاو يغوي البشر ، سواء كان من الجن أو الإنس . قال تعالى : " و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس و الجن " . (١) وجاء في آية كريمة : " يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان " . (٢) وقال الله تعالى : " وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون [221] (3) . " تنزل على كل أفاك أنيم]

قال العلامة الطبري : الأفاك الكذاب ، و أصل الإفك القلب ، و الأفاك الكثير القلب للخبر ، من جهة الصدق الى جهة الكذب ، و الأثيم : الفاعل للقبیح ، يقال : انه يأثم إذا ارتكب القبيح . (٤)(١) الانعام / ١١٣.

(2)البقرة / ٣٠.

(3)البقرة / ١٤.

(4)مجمع البيان / ج ٧ / ص ٢٠٧.

[222] [يلقون السمع]

أي يلقون الافكار المسموعة في قلب الأفاكين الآثمين.

[223] [و أكثرهم كاذبون]

و يبدو ان الأفاكين هم أئمة الكفر ، و قادة فئات الضلال ، و هم المغضوب عليهم ، الذين نسأل الله الا يجعلنا منهم ، و هم الغاوون الذين يصفون العدل ولا يطبقونه ، و هم بالتالي صانعوا القرار في معسكر المستكبرين.

إن مصدر أفكارهم اهوؤهم التي يعبدونها ، و انحرافهم و فسادهم انما هو بوعي منهم ، و سابق اصرار ، و الشياطين يوحون إلى هؤلاء لأنهم اولياؤهم.

جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر (ع) :

"انه ليس من يوم و ليلة إلا و جميع الجن و الشياطين تزور أئمة الضلال ، و يزور إمام الهدى عددهم من الملائكة " (١) و بالرغم من وجود بعض الصدق في أقوالهم إلا أن الصفة العامة لأحاديثهم هي الكذب.

وهكذا نعرف طبيعة هؤلاء بأمرين:

الاول : قلبهم للحقائق.

الثاني : ارتكابهم الإثم.

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٧٠.

[224] و الفئة الضالة الثانية هم الشعراء ، الذين يستوحون خيالهم و تصوراتهم استيحاء.

يقول ربنا عنهم:

[والشعراء يتبعهم الغاوون]

و لعل تسمية هذه الفئة بالشعراء جاءت:

اولا : لأن طبقة الشعراء في ذلك العهد و أكثرهم في العصور التالية كانوا من هذه الفئة الضالة.

ثانيا : لأن الشعر يعتمد على الخيال و التصور.

حقا ان المراد من الشعراء في هذه الآية ليس خصوص من انشد شعرا ، انما يشمل كل من أتبع خياله و ترك وحي الله ، و كان من هذه الفئة الضالة : فلاسفة اليونان و تابعوهم الذين اعتمدوا على تصوراتهم في معرفة حقائق الكون ، دون إثارة من علم أو اتباع لإمام حق.

و العرفاء و المتصوفة ، و طائفة من المتكلمين ، و بعض المتفقيين من علماء السوء - انصاف المثقفين - الذين يتبعون أهواءهم و أهواء من يدفع لهم ، و يشتري اقلامهم . كل أولئك و غيرهم من فئة الشعراء ، و قد جاءت النصوص الاسلامية تترى في وصفهم ، و البراءة منهم:

" - 1نزلت في الذين غيروا دين الله ، و خالفوا أمر الله - عز وجل - هل رأيت شاعرا قط يتبعه أحد؟! إنما عني بذلك الذين وضعوا دينهم بأرائهم ، فيتبعهم الناس على ذلك " (١١)

- 2عن الامام الباقر (ع) في تفسير هذه الآية قال:

"هل رأيت شاعرا يتبعه أحد؟!" إنما هم قوم تفقهوا لغير الدين فضلوا و اضلوا " (٢٣) - و روي عن الامام الصادق (ع) قال:

"هم قوم تعلموا -أو تفقهوا - بغير علم . فضلوا و اضلوا - (3)4" و في حديث آخر عنه (ع) انه قال:

"هم القصاص " (٤)

ومن هنا نعرف ان الذين يقولون الشعر دفاعا عن الحق ليسوا ضمن هذا الإطار ، فقد أثر عن الرسول (ص) انه قال لحسان بن ثابت (الشاعر:)

"أهجمهم أو هاجهم و روح القدس معك " (٥)

[225] و من خصائص هؤلاء : استرسالهم في الكلام دون التقييد بحدود المعرفة أو المصلحة.

[ألم تر أنهم في كل واد يهيمون]

(1)المصدر / ص ٧٠ نقلا عن علي بن ابراهيم.

(2)المصدر. /

(3)المصدر. /

(4)المصدر / ص ٧١.

(5)المصدر. /

و الهائمة الضالة التي تمشي على غير هدى ، و لعل الآية تدل على أنهم لا يملكون نهجا محمدا في مسيرتهم.

[226] و من علاماتهم : أنهم يستعيضون الكلام عن العمل ، و أن قولهم غير مسؤول.

[و أنهم يقولون مالا يفعلون]

ان دغدغة الأمانى ، و إثارة الخيال ، و صنع الأحلام الوردية ، كل ذلك من طبيعة الثقافات المادية ، و عادة ما يكون أصحاب هذه الثقافات أقل الناس التزاما بما يقولون ، و السبب أن الكلام هو بديل عن العمل في تصورهم.

[227] وفي الايات الاخيرة من هذه السورة يبين ربنا صفات صاحب الرسالة حقا ، فيقول:

[إلا الذين ءامنوا و عملوا الصالحات و ذكروا الله كثيرا]إن صاحب الرسالة يتعرض لضغط التيارات الثقافية ، و القوى الإجتماعية المختلفة ، و عليه أن يذكر الله كثيرا لكي لا تخور عزيمته ، و لا تشوش رؤيته ، بل يبقى نافذ البصيرة برغم الشبهات و الدعايات ، و صامدا برغم همزات الشياطين ، و ذكر الله حقا هو ذكره في القلب عندما يعرض عليه الحرام فيجتنبه ، و الحلال فينتفع به.

يقول الامام أمير المؤمنين (ع):)

"من ذكر الله عز وجل في السر فقد ذكر الله كثيرا . إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ، ولا يذكرونه في السر ، فقال الله عز وجل : " يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا " (١)

و لعل اظهر سمات صاحب الدعوة الإلهية تحمله مسؤولية الجهاد ضد الظلم ، كما أن أبرز سمات الشعراء : أنهم يقولون مالا يفعلون.

[و انتصروا من بعد ما ظلموا]

ان مقاومة الظلم و عدم الاستسلام للظالمين تلازم الرسالي الصادق ، الذي يتخذ من رسالته سلاحا ضد المنحرفين.

[و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون]

هكذا تختتم سورة الشعراء بشحنة أمل مباركة تعطى للمظلومين ، و صعقة إنذار شديد يخوف بها الضالمين ، ليبقى قلب المؤمن مستقيما بين الأمل و الخوف ، بين اسمي الرحمة و العزة لرب العالمين.

و قد تحققت هذه الآية الكريمة في حق ظالمي آل محمد (ص) اجمعين ، حيث أهلك الله الظالمين ، و رفع ذكر أهل البيت عاليا عبر العصور.

(1)المصدر / ص ٧٣.

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن كتاب ثواب الاعمال باسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

"من قرأ سور الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من اولياء الله و في جواره و كنفه ، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبدا ، و اعطى في الآخرة من الجنة حتى يرضى و فوق رضاه ، و زوجه الله مائة زوجة من الحور العين " (تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٧٤)

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

"و أعطيت طه و الطواسين من ألواح موسى " (المصدر)

الاطار العام

الإسم

ذكر " النمل " في قصة سليمان فجاءت السورة بهذا الاسم . أو ليس طريقا أن يقارن أكبر ملك آتاه الله لواحد من عباده باسم النمل؟! . بلى ان مملكة العدل الالهي لا بد أن تكون بحيث يشعر النمل بالأمان في ظلها . إن هذا ما تبشر به رسالات الله ، و لعله لذلك سميت هذه السورة باسم " النمل. "

لا تخرج موضوعات هذه السورة عن الاطار العام للطواسين الثلاث (الشعراء و القصص بالاضافة الى سورة النمل) و هو بيان خصائص الوحي مع التركيز على بيان الأمثلة من تاريخ رسالات الله الأولى ، و كأنها جميعا تفصيلات لما ذكر به القرآن في سورة الفرقان.

تطلع علينا فاتحة السورة بذكر القرآن الذي جعله الله هدى و بشرى للمؤمنين ، أما الذين يكفرون بالأخرة فان الله زين لهم اعمالهم و سلبهم بصائرهم ، و لهم سوءالعذاب.

و ان الرسول يلقي القرآن من لدن حكيم عليم.

و يبدو ان هذين الاسمين الإلهيين يتجليان في آيات هذه السورة كما تجلى اسما العزيز الرحيم في السورة السابقة " الشعراء. "

و تلقي الآيات حزمة ضوء على قصة موسى : كيف تلقى الوحي ، حين أنس نارا ، فباركها الله و من حولها ، و ناداه : إنه انا الله العزيز الحكيم ، و أعطاه معجزة العصى و اليد البيضاء في تسع آيات ، و أمره بابلاغ فرعون رسالات ربه.

فلما جحدوا بها - بعد ان استيقنتها أنفسهم - نبذهم في اليم.

و بعدئذ يفصل القول في قصة سليمان ، و يبدو ان هناك تقابلين فيها : أولا : بين فرعون اعظم ملك كافر ، و سليمان أكبر ملك عادل ، ثانيا : بين بلقيس الملكة العربية التي آمنت ، و ثمود القرى العربية التي كفرت فدمرها الله شر تدمير.

و نقرأ في قصة سليمان عن تسخير الجن و الطير ، و عن مملكة النمل التي شملها عدل سليمان ، و عن استخدام الهدهد و الريح وسيلتين حضاريتين ، و أيضا الانتفاع بالإسم الاعظم في نقل عرش بلقيس لتكتمل صورة مملكة الحق في الارض.

أما في قصة بلقيس فنقرأ استنشارتها قومها ، و اتخاذها القرار الحكيم ، الا أن حكمتها لم تجدها نفعاً حين كفرت بالله ، و سجدت للشمس من دونه ، و لكنها بالتالي آمنت مع سليمان بالله رب العالمين.

أما في قصة ثمود فنقرأ قصة الصراع بين المستضعفين و المستكبرين ، و كيف أن الكفار تطيروا بصالح و من معه من المؤمنين ، و كيف فسد ثمة النظام القبائلي ، و بدل ان يكونوا حماة الضعفاء تأمروا على نبيهم ، و مكروا و مكر الله ، و دمرهم اجمعين.

و يختم السياق قصص المرسلين بقصة قوم لوط الذين نهرهم نبيهم عن شذوذهم الجنسي ، فلما أرادوا ان يخرجوه و من معه أمطر الله عليهم مطر السوء.

و يبدو أن السورة تضرب لنا في القسم الاول (58 - 1) أمثلة عن النظم الاجتماعية الفاسدة التي لا بد ان تنزع عن فسادها (كما فعلت بلقيس) والا دمرت شر تدمير ، و يقارنها بمثال رائع من النظام الالهي في الارض لا بد ان تتطلع اليه البشرية متمثلا في قصة سليمان واما في القسم الثاني فان الآيات تذكرنا بالقرآن بعد ان تهدينا الى آيات ربنا في الخلق و التي تدل على ان الله و احد لا شريك له ، لا في أصل الخلق ولا تقديره و تدبيره.

الله هو الذي خلق السموات و الارض وأجرى فيهما أنظمة لحياة البشر ، و هو الذي يلجأ اليه المضطر فيجيبه و يكشف عنه السوء ، و يهدي الناس في ظلمات البر و البحر ، و يرسل الرياح بشرا بين يدي

رحمته .

ثم يذكر بانه عالم الغيب لا يعلمه الا هو ، و انه مالك يوم الدين حيث يقف دونه علم الآخرين.

و يمضي السياق قدما في التذكرة بالآخرة ، و يامرهم بأن يسيروا في الارض ليعتبروا بمصير المجرمين ، ولا يستعجلوا العذاب فعسى ان يكون قريبا منهم ، اما القرآن و خصائصه فهي التالية:

اولا : يحتوي على علم ما يغيب عن الناس.

ثانيا : يحل الخلافات التي لا زالت عند اصحاب الكتب السابقة.

ثالثا : انه هدى و رحمة للمؤمنين.

رابعا : يقضي بين الناس بالحق.

و يامر الله رسوله بالتوكل عليه ، و الا يأبه بأولئك الجاحدين الذين يشبههم بالموتى و الصمم المدبرين ، و يوجهه الى المؤمنين الذين هم لربهم مسلمون.

و يحذر من حلول العقاب في يوم يخرج الله لهم دابة من الارض تكلمهم.

و حين يحشر بعض المجرمين و يسألون : لماذا كذبتم بآيات الله ؟ فيقع عليهم القول بما ظلموا.

ثم يذكر القرآن بالله ، و كيف جعل الليل سكنا و النهار معاشا ، و لكنه سوف يفزعهم بنفخة الصور ، ولا ينجو من ذلك الفرع العظيم الا المحسنون ، أما من جاء بالسينة فهو يساق الى النار على وجهه.

و في خاتمة السورة يوجه الخطاب الى الرسول باعتباره حامل رسالات الله ، و انه يعبد الله و حده ، و يتلو القرآن ، فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، اما الضالون فان الرسول لم يكلف الا بانذارهم.

و تختتم السورة بحمد الله ، و بانذار مبطن لأولئك الجاحدين بان آيات الله الخارقة ستأتيهم بحيث يعرفونها ، و ان الله ليس بغافل عما يعملون.

هدى و بشرى للمؤمنين

هدى من الآيات

تتمحور دروس سورة النمل - كما هي سورة الشعراء - حول الرسالات الالهية ، ميزاتها و خصائصها ، و بالتالي الشواهد الفطرية و الوجدانية التي تدل على صدقها.

و تبدأ السورة بالإشارة الى القرآن الحكيم ، ذلك الكتاب الذي تكفيننا الاشارة اليه و الى واقعه علما و معرفة بحقيقته ، لأننا لسنا بحاجة إلى أكثر من الاشارة للحقائق الواضحة في الكون - و التي حجبنا عنها الاهواء و الغفلة - لكي نعرفها ، بالذات اذا كنا ممنيقي السمع و هو شهيد ، لان العقل و الوجدان و الفطرة ، و بالتالي لان الانسان بما يمتلك من ادوات الفهم ، و وسائل المعرفة ، هو الذي ينبغي ان يتعرف على الحقائق ، و انما الهادي و المنذر و المذكر ليس عليه سوى البلاغ و التذكرة " فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر " و هكذا تبدأ كثير من سور

القرآن الحكيم بالإشارة الى القرآن ذاته.

ان في القرآن آيات و تشريعات ، فهو من جهة علامات و اشارات تهدينا الى الله ، و الى اسمائه الحسنى ، و الى السنن الكونية و غيرها التي أجزاها في الحياة ، و هو من جهة أخرى دساتير ثابتة ، و قوانين مستمرة في حياة الانسان التشريعية.

و في البدء يهدينا القرآن الى الله عن طريق اعطاء الامل و الهداية " هدى و بشرى للمؤمنين " ثم يامرنا بمختلف الفرائض كالصلاة و الزكاة.

أما لماذا لا يؤمن فريق من الناس بالقرآن ؟ فلأن أعمالهم السابقة - اجرامهم و فسقهم و ضلالتهم - التي اكتسبوها باختيارهم تصبح حجابا بينهم وبين الحقيقة ، و المشككة الحقيقية اذا تحولت هذه الاعمال الى عادة ، ذلك ان حجاب العادة من أمتن الحجب و اصعبها أمامالانسان ، و الذي ينتصر على عاداته و سابقياته الفكرية فانه يتجاوز سائر الحجب و المشاكل بسهولة ، الا ان اختراق هذا الحجاب من أصعب الاشياء على البشر.

وفي الوقت الذي تشير هذه الآيات لهذا الحجاب تبين ان هذه سنة كونية جعلها الله في الحياة ، فالذي يبدأ بالصلاة تخف صعوبتها عليه شيئا فشيئا حتى يصير من المستأنسين بها ، وأما حين يقدم الانسان على الفاحشة فانه يستوحش منها ويلاحقه تأنيب الضمير بسببها في بادىء الأمر ، ولكنه لو عاد اليها المرة تلو الأخرى فسوف تتحول الى عادة عنده لا يحس حين ممارستها بأدنى تأنيب ، و مثال على هذه الفكرة هو ادمان الجريمة لدى الطغاة ، فهم أول ما يقدمون على جريمة القتل يكون الامر بالنسبة اليهم صعبا ، و لكن حينما تتكرر منهم الجريمة يصل بهم الامر الى حد يقول أحدهم (: لكي ابقي حاكما لا يضر لو قتلت ثلثي الشعب) و ليس لا يستقدر هذا العمل بل و يستأنس به ، و تلك سنة الهية ان يزين الشيطان للانسان عمله.

و الشجاع الحق هو الذي يغلب نفسه و هواه ، فيخترق سد العادة ليصل الى نور الحقيقة ، و يتمسك بها حتى لو كلفه ذلك التنازل عن كل سابقياته الخاطئة.

ثم تشير الآيات الى ان التدبر في القرآن يصل بالانسان الى معاني الحكمة و العلم التي يشتمل عليها ، فأيات الحكمة و شواهدا واضحة في القرآن عبر الاحكام التي نجدها فيه ، فكل حكم يراعي كل الجوانب و الجهات من دون ان يحيف بأحد لحساب أحد ، أو لجانب على حساباخر ، و أما حقائق العلم فهي باطن آيات الحكم ، و من خلال هذا و ذاك يعرف المؤمنون اسمي الحكيم العليم لربهم.

وفي نهاية هذه الآيات يضرب الله مثلا من واقع موسى (ع) (فموسى كان طاهرا و نقيا ، الا ان الوحي أوقد مصباح عقله بنور الله ، اذ نزل عليه في عمق الصحراء وفي الليل المظلم ، حيث البرد و الضياع و الزوجة الحامل ، و هكذا يهبط الوحي على الانبياء عند لحظات النقاء و الطهر و التجرد و التي ترافق لحظات الشدة و العسر.

ان الوحي الذي تلقاه موسى لم يكن ليعالج مشاكله الشخصية ، بل جاءه الوحي ليعالج مشاكل الامة كلها ، و هذا دليل على انه اتصال غيبي من الأعلى ، فلو ان الرسالة التي جاء بها كانت من عنده كنا نجد فيها اثار الظروف الصعبة المحيطة به ، و ما كان ليهتم بمشاكل الامة جميعا بل البشرية كلهم ، لان الثقافة الارضية تنبع من وسط الانسان و تتأثر به ، أما موسى (ع) فانه يسمع نداء في ذلك الحين : انني انا الله رب العالمين ، و هنالك ينسى كل شيء ، و يتوجه الى ربه خالصا ، و يهدف حل مشاكل امته ، متجردا عن ذاته الى الله ، و هذه هي خلاصة قصة الرسالة : من جهة الخروج عن الوسط الذي يعيشه الفرد ، و من جهة أخرى تلقي فكرة شاملة مطلقة لا تحدها الظروف الخاصة التي يعيشها الفرد ذاته ، و عبر هذه القصة و القصص المشابهة يكشف لنا القرآن الحكيم عن حقيقة الوحي ، و جوهر فرقهن الثقافات البشرية.

بينات من الآيات

[1] [طس تلك آيات القرآن و كتاب مبين]

" تلك " اشارة الى " طس " بأنها آيات القرآن الثابتة من جهة (فالكتاب هو الشيء الثابت) و الواضحة من جهة أخرى ، اذ عرفتها الآية بأنها مبينة.

[2] [هدى و بشرى للمؤمنين]

يحمل القرآن في آياته الهدى والبشرى ، و لكن ليس لكل أحد بل لمن يريد الهداية و بالتالي البشرى ، فمن ناحية تتحرك انت نحو القرآن فيتحرك القرآن نحوك ، لتلتقي انت و السعادة و الفلاح ، أما اذا جلست دون حركة نحو القرآن فلن تتلقى الهدى و لا البشارة.

[3] الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم بالأخرة هم يوقنون [الصلاة و الزكاة رمزان لجانبين من أعمال الانسان ، فالاولى رمز للعبودية المطلقة لله ، و بالتالي التحرر المطلق من قيود الذات و الواقع السلبي ، و الثانية رمز للعطاء ، و هذه هي العلاقة التي يجب ان تقوم بين الانسان و نظيره الانسان ، و المفارقة بين العلاقتين واضحة ، فمع الله تكون علاقة العبودية ، و مع الناس تكون علاقة الاحسان لا الشرك ، و يعبر القرآن عن هاتين العلاقتين في آية أخرى حين يقول " : واعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا " (١)(١) النساء / ٣٦ .

[4] [إن الذين لا يؤمنون بالأخرة زينوا لهم أعمالهم فهم يعمهون] إن الذي يضع لنفسه هدفا بعيدا كالآخرة يكيف نفسه مع ذلك الهدف ، فلا يتأثر بالعادات و الظروف المحيطة به ، لانه يجعل سائر اعمال الحياة وسيلة لهدف اسمى ، فلا يعبد ذلك العمل ولا يحبه أو يمارسه الا من أجل الهدف الذي يؤدي هذا العمل اليه ، اما الذي لا هدف له فهو يحب الوسيلة و يقف عندها كالذين لا يؤمنون بالأخرة فهم يستمرون على اعمال الدنيا لان عملهم محدود بالطواهر فقط ، و لعل قوله تعالى : " زينوا لهم أعمالهم " اشارة الى هذه الفكرة ، فالكافرون لا ينظرون الى الجوانب المختلفة من العمل ، و انما يربطون أنفسهم بالعمل ذاته فيعمهون أي (يعمون) عن عواقبه .

[5] [اولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون] وان أعمالهم لا تورث لهم الا العذاب و الخسران.

[6] [و إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم]

الله يلقي الكتاب على قلب الرسول ، و الرسول يتلقاه بوعي و علم ، و الله حكيم و القرآن آية حكمته ، و عليم يتجلى علمه في القرآن.

و هكذا كان ظاهر القرآن حكما صائبا لانه من الله الحكيم ، و باطنه علما لانه من الله العليم.

بورك من في النار ومن حولها

هدى من الآيات

جاء موسى (ع) في تلك الليلة الشاتية ليقتبس شهابا من تلك النار التي أنسها من بعيد ، و ليهتدي على أثرها ، و يحمل الدفء و الهدى الى اهله ، فاذا به يسمع نداء بيتدىء بالبركة ، و لعلها تعبير عن التكامل و النمو.

إن لدى الانسان صفات فطرية متنوعة وهي بحاجة الى التنمية و التزكية لتنتهي الى البركة ، فهو يملك العلم و الإرادة و الصحة بالقوة - يعني انه يملك امكانية كل ذلك - و التربية هي التي تتعهد هذه الصفات بالتنمية و التزكية ، فاذا بامكانية العلم تتحول الى علم ، و امكانية التعقل تتحول الى عقل ، و امكانية الصحة الى سلامة ، و حسب التعبير الفلسفي يتحول الشيء من القوة الى الفعل ، و ذلك بحاجة الى منهج متكامل هو رسالات الله التي تفجر طاقات الانسان و تنميها و توجهها ، لذلك تتكرر كلمة البركة في القرآن ، فالقرآنبركة ، و الرسول بركة ، و البيت الحرام مبارك ، و هكذا.

وأول ما تلقى موسى (ع) من الوحي هو الاشارة بالبركة : " ان بورك من في النار و من حولها " و ربما يقصد بمن في النار الله تعالى ، و من حولها موسى.

أما عن منطلق البركة في حياة الانسان فهو الايمان بالله سبحانه و تعالى ، لذلك يأتي النداء الآخر بعد ذكر البركة - و فيه تعبير عن التوحيد - فالله هو منشأ كل خير في عالم الطبيعة ، و الايمان بالله هو منشأ

كل خير في عالم التشريع.

و بعد ان يشير السياق الى الآيات التي تجلت على يد موسى (ع) يتناول قصة سليمان (ع) الذي ورث العلم و الملك من داود ، فأصبح ملكا نبيا ، و ذلك ليبين لنا فكرة هامة هي : ان الالتزام بالرسالة لا يعني تحمل المشاق و المتاعب الا انها بالطبع تؤدي باصحابها بالنصر و الملك.

و القرآن الحكيم كثير ما يبين لنا أحكامه و افكاره عبر الامثلة التاريخية و القصص ، فبقصة يعقوب مع ولده يوسف (ع) يثير فينا عاطفة الابوة ، و بقصة ابراهيم مع ابنه اسماعيل (ع) - حين أراد ذبحه - يبين تحدي الانسان لهذه العاطفة ، أما من قصة سليمان (ع) فاننا نستوحي ان الدنيا و الآخرة يمكن ان يجتمعا على صعيد واحد ، فإمكان الرسالي صياغة حياة ملؤها الفضيلة و التقوى ، و يجمع اليها القوة و النعم الدنيوية ، و القصة تفيد أيضا ان التفكير السليم يمكن من جمع الدنيا و الآخرة ، حسب مستوى الانسان و طموحه و قدراته ، ويستشف من القصة معنى البركة الذي جاء ذكره في أول الآيات ، فانسان ما قد يصبح كسليمان نبيا ، يتلقى الوحي من الله سبحانه مباشرة ، و في الوقت ذاته يكون ملكا بملك لا ينبغي لاحد من قبله ولا لاحد من بعده.

بينات من الآيات

[7] لكي لا يستغرب احد كيف يتلقى الرسول الوحي من لدن حكيم عليم ،

ولكي يعرف المؤمنون مزيدا من خصائص الوحي و كيف يتلقاه الرسول ، و ما هي ظروف التلقي ! يبين ربنا قصص الانبياء ، و ها هو موسى (ع) يسير بأهله فيأنس نارا فيذهب ليأتي منها بخبر (عن الطريق) أو قبس ليصطلي و يستضيء به.

[إذ قال موسى لأهله إني ءانست نارا سأتيكم منها بخبر أو ءاتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون] [8]] فلما جاءها]

حين اتجه موسى (ع) نحو النار و وصل على مقربة منها.

[نودي أن بورك من في النار و من حولها]

قال البعض ان من في النار هم الملائكة ، و من حولها هو موسى (ع). (

و قال البعض ان " من في النار " هو الله الذي تجلى هنالك ببعض اسمائه ، و قد قال ربنا : " وسبحان الله رب العالمين " و قد جاءت الخاتمة لبيان تقديس الرب من الحلول في مكان.

و يحتمل ان يكون المقصود بمن في النار هو موسى ، و من حولها الذين يقتبسون منه ، وينتهجون خطه

[و سبحان الله رب العالمين]

أي تعالى الله ان يكون حالا في النار ، لانه أكبر من ان يحده شيء.

[9] ان النداء الذي تلقاه موسى (ع) هو المسؤولية التي تتمثل في الرسالة الالهية المنزلة اليه ، ينذر بها قومه ، و يتحدى بها النظام الفاسد.

[يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم]

وهذا هو المنطلق.

[10] أو ألق عصاك فلما رءاها تهتز كأنها جان]

يقول المفسرون ان الجان هي الحية الصغيرة سريعة الحركة ، و لكننا نعلم ان عصى موسى (ع) تحولت الى ثعبان ضخم ، و عليه فقد يكون التعبير بكلمة " جان " و هي الحية الصغيرة لبيان معنيين الاول : جانب الخفة و السرعة في الحركة حتى كأن هذا الثعبان الضخم في خفته حية صغيرة ، و الثاني : انه كان في ضخامته كأنه الجن.

و موسى (ع) حين رأى هذا المنظر الرهيب:

[ولى مدبرا و لم يعقب]

أي هرب و لم يلتفت الى خلفه ، أو لم يتعقب الامر و يتابعه مرحلة فمرحلة و لحظة فلحظة ، الا ان العناية الالهية تحوط موسى و تمده بالعون في كل حين ، لذلك جاءه النداء تثبتا له:

[يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون]

الرسالة هي عطاء الهي جديد يضاف الى الرسول ، و ليست نبوغا فطريا ، ولا نموا طبيعيا في حياته ، لذلك نجد موسى (ع) يخشى و يخاف من العصا التي القاها هو نفسه ، اذ لم يكن يعلم انها ستتحول الى جان.

لقد سما موسى (ع) في لحظة الى أفق النبوة ، من حملة الرسالات الالهية فأضحى ينفذ الأمر بلا خشية ولا تردد ، حقا ما اعظم التحول الذي ينشؤه الوحي في هذا البشر الضعيف . ان يعرج به الى قوة تتسامى فوق كل قوة مادية لانه يقربه الى رب القدرة و الجبروت.

و الرسول يجب ان لا يخاف ، لانه يعتمد في تحركه على قوة غيبية مطلقة.

[11] [إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم] الذي ينبغي ان يخاف امام الله ليس موسى (ع) ولا الانبياء و المرسلون ، و انما الظالمون بسبب ذنوبهم و سيئاتهم ، و لماذا نخاف من الله و هو ارحم الراحمين؟! الا ان المشكلة تبدأ منا و تنتهي إلينا بسبب الذنوب و المعاصي ، فالطبيعة مثلا خلقها الله لنا فلا نخاف منها ، بل نخاف من عدم قدرتنا على الإستفادة السليمة منها.

و حتى الظالم صاحب الذنوب يمكنه أن يتوب ليجد الله غفورا رحيفا ، فلا يبقى ما يقلقه أو يخيفه.

[12] [وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء]

قد يصيب البياض يد الانسان بسبب البرص و هذا سوء ، و لكن يد موسى لم يكن بها ذلك المرض ، و انما خرجت بشعاع من نور .

[في تسع آيات]

سبع منها آيات انذار و عذاب و هي : الدم ، و القمل ، و الجراد ، و الضفادع ، و الطوفان ، و الثعبان ، و انفلاق البحر ، و اثنتان منها آياتان للرحمة و هما : اليد البيضاء ، و انبجاس عيون الماء من الصخرة حين ضربها موسى (ع) بالعصا.

[إلى فرعون و قومه إنهم كانوا قوما فاسقين]

والفسق هو تجاوز الحد ، و انحراف السائر عن الطريق يسمى فسقا.

[13] [فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين] الآيات كانت جلية و لا تقبل الشك ، ولكنهم

اتهموا موسى (ع) بالسحر ليبروا كفرهم بها ، ولأنهم ارادوا ظلم الناس والاستكبار في الارض فكانت الرسالة الالهية تمنعهم منها لذا فانهم اتهموا الرسالة بالسحر ، و كفروا بها بعد ان ايقنت أنفسهم بصدقها ، و افسدوا ، و انهى الله كيانهم ، و اغرقهم في اليم ، و جعلهم عبرة للمؤمنين.

[14] و جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما و علوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين [١٥] ان فرعون و ملأه استكبروا ، و حاولوا فرض سيطرتهم الفاسدة على الناس ، بينما داود و سليمان شكروا الله حينما منحهم العلم و الهدى والسلطة ، و هذا هو الفرق بين البركة الالهية واتباع خط الشيطان في نعم الدنيا .

[و لقد ءاتينا داوود و سليمان علما و قالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين] [١٦] [وورث سليمان داوود و قال يا ايها الناس علمنا منطق الطير و اوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين] و بهذه الكلمة أعلن سليمان (ع) أنه ملك الناس . لماذا ؟

لأنه وصل الى أرفع مستوى من العلم ، حتى صار يعلم منطق الطير ، ولأنه صار لديه كل ما يحتاجه الناس كالإدارة ، و قيادة الحرب ، و هذا يدل على ان الاسلام ينظر الى القيادة من خلال الكفاءة لا النسب و الحساب ، فسليمان لم يرث الحكم لو لم تكن لديه الكفاءة.

و يبدو من بعض النصوص : ان سليمان ورث أباه منذ صباه لما أودعه الله فيه من علم و كفاءة.

في اصول الكافي عن بعض اصحابنا عن ابي جعفر الثاني (ع) قال قلت له : انهم يقولون في حادثة سنك ؟ فقال : " ان الله تعالى أوحى الى داود ان يستخلف سليمان و هو صبي يرعى الغنم ، فأنكر ذلك عباد بني اسرائيل وعلماؤهم ، فأوحى الله الى داود : أن خذ عصي المتكلمين و عصي سليمان واجعلها في بيت ، و اختم عليهما بخواتيم القوم ، فإذا كان من الغد فمن كانت عصاه قد أورقت و اثمرت فهو الخليفة ، فأخبرهم داود (ع) فقالوا : قد رضينا و سلمنا " [١] [17] (و حشر لسليمان جنوده من الجن و الإنس و الطير) و ربما كانت مهمة الطيور إيصال الرسائل كالحمام الزاجل ، أو التجسس كما فعل الهدهد. [فهم يوزعون]

أي يوزعون حيث يقسم سليمان المهام على جنوده ، و الحشر لا يعني انهم مجموعون بشكل فوضوي ، بل انهم موزعون بشكل منظم .

و يبدو ان الحضارة قد تطورت في عهد سليمان (ع) وانه كان خبيرا بلغات شتى.

(1) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٧٥.

جاء في تفسير علي بن ابراهيم عن الصادق (ع) :

"أعطي سليمان بن داود - مع علمه - معرفة المنطق بكل لسان ، و معرفة اللغات ، و منطق الطير و البهائم و السباع ، و كان اذا شاهد الحروب تكلم بالفارسية ، و اذا قعد لعماله و جنوده و اهل مملكته تكلم بالرومية ، و اذا خلا بنسائه تكلم بالسريانية و النبطية ، و اذا قام في محرابه لمناجاة ربه تكلم بالعربية ، و اذا جلس للوفود و الخصماء تكلم بالعبرانية " (١) و جاء في حديث آخر:

"أعطى داود و سليمان (ع) مالم يعط أحد من أنبياء الله من الآيات ، علمهما منطق الطير ، و لأن لهما الحديد و الصفر من غير نار ، و جعلت الجبال يسبحن مع داود (ع) " (٢) (١) و (٢) المصدر / ص ٧٨.

وجئتك من سبأ نبأ يقين

هدى من الآيات

لقد ملك سليمان جنودا لم يملكها أحد قبله ، و لن يملكها أحد بعده ، و حشر له جنود منظمون من الجن

و الانس و الطير ، و كانوا يسيرون في الأرض ، و يسعون فيها عمراناً و بناءً . وفي بعض أسفارهم مروا بواد النمل فاذا بملكهم تناديهم : ان يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، فان سليمان و جنوده قادمون ، و أخشى ان يحطموكم باقدامهم و حوافر خيولهم ، فتبسم سليمان منها حين سمعها .

قد تكون للانسان معارف و أفكار لا تستتار الا بحوادث تطرأ على حياته ، فينتبه لها ، و قد يكون غافلاً عن نفسه فاذا بظاهرة أو حادثة طارئة تثيره لتفتح له أبواب المعرفة و العلم ، فقد بدأ العالم المعروف (نيوتن) (أبحاثه عن الجاذبية لأنه شاهد تفاحة تسقط من الشجرة الى الأرض ، فتساءل : لماذا لا تصعد الى السماء؟! وانتهى الى نظرية الجاذبية.

و قد بلغ سليمان (ع) من القوة و السلطة شأنًا بعيداً ، ففعل أو تغافل حدود سلطانه - و هذا هو شأن الانبياء و الصالحين - فهم كلما زاد ايمانهم زاد تواضعهم لله ، و لم يأبه سليمان (ع) بالجوانب المادية للملك ليخرجه عن توازنه و عبادته لله - كما هو شأن سائر الملوك - بل لم يكن الملك بالنسبة اليه وسيلة للتكبر و الاستعلاء ، بل وسيلة لإقامة العدالة على الارض ، فقد كان يقضي النهار صائماً و الليل قائماً متعبداً لله سبحانه ، و لم يتذكر (ع) مدى سلطانه الى ان سمع خطاب النملة مما أثر فيه ، فاندفع نحو ربه شاكرًا له على نعمه المتواليه ، و هذا يؤكد حقيقة هامة و هي : انعكاس ما يحدث للانسان على العوالم المحيطة به ، فالعدالة تشمل الانسان و الطبيعة من حوله ، و هكذا الظلم . و قد تعجب سليمان (ع) من خطاب النملة ! فكيف به وهو العبد الضعيف ان تبلغ قوته حدا يخشاه حتى النمل! لذلك اندفع نحو الشكر لله ، خشية ان يكون شعوره بالقوة سبباً للكفران بالنعم و الطغيان . لذلك بادى طالباً من الله التوفيق الى شكره ، ليس فقط شكراً نفسياً و لفظياً بل وعملياً أيضاً ، و ذلك بأن يستخدم ما وهبه الله من القوة و المنعة و الملك في سبيل عمل صالح يرضيه تعالى ، فليس كل عمل صالح بذاته يرضي الله ، فلو انقطع شخص لله بالعبادة صياماً و صلاة ولكنه انعزل عن الناس و الكد على من يعولهم ، فان هذا العمل لا يرضي الله و ان كانت الصلاة في ذاتها عملاً صالحاً.

كما جرت لسليمان (ع) حادثة اخرى تكشف لنا عن ملكه و طريقته في الحكم ، حينما غاب الهدهد فظن في بادىء الامر انه خالف قواعد الانضباط ، فهدده و توعدته بالعذاب حتى يصير عبرة لسائر الجنود ، فلا يفكرون في مخالفة النظام فتعم الفوضى في الجيش ، و كان من عادة سليمان (ع) تنف ريش الطائر المخالف و المتخلف ، الا ان الهدهد فاجأ سليمان (ع) حين نقل له خبراً مفاده : انه رأى مملكة سبأ في بلاد اليمن ، و لم يكن لدى سليمان علم ظاهر بها ، لانه كان يعيش فيفلسطين ، اذ يجب ان تلتقي الحضارتان (و هذه سنة الحياة) و أضحى الهدهد هو الرابط.

بعد ذلك قرر سليمان (ع) ان يتبين الامر ، فان صدق أكرمه و الا أحل به العذاب ، لذلك دفع اليه رسالة و أمره ان يلقيها الى ملكة سبأ ، و في القصة عبر و دروس سنتعرض لها في البيئات.

بيئات من الآيات

[18] حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان و جنوده و هم لا يشعرون [و لم تغل النملة ان سليمان و جنوده لا يملكون الاحساس أساساً ، و انما قالت بأن اهتمامهم بأشياء اخرى قد يجعلهم لا يدركون بأن تحت أرجلهم شيئاً و هذه اشارة للانسان المقندر بأن لا ينسى النملة بل يهتم بها ، لانها ذات روح و شعور.

و الحاكم العادل ياخذ حساباته حتى بالنسبة لهذه النملة ، و لنستمع إلى كلمة الإمام علي (ع) و هو يومذاك حاكم على إمبراطورية عظمى:

" و الله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته ، و إن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها . ما لعلي و لنعيم يفنى ، و لذة لا تبقى " (١) أما الطغاة فانهم يتجاهلون شعوباً بأكملها ، فأمرىكا تفكر ان تضغط على روسيا في افغانستان مادامت الاخرى تضغط عليها في بولونيا و في كلتا البلدين (١) نهج البلاغة / خ ٢٢٤ / ص ٣٤٧.

شعب مستضعف الا ان المهم عندهم ان تمشي سياستهم و مصالحهم ولو دفع ملايين المستضعفين

الى الجحيم.

كما تزرع كلتا الدولتين صواريخها النووية المرعبة بين ملايين البشر ، و تسليهم الراحة و الاطمئنان ، فالمهم عندهم ان يكونوا اقوياء ، و هذا هو الفرق بين مملكة الإيمان و إرهاب الطغاة.

[19] [فتبسم ضاحكا من قولها]

قيل : ان سليمان (ع) لما سمع كلام النملة ، أمر الجيش بالتوقف في الصحراء حتى دخل النمل أجمعهم الى بيوتهم ، فأمرهم بعد ذلك بمواصلة المسير ، و في الوقت ذاته تعجب سليمان من كلام النملة ، و عرف انه و صل ذروة رفعة من القوة و السلطة ، و انه استجيت دعوتها التي قال فيها : " رب اغفر لي و هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي انك انت الوهاب " (١) لذلك توجه بالشكر الى الله لكي لا تبطره النعمة فيطغى.

و هناك حديث شريف ينقل حوارا بين سليمان و النملة:

في عيون الاخبار باسناده الى داود بن سليمان الغازي ، قال : سمعت علي بن موسى الرضا (ع) يقول عن ابيه موسى بن جعفر (ع) في قوله : " فتبسم ضاحكا من قولها " و قال : " لما قالت النملة : " يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان و جنوده " حملت الريح صوت النملة الى سليمان (ع) و هو مار في الهواء ، فالريح قد حملته ، فوقف و قال : علي بالنملة ، فلما أتى بها قال سليمان : يا ايها النملة اما علمت اني نبي الله واني لا اظلم احدا ؟ ! قالت النملة : بلى . قال (١) سورة ص / ٣٥.

سليمان : فلم تحذرينهم ظلمي و قلت : " يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ؟ " قالت النملة : خشيت ان ينظروا الى زينتك فيقيسوا بها ، فيبعدون عن الله عز وجل ، ثم قالت النملة : انت اكبر ام ابوك داود ؟ قال سليمان : بل ابي داود ، قالت النملة : فلم يزيدني حروف اسمك على حروف اسم ابيك داود ؟ قال سليمان : مالي بهذا علم ، قالت النملة : لان اباك داود داوى جرحه بود فسمى داود ، و انت يا سليمان ارجو ان تلحق بأبيك ، ثم قالت النملة : هل تدري لم سخرت لك الريح من بين سائر المملكة ؟ قال سليمان (ع) : مالي بهذا علم ، قالت النملة : يعني عز وجل بذلك لو سخرت لك جميع المملكة كما سخرت لك هذه الريح لكان زوالها من يدك كزوال الريح ، فحينئذ تبسم ضاحكا من قولها " (١)] و قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين [لقد كان سليمان ملكا و نبيا ، كما كان ابوه ملكا و نبيا ، و أمه مؤمنة صالحة ، و كان يعمل الصالحات التي يرضاها الله ، و لكنه لم يكتف بتلك الصفات بل دعى الله ان يجعله مع الصالحين ، فمادما ينفع الانسان ان يكون ابواه صالحين اذا لم يكن هو كذلك كما ينبغي على من أوتي الحكم و النبوة و الصلاح ان لا يتخذ ما أوتي من الفضل اداة للتفرقة بينه و بين الصالحين الآخرين.

[20] [و تفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين] (١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٨٢

[21] [و لعله خشي ان خروجه من غير إذن قد يشجع الآخرين على عدم الانضباط ، لذلك توعدده بالعذاب

[لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أوليأتيني بسلطان مبين] ان كان غيابه لعذر ، و الا فالعذاب الشديد أو الذبح العاجل ينتظره.

[22] [فمكث غير بعيد]

عاد الهدهد فبادره سليمان بالسؤال : أين كنت ؟!

[فقال أحطمت بما لم تحط به و جئتك من سبأ نبأ يقين] لا يقبل الشك.

تقول رواية شريفة:

"قال ابو حنيفة لابي عبد الله (ع) : كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : " لان الهدهد يرى الماء في بطن الارض كما يرى احدكم الدهن في القارورة ، فنظر ابو حنيفة الى أصحابه ، و ضحك قال ابو عبد الله (ع) : ما يضحكك ؟ قال : ظفرت بك جعلت فداك قال : و كيف ذلك ؟ قال : الذي يرى الماء في بطن الارض لا يرى الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه ؟ قال ابو عبد الله (ع) : يا نعمان اما علمت انه اذا نزل القدر أغشي البصر !؟ [(١)] [٢٣] [إنني وجدت امرأة تملكهم]

(1)المصدر ص / ٨٥.

أي تحكّمهم و تقودهم.

[و أوتيت من كل شيء]

لديها انواع الخير و الملك.

[ولها عرش عظيم]

نقل ان عرش بلقيس كان خمسة و عشرين ذراعا طولا و عرضا و ارتفاعا ، و كانت مقدمته من الذهب ، و كانت بلقيس بنت شرحبيل تحكّم قومها بمجلس شورى ، يضم اكثر من (٣١٣) رجلا ، يمثل كل واحد منهم قبيلة.

[24] [و جدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله] [الناس نوعان : نوع يعمل بعد التفكير ، و نوع يعمل من دون تفكير ، و لو كان هؤلاء يفكرون قبل ان يتعبدوا للشمس لاهتدوا الى الصواب ، و لكنهم عطلوا تفكيرهم ، و اكتفوا بالواقع الموجود أو المورث.

بلى . هو كما قال الإمام علي (ع) :

"ولو فكروا في عظيم القدرة ، و جسيم النعمة ، لرجعوا إلى الطريق ، و خافوا عذاب الحريق ، و لكن القلوب عليّة ، و البصائر مدخولة ! " [(١)] [و زين لهم الشيطان أعمالهم]

عبر التبرير و التصليل.

(1)نهج البلاغة / خ ١٨٤ / ص ٢٧٠.

[فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون]

و كيف يهتدي من استسلم للشيطان ، و جعله يفكر و يخطط بالنيابة عنه !؟

[25] [ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات و الأرض] [و ليس الشمس هي التي تخرج القوى و الطاقات الكامنة حتى نعبدها.

[و يعلم ما تخفون وما تعلنون]

[26] [الله لا إله الا هو رب العرش العظيم]

الذي لا يقاس به عرش بلقيس و سائر السلاطين حتى نخضع لهم من دونه ، ولا بسائر المخلوقات كالشمس حتى تؤلّوها و تتصورها ربا.

هكذا كانت البداية للقاء حضارتين (حضارة عربية و اخرى عبرية.)

دروس من القصة

- 1 ان الانسان قد يتقدم و يتكامل في حياته الى درجة معرفة منطق الطير ، و الاستفادة منه ، و هذا يعني اننا من اجل الوصول الى حضارة انسانية متكاملة في المستقبل يجب أن نسعى للاستفادة من الاحياء و الطبيعة من حولنا الى أقصى حد.

- 2 ان الانضباط ضرورة ولا سيما بالنسبة للجندي في الخط العسكري الا ان للمبادرة أهميتها أيضا ، فاذا بادر الجندي الى مهمة ناجحة فعلى القائد أن يكرمه حتى لا تموت روح المبادرة عند الجيش.

- 3 ان الطيور كما البشر يعرفون الطريق الى الله ، لذلك عرف الهدهد أن عبادة الشمس انحراف و ضلال.

الا تغلوا علي وأتوني مسلمين

هدى من الآيات

لقد ساعد غياب الهدهد على التقاء حضارتين عظيمتين في زمانهما ، و هما الحضارة العبرية و يمثلها سليمان (ع) وهي الحضارة الالهية التي تستمد قيمها من الوحي ، و الحضارة العربية و تمثلها بلقيس ، و هي الحضارة الارضية التي تستمد قيمها من عقل الانسان حيناً ، و شهواته في الاغلب.

و كما ان جوهر رسالة الله يختلف عن واقع الثقافة الارضية - حسيما ذكرتنا به سورة الشعراء - فان سلوكيات الرسل و شخصياتهم تختلف عن شخصيات و سلوكيات أصحاب ثقافة الارض ، فمع ان سليمان (ع) كان ملكا ومن عادة الملوك الاستعلاء و الفساد استجابة لاغراءات الملك، الا انه كان ملكا صالحا مترفعا عن كل الرذائل ، و هكذا يكون الملك حين يتصل بالرسالة الالهية مثالا ساميا للسلوك الفاضل ، و ان دل هذا على شيء فانما يدل على ان قدرة الرسالة تفوق الظروف ، و ان الروح المعنوية التي تبعثها في كيان الفرد ، تجعله فوق المتغيرات و المؤثرات السلبية في

الحياة ، و ان شئت فقل فوق ما يسمى بالاحتميات العلمية.

فلو نظرت الى مصادر علم الاجتماع لوجدت قائمة من الاحتميات الاجتماعية ، و هكذا تجد امثالها في علم النفس و التاريخ ، و لكن قد يأتي انسان ما يتجاوز هذه الاحتميات المدعاة ، و يحدث في مجتمعه تغييرا يبدل مجرى التاريخ ، و يخلق تيارا معاكسا لواقع المجتمع دون ان يخضع للمسيرة التاريخية - حسب نظرية ماركس - فبرغم انتمائه الطبقي و العائلي الا انه يصير شيئا آخر تماما ، و هذه من ميزات النور الالهي الذي ينفذ في قلوب الصادقين من عباد الله ، و يضرب لنا الله مثلا بسليمان (ع.)

لقد عامل سليمان الهدهد - و هو طائر يعمل في خدمته - معاملة كريمة ، حيث لم يعاقبه ، بل منحه فرصة كي يكتشف مدى صحة ما جاء به ، فكتب رسالة و سلمها له ، و أخذها الهدهد و ألقاها على عرش ملكة سبأ ، فلما بصرت بها امتلكها العجب.

فشهرة سليمان (ع) كانت قد سبقت رسالته اليها ، و كانت بلقيس على علم بما يجري في البلاد الاخرى ، و هي تدري بأن بلاد فلسطين و بلاد الشام يحكمها ملك كريم ، وعلى أثر استلامها كتاب سليمان جمعت اعضاء مجلسها الاستشاري ، و الذي كان حسب قول بعض المفسرين يضم (٣١٣) رجلا ، و أخبرتهم بانها استلمت رسالة كريمة مختومة بخاتم سليمان ، وفي داخلها أوامر حكيمة و رشيدة ، فيها دعوة للخضوع لملكه و سيطرته ، و لكنه لا يفعل ذلك من أجل فرض سيطرته و هيمنته ، و من أجل ضم ملكها الى ملكه ، و إنما لنشر راية الحق و العدالة الالهية.

ثم طلبت بلقيس من مجلسها أن يشير عليها بما يجب ان تفعله في أمر خطير كهذا ، فترك المجلس المسألة إليها ، و أبدوا استعدادا لتنفيذ كل ما تقرره و تأمر به ، فكان القرار النهائي لبلقيس الاستسلام

لسليمان ، لانها عرفت أنه اكثر نفوذاً و قوة منها ، و انها ان لم تشتت استقلال بلادها بالتعاون مع سليمان ، فانه و جنوده سيدخلونها عنوة و يؤدي ذلك الى خرابها و دمارها.

و القرآن الحكيم لا يبين لنا الاحداث التاريخية لمجرد العلم أو التسلية بها ، و إنما يبينها للإعتبار و الإيعاظ ، كما أنه لا يحتوي على لغو و عبث ، إذا فعلى كل جيل ان يستفيد منه بما يتناسب و قدرته للاستيعاب

و نستفيد من القصة ان افضل حكومة تقوم بين الناس هي الحكومة التي تجمع بين المشورة في الرأي و الحزم في القرار ، ذلك لان الذي يحرك العالم أمران : العلم و الارادة . فيجب على المرء ان يعرف الطريق ثم يقرر المضي فيه ، اذ قد يكون القرار خاطئاً و مهلكاً بدون علم ، و القرار الذي لا إرادة معه سيكون هشا ، و السلطة يجب ان تكون مجسدة لهذين العاملين الأساسيين لحركة التاريخ.

ان الحكومات النبائية التي يضيع فيها القرار بسبب اختلاف الافراد لا تفرز قرارات حازمة ، و أما الحكومات المستبدة الحزم موجود في قراراتها الا انها ينقصها الرأي الصائب أو القرار العلمي ، لأن الفكر الواحد لا يستطيع استيعاب المزيد من المعارف و التجارب ، و أما الحكومات التي تبقى فيها القرارات لأعلى سلطة اي للفرد الذي يمسك زمام الامور بيده ، و لكنه لا يتخذ القرار الا بعد ان يستشير مجموعة من الناس ، سواء كانت هذه المجموعة من الخبراء أو المستشارين أو النواب ، فانها تكون اقرب الى الصواب ، لأن هذا النوع منالحكومات يجمع بين علم المشورة و حزم القرار ، و يتضح هذا النوع من الحكومات في الآية الكريمة التي تقول : " و شاورهم في الامر فاذا عزمتم فتوكل على الله " (١)(١) آل عمران / ١٥٩ .

اذ يخاطب الله رسوله مرشداً إياه الى مشاورة المسلمين في أموره ، على أن يبقى القرار حقا خاصا به

و نستوحي سلامة هذا النوع من الحكم من خلال قصة بلقيس حيث شاورت الملأ من قومها و استشارتهم بقولها : " افتوني " ففعلوا و لكنهم - بدورهم - خولوها حق القرار النهائي ، و هذه نقطة مهمة في الحكم . ان بلقيس لم تكن لتفرض عليهم سيطرتها ، بل هم الذينخولوها حق القرار ، و من طرائف الحكم الاسلامي و لطائفه ان الناس بأنفسهم ، و بملء إرادتهم ، و كامل حريتهم يخولون شخصا حق القرار النهائي ، و ذلك عبر ولاية الفقيه ، فالفقيه الحاكم و القاضي و لي أمرهم بإذن الله ، و هو منتخب من قبل الناس بطريقة الانتخاباتالاسلامية ، و يخول حق اتخاذ القرار ، فيسلم له الناس نفسيا قبل ان يتبعوه عمليا.

و بالرغم من ان حكومة بلقيس كانت من أفضل انواع السلطة الا انها حيث كانت بعيدة عن روح الايمان و هدى الرسالة فقد كانت منحرفة فاسدة ، فسلامة القوانين ، و صحة الانظمة ، و حتى سلامة تطبيقها لا تدل على ان البشرية تصل بها الى شاطئ السعادة و السلام ، انماالقوانين بمثابة جسد يحتاج الى روح ، و روحها هدى الله ، فعلى الرغم من ان حضارة العرب في مملكة سبأ كانت جيدة ، و قوتهم كبيرة ، الا انهم فقدوا الصلة بالله ، فعيدوا الشمس من دونه ، و لانهم فقدوا روح الايمان اضطروا للخضوع الى سلطان يملك تلك الروح الايمانية.

و الفرق بين بلقيس و سليمان لم يكن سلامة الانظمة أو عدم سلامتها ، و صحة القوانين أو عدم صحتها ، انما كان في الجانب الغيبي (الايمان بالله) و حينما كانت بلقيس خلوا من هذا الجانب اضطرت الى الخضوع لسليمان و هذا هو قانون الحياة ، فلو كان هناك حاكم يملك الجانب الايماني للقوة وهي التوكل على الله و آخر لايملكه ، و كانا متساويين في سائر الامور فان الاول هو الذي سينتصر بإذن الله.

إذا نحن بحاجة من بعد المشورة (العلم) و العزم (الحزم) إلى قوة أخرى لانشاء حكومة مثالية ، و هي قوة التوكل على الله.

بينات من الآيات

[27] قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين]

أي سنستكشف صحة ما تقول عن طريق الأمر المخول اليك.

[28] اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم [كلف سليمان الهدهد بمهمتين حين بعته بالكتاب : أولاهما : ابصال الرسالة : وثانيهما : التجسس.

[فانظر ماذا يرجعون]

لمعرفة رد فعلهم تجاه الرسالة.

و بالفعل أخذ الهدهد الرسالة و طار بها ، و لما وصل وجد بلقيس نائمة ، فوضعها على نحرها ، فانتبهت و قرأتها ، و في الحال دعت المستشارين للاجتماع بسرعة.

[29] قالت يا أيها الملؤا إني ألقى إلي كتاب كريم [الملا : الاشراف ، قالت لهم : لقد وصلني كتاب كريم يدل على أن مرسله رجل عظيم ، و أن في الكتاب كرامة ، ثم قرأته عليهم:

[30] إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم [ويبدو ان شروط الرسالة الكريمة قد اجتمعت في كتاب سليمان لبليقيس ، أو ليس كتاب المرء رسول عقله ؟!

لقد افتتح الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم مما عكس روح التوحيد، و معاني العطف و الرحمة عند صاحب الكتاب ، و قد كان من سليمان ذلك الذي طبقت شهرته الطيبة الافاق ، و كان مختوما ، و قد حمله طير السعد من الفضاء ، و وضعه بهدوء على نحرها ، مما دل على مزيدمنا الاحترام لها.

[31] الا تعلوا علي واتوني مسلمين]

لا تحاولوا ان تحاربوني ، انما تعالوا مسلمين . ولا ريب ان كتابا بهذا الايجاز و الاسلوب يحمل في طياته الوعيد.

[32] قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري]

افتوني :أي طلبت منهم الفتيا ، و هي في الواقع حكم نابع من القواعد و الأصول العامة التي يلتزم بها ، فلو طبقنا القاعدة المسماة بقاعدة البراءة الفقهية على حادثة معينة أو على حكم خاص فإننا نسمي هذا التطبيق بالفتوى ، و ملكة سبأ طلبت من الملأ المستشارين البت في المسألة وفق القواعد و التقاليد و الافكار السائدة ، و تطبيق تلك القيم على واقع الحياة.

[ما كنت فاطعة أمرا حتى تشهدون]

إنني لا استطيع أن أتخذ قرارا حازما و قطعيا ، مالم تكونوا شهودا معي في اتخاذه .انها كانت تتخذ القرار بعد ان تستفتيهم و تشهدهم عليه.

[33] قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد]

نحن نملك القوة و الارادة للمقاومة ، و هاتان هما الصفتان اللتان يجب توفرهما في الأمة ، يقول ربنا سبحانه و تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل " . (١) ان القوة التي لا ينتفع بها في انجاز عمل ما لا تنفع شيئا ، و ان القوة بدون الاستعداد الفعلي للحرب تظل عقيمة ، هناك مليار انسان مسلم يلتزمون ظاهرا بواجب الجهاد في العالم ، و لكن حينما تعتدي اسرائيل على المسلمين لا نحشد القوة لمواجهتها لاننا نعاني منعدم الاستعداد.

[و الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين]

الرأي رأيك ، و الأمر اليك . إنك لا تحكمين بالهوى ، و لكن فكري جيدا ثم أمري.

[34] قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها و جعلوا أعزة أهلها أذلة [لقد عبرت عن وجهة نظرها في الأمر قائلة : لو ذهبنا الى مملكة سليمان لسلمت بلادنا منهم ، و لكن لو جاءنا بجنوده لدمرت بلادنا تحت سنايك خيلهم ، ذلك ان الملوك حينما يدخلون بلادا ما يحاولون الاستفادة من خيراتها ، و بذلك يستنزفون مواردها لمصلحتهم فتخرب ، فصاحب الارض و ابناء البلاد بطبعهم يحرصون على موارد بلادهم و خيراتها ، و يحز في أنفسهم ان يروا خيرات بلادهم نهبا للاجنبي المستغل ، فالفلاح - مثلا - يحافظ على أرضه ، و يهتم بها ، ولا ينهكها بالزراعة ، فيزرعها سنة و يتركها في السنة التي تليها لتسعيد التربة قوتها و خصوبتها ، و حين

يزرع الارض يحتفظ بقسم من الحنطة - مثلا - كيدور ، و يشتري بقسم منها سمادا للأرض ، و هذا هو الاسلوب المعتاد ، و لكن حين يغزو الاجنبي البلاد ينتزع كل الحنطة ، و يترك الارض بيابا ، غير قابلة للانتاج حتى ولو بعد عشر سنين.

إذا لو ابتعدنا عن قوى الشرق و الغرب لاستطعنا ان نخطط لأنفسنا تخطيطا سليما ، فنستخرج من النفط بقدر ما يحتاجه بلدنا من نفقات ، فنخصص قسما من الموارد التي تدرها علينا الصادرات النفطية للزراعة ، و آخر للصناعة و عمارة الارض ، و قسما للمواصلات و لسائر نفقات البلاد ، و لكن حينما تكون مواردنا البترولية مرتبطة بالغرب و الشرق فلن نحصل منها على شيء ، لان هذه الموارد تذهب الى خزائن الاموال الاجنبية لتصدر لنا السلاح و السلع ، و منتجاتها الى ان تغرق الاسواق ، بالاضافة الى امتصاصها ما نحصل عليه من أتعاب.

إن نفقات التسليح تفرض علينا فرضا ، و السلع الكمالية و أسباب الإفساد تغزو بلادنا وأسواقها ، لأن الاجنبي لا تهمة مصلحة البلد و شعبه ، و لهذا فهو يفسد أهل البلاد و أرضها ، فمزارع القطن في مصر دمرت من قبل المستعمرين ، و الاصلاح الزراعي الاستعماري في إيران في زمن الشاه المقبور جعل من ايران -المكتفية زراعيًا و التي كانت تصدر منتوجاتها الزراعية و الصناعية - بلدا بلا زراعة ، و تحولت من دولة مصدرة الى دولة تستورد كافة المحاصيل الزراعية الاستهلاكية من الخارج ، بعكس ما يحصل الآن بعد ان تحررت ايران على يد القيادة الرشيدة و الجماهير المستضعفة.

ولطالما سعى المستعمرون في سبيل إفساد المجتمع عن طريق أفراد المجتمع ذاته ، و ذلك بأن يبحثوا عن مجموعة من المبنوذين بسبب ابتعادهم عن قيم المجتمع ، فيستخدمونهم لبث الفرقة و الفساد بين أبناء الشعب الواحد ، و لو بحثت عن أصول الأسرة الحاكمة لوجدت أنهم ينتمون الى أسوأ و أخط الأسر و العشائر ، فالمستعمرون يبحثون عن هؤلاء تحت كل حجر و يحكمونهم في رقاب أبناء البلد.

إنهم لا يبحثون عن الشرفاء ، لان الشريف لا يرضى ان يسلم مقادير بلده للأجنبي ، و يرفض التعاون معه ، ولا يستسيغ رؤية بلاده و قد نهبت من قبل الغربيين و الشرقيين.

ولو خرج الاجنبي من البلاد فسيحكمها بناؤها الملتزمون بالقيم الاسلامية ، و يتحول المجتمع الى مجتمع ملتزم بالإسلام و أحكامه ، و شرائعه ، و أخلاقياته ، و بالتالي يصبح مجتمع الفضيلة ، ولكن الاجنبي يفعل العكس ، و كما يقول القرآن الحكيم : " و جعلوا أعزة أهلها أذلة. "

حينما دخل البريطانيون العراق مستعمرين نشر إعلان في النجف الاشرف بأن الحكومة الاستعمارية بحاجة الى شرطة ، و يجب ان يكون عمر من يتقدم الى الخدمة في الشرطة بين الثامنة عشرة و الخامسة و الثلاثين من العمر ، فاجتمع بعض الناس ممن كانوا بحاجة الى العمل ، ولما رأى الحاكم البريطاني كثرة من جاء فيء طلب العمل في سلك الشرطة ، ولم تكن الحكومة المستعمرة بحاجة الى أكثر من عشرة ، قام الحاكم فيهم خطيبا ، و قال لهم : إنني لست بحاجة إليكم ، و لكن لو كان فيكم عدد من أولاد الزنا فليبقوا ، فأخذ كل واحد من الحاضرين ينظر الى صاحبه ، ثم تفرق الجميع الا عدة قليلة ممن لفظهم المجتمع ، و ممن لا يأثم لو نسب الى الزنا ، و ربما لم يكونوا أبناء زنا ، و لكنهم كانوا سفلة ، لاتهمهم التضحية بشرفهم ليصبحوا خدما للأجنبي ، و الشريف لا يرضى أن يكون شرطيا يخدم

الاجنبي ضد ابناء وطنه ، ولا يرضى التضحية بقيم مجتمعه.

[و كذلك يفعلون]

وفي هذا المقطع من الآية تأكيد من قبل الله على الحقيقة التي طرحتها بلقيس عن الملوك.

واسلمت مع سليمان لله رب العالمين هدى من الآيات

بعد ان استشارت بلقيس قومها في أمر الرسالة التي جاء بها الهدد ، قالوا : إننا أولوا بأس و قوة ، و مستعدون للحرب ، لكنها قالت : اننا سنتشتري رضى سليمان بالهدايا الثمينة ، فان كان من الذين تستهوبهم الدنيا قبل ، و ان لم يكن كذلك و كان نبيا فالأمر يختلف، ولا مجال لدينا يومئذ لمعارضته.

و الذي نستفيده من هذه العملية - حين بعث بلقيس بالهدايا - ان من عقل هذه الملكة - و اعقل الناس من جمع عقول الناس الى عقله = انها لم تحزم في القرار بالحرب أو السلم ، انما تركت لنفسها فرصة - حتى يعود الرسول - تفكر فيها ، حتى لو اتخذت قرارا يكون قرارها سليما ، و هكذا فان القرار الناجح هو الذي يتخذه صاحبه بعد توافر كل مكوناته : (المعلومات و الخبرات و التكبير السليم.)

و هكذا تحرك رسول بلقيس حتى وصل الى سليمان ، فلما سلمه الهدايا استصغرها و استصغروهم أيضا ، و لما عاد الرسول الى بلقيس و أخبرها بما جرى عرفت أن سليمان ليس كسائر الملوك ، و لما كان الرسول يحمل تهديدا بالزحف نحو مملكتها إن لم تأت بلقيس و قومها مسلمين ، جمعت أمرها على المسير الى سليمان ، و قبل أن تتحرك من اليمن كان سليمان يبحث عن يأتيه بعرشها الذي يبلغ (٢٥) ذراعا طولاً و عرضاً و ارتفاعاً و كان ذهباً ، فقام عفريت من الجن و قال : أنا أتيتك به قبل أن تقوم من مقامك ، فقام (أصف بن برخيا) و صي سليمان ، و كان عنده علم الاسم الاعظم ، فقال : انا أتيتك بعرشها قبل ان يرتد اليك طرفك ، فأمره سليمان بذلك ، فرأى العرش أمامه في لحظة و أنتد أمر سليمان بإجراء تغيير بسيط فيه وذلك بأن تجعل مقدمته فضة بدل الذهب ، و سأل بلقيس ان كان هذا عرشها ، فنظرت اليه نظرة تفكر ، ثم قالت : كأنه هو ، و تدل إجابتها على راحة عقلها ، اذ عرفت على عرشها رغم تنكيره ، و لم تتعجب من انتقاله من تلك المسافة البعيدة الى قصر سليمان ، و لكن الذي أثار دهشتها ، أن عرشها كان في سبعة أروقة متداخلة ، و كلها مغلقة ، و يحيطها الخدم ، و الجيش ، و لم يكن قد طرأ تغيير في ملكها سوى انتقالها هي الى مملكة سليمان (ع) فكيف انتقل عرشها؟! فعرفت أنه انتقل بقدره قادر عظيم.

إن هدف سليمان من إحضار العرش هو تذكير بلقيس بأن معرفتها لم تنفعها ، و إن قوتها ليست بكبيرة ، و ان ما بنته ليس سوى نسج للعنكبوت ، لأنه لا يستند على قوة الإيمان ، و لكنها لم تفهم المغزى اذ كانت تفقد بصيرة الايمان التي تهديها الى بواطن الامور - كما هو حال الكثير من المثقفين في عالم اليوم - ولكي يختبرها و يعرفها على الحقيقة أكثر أمر سليمان بأن يوضع عرشه في مكان ما ، و أجرى بين عرشه و الباب ماء ، و وضع على الماء جسرا من الزجاج ، جعل تحته بعض الأسماك ، و الأحياء المائية ، ثم أمر بإدخال بلقيس ، فلما فوجئت بالماء ، ظنت أن

سليمان يريد إهلاكها غرقا ، لكنها قررت اقتحام اللجة ، فكشفت عن ساقها تهيؤا للعبور ، و إذا بها تصطكان بجسر الزجاج ، الأمر الذي جعلها تنتبه الى أنها لا تملك علما بكل شيء ، وأن كبرياءها خادع و مزيف ، و أنها من الناحية العقائدية على خطأ ، فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

بينات من الآيات

[35] [وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون]

قالت : انني سأرسل الى سليمان و حاشيته بهدية ، و انتظر رد الموفدين.

[36] [فلما جاء سليمان قال اتمدون بما لهما ان الله خير مما اتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون]

عندما وصل المرسلون الى سليمان وقدموا هداياهم لم يأبه بها ، و قال لهم : إنكم تريدون ان تغروني بالمال ، و أنا لست بحاجة إليه ، فالله منحني من الملك و المال ما هو خير من هديتكم التي لا قيمة لها . إن المال لا يفرحني ولا يسرنني ، ولكنكم أنتم الذين تفرحون بالمال ، لأنكم عبید الدنيا ، و متاع الدنيا لا قيمة له عندي ، و إنما يفرح بالمال من اتخذه هدفاً و غاية و معبوداً.

بلى . إنه لم يغتر بزخارف زينة الحياة الدنيا ، و فدى نفسه من أسرها ، و لهذا فقد استصغر إغراءات الملكة و تابعها لسبيين:

1- فما يملكه أفضل من هدايا بلقيس بكثير ، إذ أعطي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، و لم يبلغه أحد قبله.

2- ولأنه لم يكن يبحث عن الملك ، بل كان يسعى لنشر الرسالة و الوعي ، لذلك أجابهم : بأنكم أنتم الذين تفرحون بالهدية ، أما نحن فلا نفرح بالدنيا وما فيها ، و إنما هدفنا نشر الرسالة ، و إقامة الحق.

[37] [ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها] لم تكن غاية سليمان المال ، و إنما كانت غايته إرشاد الضالين إلى الطريق الصحيح ، فلذلك أمر رئيس الوفد البلقيسي بالعودة إلى ملكته ، و هدهم بالحرب ، و تسيير جيش جرار إلى بلادهم لا يستطيعون مقاومته.

[و لنخرجنهم منها أذلة و هم صاغرون]

و نخرجهم من أرضهم و هم مهانون و محقرون ، و هنالك فارق كبير بين بلد يفتح عنوة فيملكه الفاتحون بقيمة الدم الذي أراقوه ، و بين بلد يصطلى أهله عليه ، حينئذ تترك البلاد بيد أهلها فيتمتعون بحريتهم و كرامتهم ايضاً.

هكذا عرفت بلقيس أن عليها أن تسير الى سليمان طوعاً قبل ان تساق إليه كرها ، فلما حزمت حفايتها ، و علم سليمان ذلك طلب ممن حوله إحضار عرشها.

[38] [قال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين] ثم التفت الى من بحضرته من حاشيته ، طالباً أن يتبرع أحدهم بإحضار عرش بلقيس قبل أن تأتي مستسلمة مع جماعتها.

[39] [قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك و إنني عليه لقوي أمين] قال جنني قوي بأنه يستطيع أن يحمل عرش بلقيس إليه قبل أن ينقضي مجلسه ، الذي اعتاد أن يجلسه للقضاء بين الناس ، أي في غضون ساعات ، و إنه سيأتي بالعرش بعظمته دون أن يسرق من مجوهراته و زينته شيئاً.

كيف يقتدر الجن على حمل هذا العرش العظيم خلال ساعات من اليمن إلى فلسطين؟! هذا مما لم يتعرض له السياق القرآني ، و لعل الأمثل بنا أن نتركه بعد أن نؤمن به إجمالاً لعدم وجود ما يدلنا على استحالته.

[40] [قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك] و قال الذي عنده علم من الكتاب - و الكتاب هنا اللوح المحفوظ عند الله سبحانه - بأنه سيحضره قبل طرفة عين واحدة ، وأحضره في الحال بإسم الله الأعظم ، و جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر عليه السلام - انه قال:

"إن آصف بن برخيا قال لسليمان (ع) : " مد عينيك حتى ينتهي طرفك ، فمد عينيه فنظر نحو اليمن ، و دعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ، ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدره الله قبل أن يرد طرفه " (١) و يبقى سؤال : هل كان سليمان أعلم أم وزيره آصف بن برخيا ؟ و يجيب عن ذلك الإمام الهادي (ع) في الحديث التالي:

روى العياشي في تفسيره قال : إلتقى موسى بن محمد بن علي بن موسى ، و يحيى بن أكثم فسأله ، قال : فدخلت على أخي علي بن محمد عليهما السلام - اذ دار (1)- نور الثقلين / ج ٤ / ص ٨٧.

بيني و بينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته ، فقلت له : جعلت فداك إن ابن أكرم سألني عن مسائل أفتيه فيها ، فضحك ثم قال : هل أفتيته فيها ؟ قلت : لا ، قال : و لم ؟ قلت : لم أعرفها ، قال هو : ما هي ؟ قلت : قال : أخبرني عن سليمان أكان محتاجا إلى علم أصعبن برخيا ؟ ثم ذكرت المسائل قال:

"أكتب يا أخي : بسم الله الرحمن الرحيم ، سألت عن قول الله تعالى في كتابه " : قال الذي عنده علم من الكتاب " فهو آصف بن برخيا ، و لم يعجز سليمان عن معونة ما عرف آصف ، لكنه - صلوات الله عليه - أحب أن يعرف من الجن و الانس أنه الحجة من بعده ، و ذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ، ففهمه الله ذلك لنلا يختلف في إمامته ودلالته ، كما فهم سليمان في حياة داود ، و لتعرف إمامته و نبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق " (١)بلى . إن سليمان (ع) اختار آصف بن برخيا للقيام بذلك الدور من أجل أن يبين للناس أنه الوصي من بعده ، و حين نقرأ تأريخ الأنبياء (ع) نجد انهم يختارون مواقف معينة يظهرون فيها أوصياءهم ، حتى يكون واضحا عند الناس من هو الخليفة من بعدهم ، وهكذا لايرحلون إلا بعد أن يجعلوا لمستقبل الرسالة ضمانا.

و نستوحى من سورة النمل بأن الملك يقوم على ثلاثة أركان هي : العلم ، و أعلى مراتبه أن يستفيد الانسان من خبرات الآخرين و عقولهم " و شاوروهم في الامر " و الحزم " فاذا عزمت " و التوكل " فتوكل على الله " ولقد اجتمع لسليمان (ع) الملك و القوة و الطاعة من رعيته ، و كان في جنده من يستطيع أن يحمل عرشا كعرش بلقيس ، و يأتي به من بلد بعيد كاليمن - خلال طرفة عين - و لكن ذلك كله لم يكن أساسا حقيقيا لملكه ، بل ان القوة الحقيقية التي استند عليها هي الامداد(١) المصدر / ص ٩١.

الغيبى من الله ، قال تعالى : " وان يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره و بالمؤمنين " (١) و الملاحظ أن القرآن قدم نصر الله على عون المؤمنين لأن الاول هو الأهم.

و نحن حين نبدأ بأي عمل ترانا نستعين بيسم الله الرحمن الرحيم ، و سليمان بدوره استعان بقدرة الله و قوته - حين أرسل كتابه الى بلقيس - اذ قال : " انه من سليمان و انه بسم الله الرحمن الرحيم " ليبين لها أن سلطانه ليس ماديا ، و هكذا نجد نوحا يخاطب أصحابه قائلا : " اركبوا فيها بسم الله مجريها و مرسيتها " (٢) لأن كل شيء لا يتم إلا باسم الله ، ولولا اسم الله لم يستطع آصف بن برخيا إحضار عرش بلقيس في لحظة من اليمن الى أرض فلسطين.

[فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر] فلما رأى سليمان عرش بلقيس أمامه ، قال : إن إحضار العرش لم يتم بقوة مادية أو أرضية ، ثم إن نعم الله على المرء ليست دليلا على سلامة النية بل إنها ابتلاء ، فسلامة الجسم والغنى والأمان كلها نعم للإبتلاء ، و اختبار الإرادة ، و الفتنة ، فلا ينبغي للمرء أن يغتر بها ، إنما يجب أن يؤدي حقها بشكرها.

[ومن شكر فإنما يشكر لنفسه]

و من شكر نعم الله ، فإن فائدة الشكر تعود عليه.

[ومن كفر فإن ربي غني كريم]

(1)الأنفال / ٦٢ .

(2)هود / ٤١ .

فلو أن جميع العالم كفر بالله ، فإنه لا يضره من كفرهم شيئا ، و تبقى رحمته تسعهم ، و يظل يلفظ بالكافرين ، و يعطيهم الفرصة بعد الأخرى ، لأن رحمته وسعت كل شيء.

[41] قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون [أي غيروا شكل عرشها و مظهره حتى يبدو مختلفا لنختبر عقلها ، و نتعرف على طبيعتها ، و نهدئها الى الحق و الرسالة.

[42] فلما جاءت قبل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها و كنا مسلمين [و عندما جاء بلقيس سنلت عن السرير الذي أتى به أصف بن برخيا ، و هل أنه يشبه سرير ملكها ، فقالت : كأنه هو بعينه ، ثم يقول سليمان (ع) : (أنه تفوق على هذه المرأة بدرجتين : العلم و هي خلو منه ، و الإيمان وهي تفقده ، و أساس الملك هو العلم المقرون بالإيمان.

[43] [و صدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين]إن بلقيس كانت وثنية على دين آبائها و قومها ، و لذلك عبدت الشمس و النجوم ، و لم تعبد الله الذي خلقهن ، و ضربت تلك العبادة الخاطئة بينها و بين العلم حجابا منعها عن معرفة الله التي هي أول العلم.

[44] قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة و كشفت عن ساقها [الصرح : القصر الكبير الواسع ، حسبته لجة : أي مياه عميقة ، و رفعت ذيل ثيابها لئلا تبتل حين تخوض فيه.

[قال إنه صرح ممرد من قوارير]

ممرد : مستوي ، و هي لفظة مأخوذة من الأمرد ، و الأمرد الذي ليس عليه شعر ، و بلغت الارض الزجاجية حدا من الإستواء بحيث لا يبدو فيها أثر للتعرج ، و يبدو أن الزجاج كان معروف الصناعة على عهد سليمان (ع) و كانت صناعته متقدمة كالكثير من الصناعات الأخرى.

[قالت رب إنني ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين]و هنا عرفت بلقيس الحقيقة ، و تدد الضباب الذي كان يلف عقلها و يحجبها عن رؤية الحق و معرفته ، و أخذت تنظر إلى الحياة بمنظار جديد ليس فيه مكان للكبرياء.

لماذا حدث هذا التحول التام الذي يشبه لحظة الاعتراف عند المجرمين بعد طول المراوغة ؟

حينما يصطدم الانسان بقضية ما كان يجهلها فإن هذه القضية تثير عقله ، فيبدأ بإعادة النظر في أفكاره و معتقداته ، و تؤدي إعادة النظر هذه الى انهيار النظام الفكري الذي كان يعتمد عليه ، فيتحرر عقله من الأغلل القديمة ، و يأخذ بالتفكير من جديد حتى ينتهي الى الحقيقة .. هكذا آمن السحرة بموسى حين هزموا ، وهذا ما حدث لبلقيس حين اصطدمت بما أعده لها سليمان من اختبار ، حيث أخذت تجدد نظرتها للحياة ، بعد أن وجدت أن نظرتها السابقة لها كانت غير صحيحة ، فقررت أن تتبنى الفكر الصحيح الذي يستند على الإيمان بالله ، و نبذ عبادة الأنداد ، فأمنت و أسلمت و جهها لله رب العالمين.

إننا دمرناهم و قومهم أجمعين هدى من الآيات

لقد تحدث القرآن الكريم في سورة الشعراء السابقة عن قصة نبي الله صالح (ع) و قومه ثمود ، و هنا يذكر تلك القصة مرة أخرى و ظاهرة التكرار و اضحة في القرآن ، فمثلا قصة موسى (ع) مع فرعون ذكرت سبعين مرة ، و إنما تتكرر قصص الانبياء في القرآن حسب المناسبات ، و في كل مرة بهدف متميز يختلف عن المرة السابقة ، و الهدف العام من ذكر القصص هو بث الروح الإيمانية فينا من خلال الحوار و الصراع الجاري بين الأنبياء و الجاهلين من قومهم ، وتكرار الفكرة ذاتها يفيد التذكرة ، لأن غفلة الإنسان و شهواته لا تفك تحجبه عن الحقيقة حينما بعد حين ، و حينما لا يتذكر الإنسان يغفل ، فتهمج عليه حجب الشهوات لتحجب عقله ، فهو بحاجة إلى التذكرة باستمرار.

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر ، و الإنسان لا يكتفي بصلاة و احدة في اليوم و الليلة ، و إنما يجب أن يصلي خمس مرات في اليوم ليمحي آثار الشهوات ، و ليرصد الشهوات الطارئة ، و يطهر قلبه

من آثارها .. و هكذا يستمر المرء يحارب بالصلاة حتى يختتم عمله و سلوكه بخير.

و كلما ذكرنا القرآن بالله سبحانه و برسالاته ، و الصراع الأبدى بين الحق و الباطل ، و الرساليين و الجاهليين ، كلما ضغطت علينا الظروف باتجاه تناسي ذلك الصراع ، و جرتنا نحو الغفلة عما يجري في أنفسنا و في الساحة الإجتماعية من صراع بين الكفر والإيمان ، و يكرر الذكر الحكيم قصص المرسلين للتذكرة بهذا الأمر.

أما الهدف الخاص من تكرار القصص القرآنية فهو تبيان الفارق بين النور الالهي الهابط من عند الله باسم الرسالة ، و بين الثقافة الأرضية الموعلة في وحل الشهوات و الأهواء . و بين هاتين الثقافتين فرق كبير جدا ، و قد حدد القرآن الكريم هذا الفرق عبر التمييز بين من يحمل هذا النور الإلهي ، و بين من يتأثر بالثقافة الأرضية ، فبينما تجد الشعراء في كل واد يهيمون ، و أنهم يقولون مالا يفعلون ، تجد الأنبياء على نقيض مما يفعله الشعراء ، يتحملون مسؤوليتهم ، و يتصدون للصراع.

و في هذه السورة يتابع السياق تأكيد و إيضاح الهدف ذاته ، ليبين لنا أن رسل الله على حق ، و لكن يؤكد ذلك بعد صمود النبي أمام الإغراءات المادية ، و الضغوط المختلفة ، لذلك نجد سليمان (ع) يصمد أمام الإغراءات المادية و السلطوية للملك ، فلا يعتدي ولا يتجاوز حتى على حدود النملة و حقوقها ، و من ناحية أخرى نجد أن صالحا - عليه السلام - الذي أرسل إلى ثمود يقاوم ضغط التهديد ، فيتأمرهم على قتله ، و هو منهم ، و قوانين بلدهم لا تسمح لهم بذلك بأي شكل من الأشكال ، فيخططون من أجل القضاء عليه (ع) بطريقة معينة ، وهي أن تختار كل قبيلة من القبائل التسع المتواجدة في مدينة حجر - الواقعة بين الشامات و الحجاز - رجلا منها فيقتلونه ثم ينكرون قتله ، فيضيع دمه بين القبائل .. و هكذا أرادوا أن يشترك جميعاً ببناء البلد في دمه ، و بذلك يتخلصون من وطأة القوانين التي تمنع قتله.

و في تلك الليلة التي قررت فيها ثمود قتل نبيهم ، أمر الله صالحا (ع) بالرحيل عن المدينة ، و لما رحل عنها جاء ثمود العذاب الشديد فدمرهم تدميرا ، و تشبه قصة المؤامرة هذه قصة تأمر كفار مكة على قتل النبي (ص) ليلة هجرته ، و مبيت علي (ع) على فراشه ، و التبيات بالفشل بسبب هجرة النبي عن مكة.

ان هذه القصة هي قصة صراع و تحد ، و هاتين الصفتين من سمات الرسالة الالهية ، و لهذا فإن الرسل يتحدون ، و يقاومون الضغوط ، و يتعرضون للآزمات ، فهم يسعون من أجل تغيير الأوضاع باجتثاث الفساد من جذوره ، و من هنا نعلم أنه لا يمكن أن يكون الرسل ممن ينزلون عن الأعمال الجهادية ، و يتركون التحدي و المواجهة و التصدي.

بينات من الآيات

[45] [و لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا]

ان الله سبحانه يبعث للناس انبياء ، يختارهم من بينهم ، لكي يحدثوهم بلغتهم ، و لتكون الحججة عليهم أبلغ ، و لكيلا يقولوا : لو كان النبي من قومنا لامنا به.

ولقد كانت رسالة صالح كرسالة سائر الأنبياء جاءت لتقول لهم:

[أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون]

و في هذه الآية تلميح الى وجود الصراع بين طائفتين ممن أرسل اليهم الرسول ، فاذا هم فريقان : فريق يؤمن برسالة صالح و نبوته ، و فريق يكذبه و يكفر به ، و الصراع في بدايته حوار و جدل ينتهي الى مواجهة عنيفة ، و عادة ما يركز القرآن على موضوع المواجهة ، و نجد أكثر وضوحا في سورة القصص.

[46] [قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة] لقد قال لهم صالح (ع) : (إن مخالفتكم و تحديكم للرسالة دلالة على أنكم تستعجلون العقاب و العذاب قبل الثواب ، و انكم لا تعطون لأنفسكم فرصة لتجربة الرسالة ، قبل رفضها و إنكارها).

و للإنسان فرصة لتجربة بعض الحوادث الجديدة ، و لكن من الحوادث ما لا تستطيع تجربته ، و لابد أن تنتفع بعقلك ، و لكن التجارب تختلف فقد تكون سلبية أو إيجابية.

شخص في غابة ، يقال له : تعال اركب معنا ، وإلا أكلتك الذئاب ، فيقول : فلنجرّب إن كان ما تقولونه صحيحا . هل تنفعه التجربة ؟!

كلا .. و كذلك الذين لا يؤمنون بالرسالة حتى يروا العذاب بأعينهم ، و حينئذ لا ينفع إيمانهم شيئا . لماذا لم يجربوا الإيمان بعض الوقت إن كانوا يؤمنون بالتجربة ؟!

[لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون]

إنكم أخطأتم وانحرفتم ، فالأولى لكم أن تستغفروا ربكم عسى الله أن يغفر لكم و يرحمكم ، فلا تصابون بآثار ذنوبكم ، و آثار الذنوب قد لا ترى ، فلو ذهبت إلى مستعمرة المجذومين ، و أردت الدخول فيها ، لو جدت من يقول لك : لا تدخل ، و لو دخلت لانتقل اليك مكروب المرض ، و الحديث الشريف يقول:

"فر من المجذوم فرارك من الأسد"

فتصر على الدخول لتجرب ذلك، و بعد خروجك تجد نفسك سليما لم تصب بشيء ، فتظن أنه لم يصيبك الجذام ، و لكن بعد فترة من الزمن تجد آثار الاصابة بالمرض بادية على جسمك ، و يؤكد الطبيب ذلك ، و لكنك قد لا تصدق أن المرض قد أصابك عند دخولك دار المجذومين ، بل تزعم أن المرض أصابك بسبب آخر ، و الطبيب يعرف أن جرثومة الجذام تنتقل عن طريق العدوى من الشخص المصاب ، و لكن لم يظهر أثرها الا بعد تكاثرها.

و الذنوب تشبه الجرائم في آثارها فهي تؤثر في جسم الانسان و روحه و عقله و مجتمعه و لكن بعد فترة من الوقت . و مشكلة الإنسان هي نسيانه للذنوب الذي يرتكبه ، و لا يدري أنه يخلف آثارا قد لا تمحى ، فالرجل الذي زار دار المجذومين كان بوسعه أن يتقي المرض قبل ظهوره لو ذهب الى الطبيب ليتحصن ضد المرض ، و هذا يعني في لغة الدين الإستغفار ، و حين يرتكب الانسان ذنبا فعليه الإسراع إلى الاستغفار كي يتخلص من آثاره.

[47] قالوا اطيرنا بك و بمن معك]

و لعلهم تطيروا به لأنه كان ينذرهم عاقبة ذنوبهم ، و من طبيعة الانسان الاستيناس إلى من يضحكه و يدغدع أبدا احلامه ، و يزعم له أن درب الحياة مفروش بالورود ، أما من ينذره و يذكره بعيوبه ، و يبكيه ، فهو ينفر منه و يتشاءم به.

و هناك حديث حكيم يقول:

"صديقك من يبكيك لا من يضحك "

[قال طائرکم عند الله]

فقال لهم صالح : إن الشؤم الذي لحق بكم هو بسبب ذنوبكم و خطيئاتكم ، فأنتم مذنبون ، و العذاب ينزل عليكم من عند الله ، وهو الذي بعثني نذيرا.

[بل أنتم قوم تفتنون]

وإنكم لا تعلمون بأن الله حين أنعم عليكم بهذه النعم أراد أن يفتنكم بها ، فالنعم ليست سوى ابتلاء ، وهي ليست دائمة ، و لا هي دائما خير ، و لعل نعمة يكون وراءها شر مستطير.

[48] و يبدو أن جماعة من قوم صالح كانت قد آمنت به ، وكاد الإيمان ينتشر بين عامة الناس لولا منع أشرار ثمود عن ذلك .

[وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون] [و كان في المدينة تسعة شيوخ عشائر تسعى للإفساد ولا تصلح .؟ إن النظام القبلي إطار للمجتمع البشري و هو بذاته ليس مضرا ، إنما القوانين و الأعراف التي فيه - و التي تعكس روحه و وجهته - هي التي قد تفسد و تفسد ، و يبدو أن قبائل ثمود قد بلغت هذا الدرك الأسفل ، وإذا فسد النظام بدأت نهاية المدينة ، فإذا تحول النظام الذي أنشأ من أجل حماية الحقوق ، و منع الترهل ، و المحافظة على القيم الحضارية إلى أداة للفساد ، و الاعتداء ، و التجاوز فإن نهايته قد اقتربت.

[49] [قالوا تقاسموا بالله]

حين تأمروا على قتله أقسموا بالله على ذلك ، و لعل هذا يدل على أنهم كانوا يستخدمون الدين - أيضا - وسيلة لعدوانهم و فسادهم.

[لنبيته و أهله]

أي قرروا أن يذهبوا الى داره ليلا فيقتلوه و أهله.

[ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ونا لصادقون] [و بعد ذلك يقولون لقبيلته : إنهم لم يروا قتله ، و يؤكدون إنهم صادقون فيما يقولون.

[50] [و مكروا مكرًا و مكرنا مكرًا وهم لا يشعرون] [و حينما كانوا يخططون ، كان الله سبحانه قد دبر لهم أمرا . إن الله يعلم ما في نفس الإنسان ، بينما هو لا يعلم ما في نفسه سبحانه ، و لا بد أن يخضع لربه شاء أم أبى.

[51] [فانظر كيف كان عاقبة مكرهم]

فقد انهوا ولم يستفيدوا من الفرصة .

[أنا دمرناهم و قومهم أجمعين]

لماذا دمرهم الله و قومهم ؟ لماذا استحق قومهم العذاب ؟

و الجواب : لأنهم رضوا بالكفر وسكنوا ، و لم يتحدوا أو يثوروا ضده ، فحينما جاء العذاب شملهم أجمعين ، و كما قال الله تعالى : " و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة و اعلموا أن الله شديد العقاب " (١) فإذا جاء العذاب فانه لا(١) لأنفال / ٢٥.

يشمل الكفار فقط وإنما من سكنوا عنهم ، و رضوا باعمالهم أيضا ، و هكذا أيضا حال من يسكت - اليوم - عن ظلم الطغاة و المفسدين.

[52] [فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا]

كان أهل الجزيرة عادة ما يذهبون الى الشام ، وفي طريقهم اليها يمرون (بمدائن صالح) و هي حجر ، فيشاهدون بيوتهم الخاوية المنحوتة من الصخر ، و إلى الآن آثارها شاخصة للعيان ، و يقال : أنهم نحتوا بيوتهم من الجبال ، ثم نزلوا الى الصحراء ، فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم ، وأهلكهم بما ظلموا ، و قد جاء في الروايات الشريفة:

"الظلم في الدنيا بوار ، وفي الآخرة دمار " (١) " من جار أهلته جورته (2) "

"من عمل بالجور ، عجل الله هلكه " (٣)

"حق على الله عز وجل أن لا يعصى في دار الا أضحاها للشمس حتى تطهرها " (٤)] إن في ذلك لآية لقوم يعلمون]

إن في آثارهم شاهدا و دليلا للذين يعتبرون بالمثلات.

(1) ميزان الحكمة / ص ٥٩٥.

(2) و (٣) المصدر / ص ٥٩٨.

(4) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٩٤.

وهناك مفارقة بين قصة ثمود حيث أهلكهم الله و قصة بلقيس حيث أسلمت مع سليمان لرب العالمين ، و هما حضارتان عربيتان ، خضعت إحداهما للرسالة بالرغم من أن حاملها لم يكن عربيا و هو سليمان (ع) بينما تحدث الأخرى رسالات الله مع أن حاملها كان أبا لهم ، شريفا بينهم ، بل و حاولت اغتياله لولا نصر الله له.

[53] [وأنجينا الذين ءامنوا و كانوا يتقون]

وانقذ الله المؤمنين الذين يخشون ربهم من العذاب الذي أصاب ثمود ، فكما أن الكفر و الظلم سبب الدمار ، فإن الإيمان و التقوى سبب للنجاة.

الله خير أم ما يشركون

هدى من الآيات

كان قوم لوط من الذين أصيبوا بالشذوذ و الإسراف في الشهوة الجنسية حتى تمردوا على أوامر الله بسببها ، وعندما نقرأ حياة الأنبياء مع أقوامهم تجد أن أساس الفساد لدى الجميع و احد وهو : ضعف الإيمان بالله ، و بالتالي الشرك به ، مهما أختلفت مظاهر الفساد من قوم لآخر ، و الشرك بالله هو السبب المباشر لضعف الانسان ، و انهياره بزينة الحياة الدنيا الى حد الانهيار أمامها ، بينما كان عليه أن يسخرها لنفسه ، و لقد أسجد الله الملائكة له تعبيرا عن خضوع الطبيعة ، لأن الملائكة الموكله بها سجدت له ، و من جانب آخر علما لله آدم الاسماء ، و أعطاه العلم و العقل وسيلة لتسخير الحياة في صالحه.

و لكن الإنسان كثير ما يختار اتباع الهوى ، و الخضوع لطبائعه بسبب وساوس إبليس ، ولا شك ان الذي يعجز عن السيطرة على نفسه ، و إخضاع طبائعه لعقله و للعلم الذي أعطاه الله إياه ، سوف لن يسخر الطبيعة من حوله ، لأنه حينذاك سيصيرجزءا منها ، و لن يسخر البشر الطبيعة في صالحه الا بالإرادة ، و السيطرة على النفس ، و النظريات التي تغفل جانب الإرادة في الانسان هي التي تؤمن بالحتميات ، و تسلب الثقة من الإنسان بنفسه أمام ضغط الظروف المختلفة.

فالنظرية الماركسية تقول : إن الإقتصاد يدير الحياة ، و إن وسائل الإنتاج هي التي تصوغ المجتمع ، و تسير التاريخ ، و بدلا من أن يشرف الإنسان على الاقتصاد ، يشرف الاقتصاد عليه ، و النظرية الإجتماعية تقول : إن الوسط الإجتماعي ، و المرحلة الاجتماعية التاريخية هي التي تصوغ حياة الإنسان ، و أن التوافق الإجتماعي هو أقوى إحساس يدفع البشر نحو أتجاه معين . و هناك نظرية متطرفة في علم النفس و وضعها فرويد : ترى أن الإنسان يخضع لشهواته الجنسية مباشرة ، أو عن ردود أفعال وإجباطات معينة ناتجة منها ، و كل هذه النظريات قد تكون صحيحة ، و لكن حينما يفقد البشر الإرادة والإيمان بالله ،

أما المؤمن فهو فوق كل هذه الحتميات ، إذ يسيطر على نفسه فلا الشهوة الجنسية ، ولا المجتمع الفاسد ، ولا الإقتصاد ، أو السياسة ، أو أي عامل مادي آخر يستطيع إخضاعه و السيطرة عليه ، وهذا هو جوهر الإسلام الذي تؤكد الآيات الأخيرة من هذا الدرس.

و أيهما أفضل للإنسان أن يعبد الحجر و مثيله الإنسان ، و الطبيعة التي كلف بتسخيرها ، أو أن يعبد الله ؟ فعبادة الله هي التي تتوافق مع فطرة الإنسان و عقله ، لأن الإيمان مغروس في البشر منذ عالم الذر ، يوم قال الله ليني آدم : " ألسنت بركم قالوا بلى" (١) إلا ان العوامل المختلفة وأهمها نفس الانسان هي التي تحجب البشر عن هذه الحقيقة ، ولا سبيل له للمحافظة على عهده مع الله الا بترويض النفس و السيطرة عليها.

(1)الأعراف / ١٧٢ .

لا يجد الإنسان - مهما بلغ به الإلحاد - ملجأ غير الله في لحظات الخطر ، فلو ركب سفينة ، و هبت في عرض البحر عليها عاصفة فحطمتها ، فإلى من سيلتجىء ؟ هل سيلجأ إلى صنمه ؟! أو إلى رئيسه الذي كان يخضع له من دون الله ؟! لن يفعل شيئاً من ذلك ، و إنما سيشعر أن هناك قوة أعظم من كل ذلك ، هي التي تحدد مصيره ، و بيدها انقاذه من الهلاك ، و حينئذ يتجه نحوها يطلب الخلاص ، و ذلك هو الله رب العالمين.

و بالرغم من أنه لم يعبد الله بل عبد الطاغوت و الشيطان الذي يتمثل في النفس الأمارة أو المجتمع المنحرف ، إلا أن الله سبحانه يستجيب له ، و ينقذه من ورطته ، و عندما يتخلص من الهلكة و يصل الى شاطئ الأمان يعود إلى انحرافه و خطئه ، كما فعل بنو اسرائيل حين قالوا لموسى (ع) بعدما خرجوا من البحر : " أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة (1) " و هذه من طبيعة الانسان في كل مكان و زمان.

إن قلب الانسان يتصل بالله في الشدة و اوقات التذكرة ، و لكنه في وقت الغفلة و النسيان و الضغوط ينسى الله و عهده معه - و هذه هي بداية الإنحراف - فهو يبدأ من نسيان الله ، و قدرته ، و هيمنته ، و لولا ذلك لما استعبدتنا الأهواء ، و لما وجهتنا الأنظمة الإقتصادية ، و الإجتماعية ، و السياسية ، و العسكرية ، و غيرها.

إن الضمير الحي النقي هو الذي يبقى متوكلاً على ربه باستمرار ، متصلاً به في كل ظرف.

بينات من الآيات

[54] من أعظم ما يسعى اليه الانبياء إنقاذ المجتمعات من الإنحراف ،

(1)الأعراف / ١٣٨ .

و توجيهها نحو الخير ، ولا يثنيهم عن ذلك شيء مهما كان موقف المجتمع ، ذلك انهم يجدون أنفسهم مسؤولون عن تبليغ رسالتهم التي يتحملون من أجلها كل أذى ، و هكذا كان نبي الله لوط:

[و لوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون] كيف تعملون المنكر و أنتم تعلمون قبحه ، و أنه ضلال و انحراف ؟!

[55] [أنكم]

خلافاً للسنة الطبيعية.

[لأتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون] إذ تتركون علمكم النابع من العقل و الوجدان

الى الجهل الذي هو كل سلوك لا يهتدي بنور العلم ، ولا يتوافق مع فطرة الانسان.

[56] و الذي يحمل رسالة التغيير يجب أن يتحمل من أجل تبليغها كل مكروه ، لا أن يكون مستعدا لتحملها مادامت لا تسبب له أذى ، فإذا أودى في الله نكص على عقبيه ، و نبي الله لوط كان يعرف مسبقا موقف قومه السلبي إلا أنه لم يتوان في تحمل مسؤوليته.

[فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم] حينما يتبع الانسان الجهل ، و يعارض العلم ، فإنه يعارض العالم أيضا ، و الذي يعارض فكر انسان ما و علمه فإنه يعارضه شخصا في غالب الاحيان ، و هكذا نجد الصراع بين لوط و قومه يتحول من اختلاف حول موضوع معين - هواللواط - الى صراع عنيف يسعى فيه المجتمع الى طرد نبي الله ، و كثيرا ما يلجأ الانسان الى منطق القوة مع الأطراف المخالفة له حينما يفشل في معركة المنطق ، فعندما أراد مجتمع لوط طرد المؤمنين قالوا:

[إنهم أناس يتطهرون]

إن آل لوط يريدون حياة طاهرة ، لذلك يجب إخراجهم و طردهم . أوليست الطهارة تقف مع عقل الانسان و فطرته؟! بلى . ولكن أصحاب منطق القوة لا يهمهم مع من يكون الحق ، لأنهم لا يريدون الحق ، بل يريدون ما يتفق مع شهواتهم ولو كان الباطل بعينه.

و هذا هو منطق الطواغيت حين يخرجون المؤمنين ، و يعذبونهم ، و يقتلونهم بحجة انهم يسعون لإقامة حكم الله ، و كأن ذلك جريمة ، إنهم يريدون منا أن تنحصر صلاتنا بين جدران المساجد ، أما أن تنعكس على واقعنا السياسي و الإجتماعي فلا.

[57] و عندما أجمع القوم على إخراج لوط و من معه أنجاهم الله ، و بقيت زوجته معهم لأنها منحرفة ، فنزل عليهم العذاب الذي شملها أيضا.

[فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين] [٥٨]] و أمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين]

تستخدم كلمة المطر في القرآن للسوء فقط ، أما الغيث الذي يأتي من السماء فاسماؤه مختلفة ، و ما أنزل الله مطر السوء عليهم دون سابق إنذار ، بل أنذرهم فكذبوا بالندر ، ولم ينتفعوا بها.

[59] [قل الحمد لله]

لقد انتهى أولئك فأحمد الله أنك هديت للإسلام . و الذي يحمد الله على الهداية وكونه مع المؤمنين لا يبدان يتصل بعباده الذين اختارهم.

[و سلام على عباده الذين اصطفى]

وهؤلاء الذين اختارهم الله من عباده علينا المسارعة للإنتماء إليهم اذا كنا نعبد الله حقا ، فالخاضع لله هو الذي يسلم لأوليائه الذين اصطفاهم على خلقه ، و التسليم الحقيقي هو الخضوع لهم في القول و العمل من جهة ، و التبري من أعدائهم في كل شيء من جهة ثانية، ولهذا جاء في زيارة الأئمة عليهم السلام:

"أشهد الله و أشهد أنني .. موال لكم ولأوليائكم ، مبغض لأعدائكم و معاد لهم ، سلم لمن سالمكم و حرب لمن حاربكم " (١) [ءالله خير أما يشركون]

وهنا تبدأ سلسلة من الأسئلة التوجيهية : أيهما أفضل الله أم يشركون ؟ وهدف هذه الأسئلة أن يحرك الإنسان عقله متفكرا ، لبيتعد عن الشرك عن وعي و قناعة نابعة من عقله لو أجاب على هذه التساؤلات إجابة سليمة.

[60] في إطار بيان القرآن لعبر الأمم السابقة ، يوقفنا السياق لحظات ليذكرنا بربنا العزيز عبر آياته في الحياة:

اولا : لان معرفة الله تساهم في معرفة الحقائق الأخرى ، و بالذات في حقل الرسالة.

(1)مفاتيح الجنان / الزيارة الجامعة.

ثانيا : لأن كتاب الخليقة نسخة صامتة لكتاب الله الناطق المنزل على الرسل.

و لعل القرآن يشير في كل سياق إلى الآية الطبيعية التي توحى بنفس الاسماء التي تبينها آيات الله.

[أمن خلق السموات و الأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أهله مع الله بل هم قوم يعدلون]إن الاجابة على هذه التساؤلات كلها تهدينا الى الله ، إلا أن البشر كثيرا ما يميلون عن الحق لانه يخالف اهواءهم.

[61] [أمن جعل الأرض قرارا]

بسبب الجاذبية التي لولاها لكنا نسبح في هذا الفضاء الرحب.

[و جعل خلالها انهارا]

يستفيد منها الإنسان ، و يقوم بها حضارته.

[وجعل لها رواسي]

من شأنها حفظ توازن الارض.

[وجعل بين البحرين حاجزا]

حيث تنحدر المياه من الجبال و هي عذب فرات ، و على مقربة منها البحر وهو ملح أجاج ، و التراب لا يحجز الماء عن التسرب ، ولكن وصول الماء إلى الترايبتحول الى طين يتحصن أما الماء فيمنعه من التسرب.

[أهله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون]

بعد أن يتعرض القرآن إلى هذه الآيات ، و يعرضها على عقل الانسان ، يتساءل : هل يوجد مع الله إله آخر ؟! و الإجابة بالطبع : كلا .. فلو كان ثمة إله آخر لوجدنا أثره في هذه الحياة في الارض أو في السماء أو في البحار أو .. أو .. ، فإذا أشركنا دون دليل فنحن إذن جهلاء.

[62] ثم يطرح القرآن سؤالا آخر يخاطب به وجدان الانسان ، إذ يقول:

[أمن يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء]

من هو الذي تلتجئ إليه فيدفع عنك الخطر حين يحيط بك أيها الإنسان ؟!

[ويجعلكم خلفاء الأرض]

أ - يجعلكم خلفاء الارض باعطائكم السلطة السياسية.

ب - يجعل بعضكم يخلف بعضا.

و سواء هذا أو ذاك ، فإن الذي يهلك ملوكا و يستخلف آخرين ، و يهلك قوما و يأتي بغيرهم ، هل يعقل أن يكون له شريك؟! فلماذا لا تفكرون بعقولكم لتتوجهوا الى الله؟

[أءله مع الله قليلا ما تذكرون]

في كثير من الأحيان يعتقد الإنسان أن السلطة السياسية بيد الناس فيعبدهم ، و لكنه لا يدري أنه لو شاء الله لتهاوى جميع الذين يجلسون على العرش ، و لتساقطوا كأوراق الخريف ، إن هذه الحقيقة قريبة من الإنسان ، ولو عاد إلى فطرته ، و فتش في داخله لوجدها ، و لكنه ينساها بسبب الشهوات ، و المشاكل ، و الضغوط.

و حين يوجهنا الله إلى الإيمان به ، فذلك لكي نستطيع السيطرة على أنفسنا ؟ و تسخير الطبيعة من حولنا ، وإلا سخرنا كل شيء ، و كما في الحديث القدسي:

"عبي أطعني تكن مثلي أقول للشيء كن فيكون و تقول للشيء كن فيكون" أما حين يخرج البشر من حصن الله ، و يبتعد عنه فإن كل ما في الطبيعة يستعبده و يسخره ، كالذي صار شهيدا للحمار فلم يصل عليه رسول الله مع سائر الشهداء.

[63] [أمن يهديكم في ظلمات البر و البحر]

الهداية من عند الله ، فلو لم يلهمه صناعة البوصلة لضل طريقه ، و لو لم يرسل له الأنبياء لما عرف الحق و الباطل .

و قد يتصور الانسان أن البوصلة هي التي تهديه حينما يتيه في عرض البحر ، أو أن عقله هو الذي يهديه ، و لكن من الذي يلهمه معرفة الطريق حينما لا تنفعه البوصلة ولا يهديه العقل؟! ثم إذا كانت الهداية عن طريق العقل فهو من عند الله تعالى.

و المخترعون الكبار يقولون : إن الإختراعات نوع من الإلهام ، حتى أن بعضهم يتوصل إلى الإكتشافات في حال النوم ، و كذلك يقول كبار الشعراء : إن الشعر شيء من الإلهام في غالب الاوقات.

[ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته]

لقد جعل الله الأنبياء رعاة للأغنام إلا بعضهم ، و الحكمة في ذلك كما جاء في حديث لينتظروا الغيث ، و الانسان يعلم أن الذي يأتي بالسحاب عبر الرياح إنما هو الله إذا:

[أءله مع الله تعالى الله عما يشركون]

مع كل هذه الآيات الواضحة إلا أن بعضا من الناس يتصورون أن النفع و الضر يأتي به الحكام ، فيخضعون لهم ، ويشركونهم مع الله.

[64] [أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده]

من الذي يأتي بالخلق من العدم ، ثم يعيده يوم البعث؟!

[ومن يرزقكم من السماء و الأرض]

من أين نحصل على الرزق ؟ هل من عند أنفسنا؟! كلا .. إنه من عند الله ، الذي بيده أرزاق العباد ، و

من الناس من ينظر إلى السبب المباشر للرزق ، ويغفل عن ملايين العوامل التي يديرها الرب من وراء ذلك السبب المباشر.

[أءله مع الله]

البعض يدعون أن لله شركاء كالطواغيت

[قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين]

أحد الحكام يشتري طائرة خاصة فيها مستشفى للقلب ، و طاقم خاص من الاطباء خوفا من أن يموت ، فهل هذا إله حتى نشترى مرضاته بمعصية الله ؟!

تعالى الله عما يشركون هدى من الآيات

في هذه الآيات نجد خلاصة للعبير التي استوحيناها من قصص السورة ، وهي التذكرة بالحق ، ففي القسم الأول يذكرنا الله بنفسه ، بينما يذكرنا في القسم الآخر بيوم القيامة ، ولكي نعرف الحقائق لا يكفي أن نثير عقولنا فقط ، بل يجب أيضا استثارة الوجدان ، لأن العقلي يجب أحيانا بالغفلة و العناد ، أما حين يهتز الوجدان فإن الحجب تتساقط عنه ، ويعود الانسان الى ربه ، من هنا كان علينا عند تلاوة آيات الذكر الحكيم أن نتفاعل معها نفسيا لكي نصل إلى معرفة الله حقا ، وفي ذات الوقت يجب أن نعرض كل ذلك على العقل ، إذ من الخطأ تصديق أي فكرة دون عرضها على العقل ، ذلك أن الذي يستسلم دون العودة للعقل قد يستسلم للباطل ، و هكذا يجب على الانسان أن يستثير عقله و وجدانه عند كل قضية حتى يتعرف على الحق أو الباطل فيها ، و المقصود بالموجدان تلك الجوانب الخيرة من نفس الانسان فهو - مثلا- يحب من أحسن اليه ، و يخشى من هو عظيم ، و الذي يبدهنفعه و ضره ، فعندما نعيد الله فلأننا نجد فيه مصدر العظمة و القوة ، و إنه حسينا الذي نأنس إليه ، وفي الوقت ذاته يجب أن نخشاه لأنه شديد العقاب و الإنتقام ، و يمكن أن يصل إلينا من عنده عذاب عظيم.

وإن طبيعة الإنسان إبعاد الحقائق الكبرى عن ذهنه ، فكما أنه لا يستطيع التركيز بنظره و لفترة طويلة في قرص الشمس كذلك لا يستطيع أن يركز فكره و عقله في الحقائق الكبرى كالتفكير في الله أو الموت أو القيامة ، وعندما يجلس الانسان في مجالس الذكر فيستمع إلى هذه الحقائق أو يقرأ كتابا يذكره بها فإنه يخشع قلبه ، و يتذكر القيامة ، و لكنه لا يبقى على هذا الحال طويلا ، فبعد فترة تجده وقد أنساه الشيطان تلك الحقائق و عاد إلى الغفلة مرة أخرى ، وهكذا يبقى الإنسان في جدل مع نفسه ، فتارة يتذكر الحقيقة و تارة يتعد عنها ، و لذلك سمي مكان الصلاة محرابا (بينما المحراب هو موقع الحرب) لأنه يبقى في صراع باطن مع الاهواء و الشيطان ، و يشبه في مسيره إلى معرفة الله الطائرة حين تحلق في السماء ، فبمجرد أن تعطب المحركات تهبط و ربما تتحطم ، و هكذا يسقط البشر في وحل الرذيلة و الشقاء حين يغفل عن الله و الحق.

و الآخرة باعتبارها مستقبلا وليس حاضرا ، و لكونها مرحلة أخرى من حياة الإنسان ، فإن علمه يصطدم بجدارها ، كما يجتمع الماء خلف السد ، و هكذا يتجمع علم البشر خلف هذا الجدار فيدرك الواحد الآخر ، و لأن أمامه حواجز من الشك و الجحود و الكفر بالآخرة فإن علمه يتوقف عند حدود الدنيا ، اما المؤمن فإن علمه ينفذ من الدنيا إلى الآخرة ، و لعلنا نفهم حواجز الوصول إلى الحقائق من خلال التدبر في نهايات الآيات ، يقول تعالى في الآية (٦٠) : " بل هم قوم يعدلون " وفي الآية (٦١) " : (بل أكثرهم لا يعقلون " وفي الآية (٦٢) : " قليلا ما تذكرون " وفي الآية (٦٤) : " قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين " و في الآية (٦٦) : " بل اداركعلمهم " فأولى مصيبتهم أنهم يعدلون بغيره ، و تختلط عندهم مقاييس الحق و الباطل ، بالرغم من أن أعظم صفات العقل تمييز الحق عن الباطل ، و الخير عن الشر ، و النفع عن الضرر ، أما المصيبة الثانية : الجهل و عدم العلم ، و جهلهم أت من غفلتهم ، و عدم تذكرهم ذلك ، و الطريق إلى العلم هو التذكر ، و الإنسان إما يحصل عليه عن طريق الآخرين وإما عن طريق التجارب ، و الذي لا يتذكر لا يستطيع الحصول على العلم لا من الآخرين ولا عبر التجارب ، ثم يطالبنا القرآن الكريم بالبرهان ، و من لا يملك البرهان لا يتمكن أن يقول شيئا ، و أخيرا يبين لنا أن علمهم قد توقف عند حدود الدنيا.

بينات من الآيات

[65] لو عاد الإنسان إلى وجدانه لرفض الخضوع للأنداد . ومن أبرز ما يخشاه البشر المستقبل وما يخبئه له من مفاجئات قد لا تكون سارة.

ومن الذي يعلم الغيب إلا الله ، و هل يقدر أحد أن يتحكم في المستقبل إلا الله ؟!

فهل كان كارتر يعلم بأن زوبعة سوف تدمر طائراته في طيس ، و هل المخابرات تعلم أن مركبة القضاء (تشالنجر) سوف تتحطم بعد لحظات من إطلاقها ؟! لو كانوا يعلمون لما أقدموا على كل ذلك.

و كلمة أخيرة:

إن علم الغيب ليس كل ما يعلم الإنسان عن المستقبل ، بل معرفة الأشياء بصورة ذاتية ، فقد ذكر الامام أمير المؤمنين أبناء عن المستقبل ، فزعم البعض أنه علم الغيب ، فأوضح لهم الفارق بين علم الغيب و معرفة حوادث المستقبل ، فقال متحدالرجل كلبى زعم ذلك:

"يا أبا كلب ليس هو بعلم غيب ، وإنما هو تعلم من ذي علم ، وإنما علم الغيب علم الساعة ، وما عدده الله سبحانه بقوله : " إن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث و يعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ... الآية" فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو انثى ، و قبيح أو جميل ، و سخي أو بخيل ، و شقي أو سعيد ، و من يكون للنار حطباً ، و في الجنان للنبيين مرافقا ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، و ما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ، و دعا لي أن يعيه صدري ، و تضطم عليه جوانحي " (١)

[قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون]إن هؤلاء لا يشعرون حتى مجرد شعور متى يكون بعثهم.

[66] بل ادرك علمهم في الآخرة]

لقد توقف علمهم و انتهى عند حدود الدنيا لنظرتهم المادية ، و كفرهم بالله تعالى ، و المؤمن يسأل الله أن يتجاوز علمه وإدراكه الدنيا إلى الآخرة ، ففي الدعاء:

"ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا " (٢) ولا ريب أن الذي يفكر في الدنيا فقط فإن مصيبته ستكون في دينه.

(1) نهج البلاغة / خ ١٢٨ / ص ١٨٦.

(2) مفاتيح الجنان / في أعمال ليلة نصف من شعبان.

و السبب من اقتصار علمهم على الدنيا هو شكهم في الآخرة.

[بل هم في شك منها]

بل أكثر من ذلك:

[بل هم منها عمون]

فلا يذكرون الآخرة ، كالأعمى الذي لا يعرف النور ولا اللون . و يبدو أن في السياق تدرجا في مراحل جهلهم ، توقف علمهم فلا يعرفون أي شيء من شؤون الآخرة ، و هذا وحده سبب كاف لنبيذهم من قبل اتباعهم ، ثم بين ربنا أنهم أساسا يشكون في الآخرة ، فكيف ينفعون أحدا في دار يشكون في وجودها ،

ثم بين أنهم فقدوا ما كان يمكنهم معرفة الآخرة به و هو عين البصيرة ، و من لا يملك جهازا للإدراك فهل يتصدر إدراكه لشيء.

[67] [وقال الذين كفروا أءذا كنا ترابا و ءاباؤنا أئنا لمخرجون]إنهم يشكون في البعث و الجزاء لجهلهم بالله و قدرته ، و أيضا لجهلهم بالخلق.

[68] [لقد و عدنا هذا نحن وءاباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين]و الأساطير هي الخرافات التي تشيع داخل المجتمع ، ولا واقع لها . ولو أن هؤلاء تعمقوا قليلا لعرفوا أن الحكمة تقف وراء كل شيء في هذه الحياة ، ثم لعرفوا من خلال ذلك حقيقة المسؤولية ، و أن هناك دارا للجزاء هي الآخرة ، و لعل هذه الآية تفسر الآية السابقة وتبين أن سبب عمه هؤلاء الأنداد ، و من يشرك بهم من الجاهلين هو استبعادهم البعث و زعمهم بأنه لا يكون ، لأنهم لا يعرفون كيف يمكن أن يكون ، وهل يجوز أن تنكر وجود شيء لمجرد أنك لا تعرف كيف وجد ، و ما هي عوامل وجوده أو تفاصيله !؟

[69] [قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين]و ماذا نشاهد حينما نسير في الارض و ننظر إلى التاريخ ؟

إننا نشاهد آثار تلك الحضارات التي بادت بسبب انحراف أهلها ، و رفضهم لرسالات الله ، و بالتالي نشاهد آثار الجزاء الديوي الذي يدلنا على الجزاء في الآخرة.

[70] و أنت الذي تؤمن بالآخرة لا تحزن عندما ترى العاقبة التي حلت بالمجرمين ، و لاتفكر فيهم:

[ولا تحزن عليهم]

ولا تغتم على المجرمين الذين ينتظرهم نفس المصير.

ولا تخش مكرهم ، لأن مكرهم عند الله ، و في إطار سلطانه سبحانه ، و أن الذين سيقوهم كانوا أمكر منهم ، فلم يغنهم مكرهم شيئا حين قضى الله بتدميرهم.

[ولا تكن في ضيق مما يمكرون]

و يوحى التعبير القرآني بان علينا ألا نأبه أبدا بمكرهم ، بل حتى لا يؤثر خوف مكرهم في خططنا الرامية لتبليغ الرسالة .

[71] [و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين]

دليل هؤلاء على عدم وجود الآخرة انها قد تأخرت ، و لكن هل إن عدم وقوع شيء بالأمس أو اليوم دليل على أنه لن يقع في المستقبل ؟

[72] [قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون]إنكم تستبعدون يوم الجزاء ، و لكن ما يدريكم ربما يحل بكم قريبا ، و كلمة " ردف " تدل على القرب ، إذ ليس ثمة مسافة بين المترادين على دابة و احدة ، ثم إن العذاب الأشد هو عذاب القيامة ، و من الغباء استعجال مثل هذا العذاب!

[73] [و تسأل : لماذا يؤخر الله العذاب ؟

]و إن ربك لذو فضل على الناس و لكن أكثرهم لا يشكرون]إن التأخير تفضل من الله ، و لكن الناس لا يستفيدون من هذه الفرصة بالتوبة ، بل لا يزالون يزدادون كفرا على كفر حتى يحل بهم الأجل ، و إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وانه لهدى و رحمة للمؤمنين

هدى من الآيات

في إطار بيان خصائص الوحي الإلهي ، و بعد التذكرة بالله الذي أوحى بالكتاب ، و إنه لا يعلم الغيب في الخليقة سواه . . يذكرنا ربنا بأنه سبحانه يعلم ما تكن صدورهم من هواجس و نيات ، و ما يعلنون من قول ، و أنه ما يغيب عن علمهم من حوادث و طواهر مكتوبة فيكتاب مبين (اللوح المحفوظ ، و القرآن ، و علم الانبياء و الأئمة منه.)

و إن القرآن يبين لبني إسرائيل الحق فيما هم فيه يختلفون ، مما يشهد بأنه قد نزل من لدن حكيم عليم .

و القرآن يحمل الهدى و الرحمة إلى من يؤمن به و هذا شاهد صدقه ، و يقضي بحكمه العادل و هو العزيز العليم.

و يامر الرسول و المؤمنين بالتوكل عليه ، و عدم التردد لأنهم على صراط حق.

و واضح ، و ألا يابها بأولئك الجاحدين الذين لم يجعل الله لهم نورا . أو يمكن أن تسمع الموتى أو تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين؟! كذلك أعمى القلب لا يهتدي عن ضلالتة ، إنما يهتدي من يسلم وجهه لله .

و إذا ذكرنا الرب تعالى بيوم الجزاء ، فلا بد أن يذكرنا بالرسالة التي هي إعداد للانسان ليوم الحساب . وهكذا لا نجد جانبا من العقائد الاسلامية في القرآن مبتورا مع عن سائر الجوانب ، لأنها كلها تدور حول محور واحد هو الايمان بالله ، فبعمق الايمان و بسعته ، و بالتالي بمعرفة الله عبر أسمائه الحسنى ، نتعرف على سائر أبعاد العقائد الاسلامية.

لماذا جاءت الرسالة الالهية ؟

و الجواب : جاءت الرسالة لتحقيق الأهداف التالية:

1- رفع الاختلاف . إذ وفر الله سبحانه فرصة الوحدة بين الناس عبر الرسالة ، أما إذا لم يروا الإستفادة منها لرفع الخلاف بينهم فهذا شأنهم.

2- الهداية . ولها مرحلتان:

أ (حل الالغاز . وأدنى قدر من الهداية أن يعرف الإنسان الإجابة على الأسئلة الحائرة في ذهنه : من الذي خلق هذا الكون ، و لماذا ؟ و من خلقتني ، و لماذا ؟ و من أين أتيت ، و إلى أين أصير ؟ ، حتى لا يتيه البشر ، ويقول كما قال إيليا أبو ماضي في قصيدته المعروفة الطلاسم:

جئت لا أعلم من أين و لكني أتيت و لقد أبصرت قدامي طريقا فمشيتو سابقى سائرا إن شئت هذا أو أبيت كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟

لست أدري

و من دون بعث الرسالة تبقى كثيرا من الألغاز حائرة ، يدور الانسان حول الكون و لكنه لا يصل الى مفتاح حل الالغاز ، و في النهاية يمسك القلم ليكتب " الانسان ذلك المجهول " فاللغز يبقى كما هو من دون الإيمان بالله ، و تظل المعادلة ناقصة.

و الذين يتحولون من الكفر إلى الإيمان يشبهون النائم في الصحراء ، و الذي يأتيه شخص ما ليرشده على الطريق فيجد السكون و الاطمئنان ، و تذهب عنه الحيرة ، إن هذا هو الهدى.

ب (مرحلة التكامل . وهي مرحلة العروج بروح الإنسان في مدارج كمالات المعرفة ، حتى يبلغ به الأمر أن يقول:

"لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا"

أو إلى أن يقول له الله : " إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى " (١) من مظاهر رحمة الله بالإنسان ان ربنا و فر فرصة الكمال في الهداية للبشر.

3- الرحمة . و هي هدف بعث الرسل ، و نعني بها انه ينبغي للناس أن يعيشوا في هذه الدنيا مطمئنين ، و مرحومين لا محرومين ، و قد وفر الله فرصة الرحمة للإنسان إن شاء استفاد منها.

بيانات من الآيات

[74] و إن ربك ليعلم ما تكن صدورهم]

(1)سورة طه / ١٢ .

من نوايا و توجيهات و أفكار.

[وما يعلنون]

و هو أولى بالنسبة لمن يحيط بالسر ، و لعل الآية تشير إلى مخالفة قولهم لنياتهم.

[75] و ما من غائبة في السماء و الأرض إلا في كتاب مبين [ما من شيء يغيب عن أنظارنا أو علمنا و خيالنا إلا و يحيط به كتاب ربنا ، و هو القرآن الذي أودعه الله مفاتيح الغيب و إسمه الاعظم ، و معارف الحياة ، و لكنه خص بعلم تأويله الراسخين في العلم فقال : " ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا " وكان الرسول و أئمة الهدى من أهل بيته هم الذين اصطفاهم و ارتضاهم الرب سبحانه ، و بذلك جاءت نصوص عادية (٢) [٧٦] [إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون] [٧٧] كما أن القرآن يحمل في طياته الهدى و البصيرة.

[و إنه لهدى و رحمة للمؤمنين]

و الهدى هنا بمعنيين : الأول : هو المرحلة التي تعني مجرد فك اللغز ، و الثاني : هو أن تصل الى ما تريد الوصول اليه من المعارف المعنوية ، و من بناء الذات و العروج بالروح الى سماء الإيمان.

فالقرآن سعادة و فلاح - و لكن بشرط أن يفهمه المؤمنون - برنامج عمل ، (١) راجع تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٩٦ .

و منهج حياة ، يحصلوا من خلال تطبيقهم له على السعادة و الرحمة.

و يقضي الرب سبحانه و تعالى بين الحق و الباطل في مواقف شتى:

الف : عند الميزان في يوم الحساب ، حيث آخر الموازين القسط لذلك اليوم و هم لا يظلمون.

باء : عندما يختلف الناس ، و يريدون فض خلافاتهم على أساس عادل يجدون القرآن الكريم الذي هو القضاء الفصل ، كما يجدون الإمام العادل الذي يفقه الكتاب و يحكم به و قد استحفظ كتاب ربه.

جيم : عندما يقضي بهلاك الباطل و نصره الحق . و لا راد لقضائه سبحانه.

[إن ربك يقضي بينهم بحكمه و هو العزيز العليم]

[79] و ما دام الامر كذلك ، فلا تخشى أحدا:

[فتوكل على الله إنك على الحق المبين]

مادام الحق ينصر ، و أنت على الحق ، فتوكل على الله ، و ثق بالنصر و الغلبة.

[80] و لا تأبه بجحود المعاندين ، و ما عليك الا البلاغ.

[إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين] يستحيل أن يسمع الإنسان ميتا النداء ، ليس لإشكال فيه بل لأن الميت فاقد لجهاز الاستقبال ، وقد قال الشاعر:

لقد أسمعتم لو ناديت حيا و لكن لا حياة لمن تناديا
الأصم الذي لا يسمع فانه قد يفهمك من خلال
حاسة البصر ، عبر الاشارات و بعض حركات الفم ، أما اذا أدبر فكيف يفهم ما تقول له ؟!

[81] وهؤلاء الذي لا يستقبلون كلامك - أيها الرسالي - ينبغي أن لا يؤثروا عليك ، فتصاب برودة فعل أو تشكك في خطك و رسالتك ، لأن الإشكال الحقيقي فيهم ، حيث أنهم لا يملكون جهاز استقبال.

[و ما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون] الذي أسلم نفسه للحق ، و هيأها لاستقبال الهداية يمكن أن يستمع إليك ، لا الذين عميت بصائرهم ، و ماتت قلوبهم.

وكل أتوه داخرين هدى من الآيات

ربما تلخص لنا الآية الاخيرة من هذا الدرس مفهوم السورة كلها ، فهي من جهة تعرفنا بالله سبحانه ، و باسمائه الحسنى ، مما يثير فينا الإحساس بالحمد ، فتجري على ألسنتنا كلمة الحمد عفويا و دونما تكلف ، و نحن لا نستطيع إلا ذم أنفسنا التي اختارت الشقاء ، أما ربنا فإنه يستحق الحمد بكل تأكيد ، فقد خلق الكون برحمته ، و أجرى فيه سننه ، كما أجرى في قلوبنا تيارا من العقل و العلم و الإرادة لكي نستفيد مما في الحياة من سنن.

و لكن تبقى مشكلتنا نحن الذين لا نستفيد من تلك السنن ، ولا من هذا التيار الخير ، ولذلك فإن سنة إلهية أخرى سوف تقضي علينا و هي سنة الجزاء التي يؤكدنا هذا الدرس.

و حينما يفسد الناس فلا يبقى فيهم من بركات الرسالات الإلهية شيء ، فينتشر الفساد في الارض ، ولا يبقى إلا لكع ابن لكع ، كما قال الرسول (ص) أنتذ يحين موعد الساعة ، و تقوم القيامة ، و التي من علاماتها و أشراتها خروج دابة من الارض تكلم الناس ، الذين يحشرون يومها على صورة مجاميع ، طبيين و خبيثين ، فنشهد على الخبيثين بأنهم معرضون عن آيات الله كما يشهدون على أنفسهم ، فيبدأ الحساب ثم الجزاء.

و يلاحظ أن القرآن يذكرنا بحكمة الله عندما يتعرض لذكر القيامة و يوم البعث ، فما هي العلاقة بين ذكر الآخرة ، و التذكرة بحكمة الله ؟

إننا عن طريق الإيمان بحكمة الله لما نراه من آثارها في كل أجزاء الكون ، نؤمن بالآخرة ، فما دام لكل شيء غاية ينتهي إليها ، إذن فلا بد أن يكون خلق الانسان لهدف ما ، و لو فكرنا لوجدنا انه البعث بعد الموت.

ثم يحدثنا ربنا عن بعض آثار الحكمة في الخلق ، فلو نظرنا الى الجبال لظننا أنها ساكنة لا تتحرك بينما هي تمر في حركتها كالسحاب ، و الذي يخلق عالما بهذه الدقة المتناهية ، هل خلقه بعلم أم بجهل ؟!

بالطبع خلفه بعلم ، فهو يعلم أيضا ما نعمله نحن البشر.

ثم تستعرض الآيات بعض مشاهد يوم القيامة ، و تشير إلى جزاء المحسنين الذين يؤمنهم الله من فزع ذلك اليوم - الذي لا يستثنى أحدا غيرهم - أما الكفار فإنهم يلقون على وجوههم في جهنم خالدين.

و يخبرهم الرسول (ص) بأن الله أمره بأن يعيده و هو رب مكة الذي حرمها و له كل شيء ، و أن يتلو القرآن (الذي كفاه هاديا) فمن أهدى فلنفسه ، و من ضل فعليها ، و ليس الرسول (ص) وكيفا عنه ، إنما هو نذير ، و الحمد لله أبدا.

و يختم السورة بإنذارهم بالآيات التي سيريمهم ، و يبدو أنها آيات العذاب.

بينات من الآيات

[82] و إذا و قع القول عليهم]

أي أنتهى أجلهم ، و صار يوم الجزاء .

[أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون]ولأنهم لم يؤمنوا تم القضاء عليهم قضاء مبرما ، و هذا هو بيان المحكمة الإلهية الذي تقرأه الدابة.

و لقد اختلف المفسرون في معنى الدابة على قولين:

الأول : إن الدابة التي تكلم الناس حيوان يختلف عن سائر الدواب ، كأن يكون رأسها رأس فيل ، و جسدها جسد وحيد القرن.

الثاني : إن الدابة إنسان ، فكل ما يدب على الأرض يسمى دابة في اللغة ، و كلامها مع الناس يؤكد هذا المعنى ، إذ لا يتكلم من الدواب غير الإنسان ، و قد أكد الله سبحانه في كتابه هذا المعنى في موضعين ، إذ قال - عز من قائل " - إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " و قال تعالى : " إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون " (١) و نقل بعض المفسرين رواية مأثورة عن عمار بن ياسر (رض) : أن المراد بهذه الدابة هو الامام علي (ع) الذي يخرج الله حيا من (١) الانفال / ٢٢ - ٥٥.

بعد استشهاده ، فيقرأ على الناس بيان انتهاء الدنيا ، و بداية عهد الآخرة ، و أن وعد الله حق ، إلا أن أكثر الناس لا يؤمنون ، إلا بعد فوات الأوان.

قال أبو بصير ، قال أبو عبد الله (ع) :

"انتهى رسول الله (ص) إلى أمير المؤمنين (ع) و هو قائم في المسجد ، قد جمع رملا و وضع رأسه عليه ، فحركه برجله ، ثم قال : قم يا دابة الارض ، فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله أيسمي بعضنا بعضا بهذا الاسم؟! فقال : لا و الله ما هو إلا له خاصة ، و هو الدابة الذي ذكره الله في كتابه ، فقال عز وجل : " و اذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " ثم قال : يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ، معك ميسم تسم به اعداءك " (١)

و على هذا فهذه الآية تشير إلى الرجعة ، حيث تتطافر أحاديث آل البيت أن هناك قيامة صغرى قبل القيامة الكبرى ، و في ذلك اليوم يبعث بعض المجرمين و بعض الصالحين ، و على هذا فالآية التالية تشير أيضا الى هذا اليوم.

[83] و اذا قامت القيامة الصغرى حشر الله من كل أمة فوجا من مجرميها ، يخرجهم إلى الدنيا قبل

غيرهم ، ليشهدوا على أنفسهم ، و يشاهدوا جرائمهم ، و تكذيبهم بآيات الله .

[و يوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون] [٨٤] و هناك تجري محاكمتهم:

(1) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٩٨ .

[حتى إذا جاء و قال أكذبتهم بآياتي و لم تحيطوا بها علما ماذا كنتم تعملون]من الأخطاء التي يقع فيها البشر ، هو تكذيبهم بالحقائق لأنهم لم يحيطوا علما بجوانبها المختلفة ، كالذي لا يؤمن بوجود منطقة في العالم إسمها أمريكا اللاتينية ، لأنه لم يعرف تفاصيل الوضع هناك ، هذا هو حال الكفار الذين كذبوا بالآخرة لعدم إحاطتهم بجوانبها المختلفة ، و معنى الآية : أكذبتهم بآياتي دون أن تحيطوا بها علما ، أم كنتم تعملون عملا آخر غير التكذيب؟! كلا .. إنكم كنتم مشغولين بالتكذيب حتى صار شغلكم الشاغل ، و الآية بهذا المعنى تتشابه و قوله سبحانه : " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و لما يأتيهم تأويله " (١)

[85] و جرى قضاء الله سبحانه فيهم بالعذاب بسبب ظلمهم ، و لم يحتجوا على ذلك لعدم وجود حجة بالغة لهم.

[و وقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون]

اذ لا يجدون عذرا ولا منطقا يخلصهم من المسؤولية ، لأن الله محيط بكل شيء ، و له الحجة البالغة ، حيث تشهد أيديهم وجوارحهم عليهم ، وإذا كان الإنسان يستطيع المراوغة و التكذيب في محاكم الدنيا فهو لا يستطيع ذلك في الآخرة.

[86] و من احتجاجات الله عليهم أنه يقول لهم : هل كانت الآيات و الدلالات على الإيمان قليلة أو غامضة حتى كفرتم؟!]

[ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه و النهار مبصرا](١) يونس / ٣٩ .

و كل ذلك من آثار حكمة الله التي تدلنا على الآخرة ، و تبعث فينا الإيمان بها لو كنا نريد الإيمان ، فلو كانت الحياة كلها ليلا أو العكس لاستحالت الحياة.

[إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون]

إن في اختلاف الليل و النهار ، و ما يحملانه من تغيرات هائلة في الطبيعة ، و تدبير تصريفهما بتلك الدقة المتناهية ، إن في ذلك علامات تشهد على الحقيقة ، إلا أن القلوب القاسية لا تستفيد منها شيئا.

[87] و مع أن الآيات واضحة و تكفي دلالة للإنسان على الآخرة و البعث ، إلا أن أكثر الناس يأتي إيمانهم متأخرا حين تقع القيامة ، و هل ينفع ذلك الإيمان إذا ضيعنا فرصة العمل في الدنيا؟!]

[و يوم ينفخ في الصور ففرع من في السموات و من في الأرض]و يبقى المؤمنون مطمئنة قلوبهم ، فلماذا يخافون و قد عملوا بمرضاة الله ، و استعدوا لهذا اليوم؟! إنهم على العكس من ذلك ينتظرون ساعة الجزاء ، و دخول الجنة ، و لقاء الله.

[إلا من شاء الله و كل أتوه داخرين]

خاشعين ، مطأطين رؤوسهم.

[88] [لقد بين الله لنا آية من واقع الليل و النهار تدلنا على حكمته ، و الآن يضرب لنا من حركة الارض آية

على أنه خبير بما يعمله العباد.

وهذه من آيات القرآن الحكيم أنه يبين لنا حركة الارض من قبل أن يكتشفها البشر ، و ضرب مثلا رائعا لها حين شبهها بحركة السحاب التي قد لا يحس بها البشر ايضا.

[و ترى الجبال تحسبها جامدة و هي تمر مر السحاب]

في حركتها ، و لكننا لا نشعر بذلك .

[صنع الله الذي أتقن كل شيء]

فهو يؤدي وظيفته على أكمل وجه ، و بلا أي خلل.

[إنه خبير بما تفعلون]

[89]الاتقان المتجلي في الخلق يدلنا على حكمة الصانع ، و أن للانسان هدفا يحاسب عليه ، فإما ينتهي إلى الجنة أو إلى النار.

[من جاء بالحسنة فله خير منها و هم من فزع يومئذ آمنون]المؤمنون الذين تكون مجمل أعمالهم حسنة يحسون بالاطمئنان يوم الفزع ، و ذلك بسبب طاعتهم لله - الذي تطمئن القلوب بذكره - و أول ما يخرج المؤمن من قبره يوم البعث يجد على يمينه و شماله ملكين يسلمان عليه ، و يفرغان السكينة في روعه ، كما أن الله يجعل للمؤمنورا في جبهته من نور أعماله الخيرة ، يضيء له في المحشر.

[90] و في المقابل نجد الكافر و المنافق يتخبطان في الظلمات فلا يبصران الطريق.

[ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار]

وهذا المصير ليس بظلم من الله - حاشاه - بل هو نتيجة أعمالهم ، لذلك يأتيهم النداء و هم يتجرعون العذاب مؤكدا على أنه جزاء عادل لأعمالهم.

[هل تجزون إلا ما كنتم تعملون]

[91]ثم إن ربنا سبحانه ذكرهم بالنعمة التي كانوا يرفلون فيها ، و أنه هو الذي أسبغها عليهم ، وهي نعمة الأمن في الحرم المكي ، فقال:

[إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها]

و ليس الأصنام التي وضعت فيها.

[و له كل شيء]

فهو ليس رب البلدة و حدها ، بل رب كل شيء.

[و أمرت أن أكون من المسلمين]

إن من علامات الرسول و آياته كما من أهم واجباته أنه يطبق القيم التي جاء بها على نفسه ، ثم يأمر الناس بذلك.

[92] كما أن من مسؤوليات الرسول تبليغ الرسالة إلى الناس على أكمل وجه ، أما ماذا يكون بعدها

أيهتدي الناس أو يتمادون في الضلالة فذلك ليس من شأنه.

[وأن أتلاوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه و من ضل فقل إنما أنا من المنذرين] [٩٣] [و قل الحمد لله]

و حينما نحمده فإنما نعكس نظرتنا إلى الحياة بأنها قائمة على أساس الخير ، أما الشر فهو من أنفسنا ، ذلك أن الحمد تنزيه لله بأن خلقه كان حميدا و صالحا.

[سيريكم ءآياته فتعرفونها]

آيات الله تتجلى في كل شيء من حولنا و في أنفسنا ، بينما أكثر الناس لا يرونها ، و لكن الله سيعرف الجاحدين آياته الخارقة بحيث يرونها ، و لكن يومئذ تنتهي فرصتهم ، و تحين ساعة الجزاء.

[وما ربك بغفل عما تعملون]

سورة القصص الاطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم

جاءت كلمة (القصص) إسمًا لهذه السورة التي احتوت على مجموعة متناثرة من القصص القصيرة ذات العبرة المشتركة.

الاطار العام

يد الله فوق أيديهم

هدى من الآيات

تدور آيات السورة كما يبدو من فاتحتها حول السلطات الفاسدة ، و كيفية القضاء عليها ، كما تبحث موضوع الحركات الرسالية التي عن طريقها يبذل الله - سبحانه و تعالى - حاكما ظالما بآخر عادل ، و سلطة فاسدة بأخرى صالحة ، و نستطيع أن نستوحي هذه الحقيقة و بصورة واضحة من الصراع الرسالي الذي قاده موسى (ع) مع بني إسرائيل ضد فرعون بجاهليته ، و المستكبرين من ملئه.

و قبل كل شيء يبين القرآن لنا أن للصراع أداة ايدلوجية ، و عوامل ثقافية ، وان أبرز أدوات الصراع الرسالي الجاهلي ، و أوسع قنواته ، و افضل عوامله المؤثرة في انتصار جبهة الحق هو القرآن الحكيم ، لذلك تبدأ هذه السورة بشارة مبينة الى القرآن ذاته ، و بعدئذيين القرآن أسباب الصراع ، و لماذا ينهض الرساليون ، و يفجرون الثورات ضد السلطات الجاهلية عبر التاريخ ؟

و يجيب القرآن بأن المسؤول الاول عن الصراع هو امام الجاهلية ، و النظام الذي جسده ، فلأن فرعون خرج عن سنة الله ، و علا في الأرض ، و عاث فيها الفساد بشتى الوانه و صورته ، و استضعف طائفة من المجتمع فسلب حقوقهم ، لذلك كله فإنه هو المسؤول عن الصراع و آثاره ، و ليست الحركة الرسالية . اذ لا يمكن للناس ان يسكتوا عن سلطة تضيع في ظلها حقوقهم و حرياتهم ، و الذي يزرع بذور الثورة بظلمه و فساده لا يحق له بعد ذلك ان يتهم الرساليين بالإرهاب و الشغب ، و هكذا تبدأ السورة بالإشارة إلى سبب الصراع و هو فرعون.

ثم يمضي السياق يبين سنتين في هذه الحياة : سنة يرهاها قضاء الله ، و سنة يجريها قدره سبحانه ، فقدر الله في الحياة ان السلطة التي تتمسك بأسباب القوة ، و الاستمرار المادية وهي الإرهاب و الإغراء و التضليل فانها تبقى و تستمر ، و لكن فوق هذه السنة سنة و قانون أعلى و هو قضاء الله ، فالعدالة الإلهية تأبى ان تستمر سلطة جائرة تعتمد على هذا الثالث ، فيأبى الله ذلك و هو العزيز الرحيم ، الذي أجرى الاشياء بالحق ، و خلقه كل شيء لحكمة و هدف . يا ترى هل يدع الناس و هم عياله يسحقون

تحت أقدام الجبابرة؟! كلا..

ان هناك ارادة عليا يعبر عنها القرآن الحكيم في هذه السورة بصورة واضحة حين يقول : " و نريد ان نمث على الذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمة و نجعلهم الوارثين " و لكن كيف تتم هذه الارادة ؟ فهل إرادة انتصار الحق على الباطل تتحقق بحركة كونية تنطلق من النجوم ؟ أو باشاعة مرض قاتل في صفوف المستكبرين ؟

ربما يتحقق ذلك عن هذا الطريق ، و لكن الأكثر أن إرادة انتصار الحق على الباطل التي هي ارادة الله لا تتحقق من خلال العوامل الغيبية فقط ، و إنما على أيدي المؤمنين أنفسهم ، و قبلهم قيادتهم و أمامهم ، لذلك نجد السياق القرآني فور ما يحدثنا عن إرادة الله العليا في الإنتصار ، يبين لنا أن هذه الإرادة . لا تتحقق إلا بتربية قائدرسالي فيقول : " و اوحينا الى أم موسى. "

حينما أراد ربنا إنقاذ بني إسرائيل من هيمنة فرعون خلق قائدا رساليا ، و رعاه منذ الطفولة ، و تدرجت مراحل النصر بعد أن أمر الله أم موسى بأن اقذفه في اليم ، ليحملة الماء الى ساحل قصر فرعون ، فجعل الله تربيته هناك رغم إصرار فرعون على ذبح كل طفل ذكر ، وهكذا تجري سنن الله إلى أن يقضي الله على فرعون و نظامه.

ان موسى (ع) تجل كريم لإرادة الله ، و كان مركز تحقق القضاء الإلهي في ذلك المجتمع ، وإرادته لتحقيق العدالة الإلهية الغيبية ، و تؤكد هذه السورة كما الكثير من سور القرآن على ان هذا القضاء يتحقق بأمرين : احدهما عمل الناس ، و الآخر إرادة الله ، فمن جهة نجد موسى يقبض زمام المبادرة ليتحول إلى إمام للثائرين ضد فرعون و جلاوزته ، و يخوض الصراع ببني إسرائيل و المؤمنين من حوله ، و من جهة أخرى تحوطه العناية الإلهية و ترعاه ، و يمكن لنا القول بأن سنة القدر يجريها الله سبحانه و تعالى ، بينما يرفع سنة القضاء ، و لكنها قد تجري على أيدي الناس أنفسهم.

و هكذا جرى قضاء الله ، بنصر موسى (ع) و من اتبعه باحسان.

بينات من الآيات

و نجعلهم الوارثين:

[1-2] [طسم * تلك آيات الكتاب المبين]

ان هذه المقطعات اشارة الى القرآن ، بل هي جوهره ، و بتعبير أفضل هي المادة الأولية التي يتألف منها القرآن الحكيم ، و تكتب بها كلماته ، و هي تحمل في طياتها النور و الهدى ، و هو رموز و إشارات يعرفها اولياء الله ، و لعلها مفاتيح علومالسورة.

[3] و هذا الكتاب سوف يكون ، أداة لنقل التجربة العظمية لكم أيها البشر ، و لك انت يامن تخوض صراع الحق ضد الباطل.

[نتلوا عليك من نأ موسى و فرعون بالحق لقوم يؤمنون] فالحياة قائمة على الحق ، و يجري الحق على كل اجزائها ، و لكن من الذي يستفيد من هذه القصص ؟

انهم المؤمنون ، فلو لم تكن استجابة للحق من قبل الناس ، فانهم لا يستفيدون من القرآن الكريم ، حتى ولو قرأوه الف مرة ، أو حفظوا آياته حروفا و كلمات.

اذن حتى تستفيد من القرآن يجب ان تؤمن و تسلم له ، و ما دام هذه القصص حقا فلا يجد لها انعكاسا إلا في قلوب المؤمنين الذين يملكون قابلية فهم الحق.

[4] ثم يبدأ القرآن بالحديث عن فرعون رمز الفساد و الباطل:

[إن فرعون علا في الأرض]

لقد استعلى فرعون و سيطر على الناس ، و لكن لم يستفد من السلطة في خير شعبه ولا نفسه ، و في آية قرآنية تاتي في آخر هذه السورة يقول ربنا : " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا و العاقبة للمتقين. "

ان الذي يحب الرئاسة و السيطرة ، و يتحول الحكم عنده من وسيلة إلى هدف ، فإنه ينشر الفساد ، و كم من الجرائم وقعت في التاريخ ، ولا زالت على مذبح حب الرئاسة.

ومن طرائف التاريخ : ان الامام موسى الكاظم - عليه السلام - دخل يوما على الرشيد ، فأجله و احترمه بصورة أدهشت الجالسين حوله ، و لما أراد الإمام أن يقوم من مجلسه ، قام الرشيد و أقبل على الامين و المأمون قال : يا محمد و يا إبراهيم ! سيروا بين يدي عمكم ، و سيدكم ، و خذوا بركابه و سووا عليه ثيابه.

فاستغرب المأمون من أبيه هذا الصنيع ، فسأله عن سبب هذا الإحترام و التقدير ، فقال الرشيد : يا بني انه صاحب الحق ، فقال له المأمون : اذا كنت تعلم ذلك فرد عليه حقه ، فنظر اليه والده و قال : الملك عقيم ، و الله لو نارعتني الذي انا فيه لأخذت الذي فيه عينك.

و هذه صورة من التاريخ عن الانسان حينما يضحى الحكم عنده هدفا ، فهو يتشبت به حتى لو خالف العقل و الشرع في وسائله اليه للوصول ، و فرق كبير بين الذي يريد الحق و الآخر الذي يريد العلو و التسلط.

و فرعون كان يريد العلو ، لذلك أفسد في الأرض ، و أعظم افساده التمييز الطائفي ، حيث جعل فريقا من الناس متسلطا على الفريق الاخر ، ويبدو أن هذه طريقة كل نظام فاسد و هو تقسيم الناس إلى فريقين ، فريق يحكم و فريق يستضعف ، و قد يكون هذا التقسيم على أساس طائفي ، أو عنصري ، أو حزبي أو غيرها ، حيث تتعدد الصور ولا يختلف الجوهر ، و هو صنع أداة للسلطة الفاسدة يتحكم بها الطاغوت على الناس.

[و جعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم]

إذا كانت الأمة متحدة ، فان الطاغوت لا يستطيع التسلطة عليها ، لذلك سعى فرعون لتفريق بني إسرائيل أحزابا ، عملا بالقاعدة الجهنمية (فرق تسد) التي هيأداة السلاطين في جرائمهم ، إلا أن فرعون لم يكتف بالتفرقة وحدها ، و إنما أضاف لها سياسة أخرى هي الارهاب.

[يذبح أبناءهم]

لو كان فرعون يذبح الاطفال الرضع الذين عادة ما تكون عواطف البشر مركزة فيهم . في هذا البرعم الصغير ، و في هذه البراءة النقية.

لكن الذي يريد السلطة ، تتبلد مشاعره و يموت فيه الضمير.

[و يستحي نساءهم]

أي يبقين أحياء للخدمة في البيوت .

[إنه كان من المفسدين]

هذا هو الفساد و الذي يلخصه القرآن في ثلاثة أمور:

- 1التفرقة ، و بالتالي تحطيم الكيان الإجتماعي الموحد.

- 2القضاء على النفوس البريئة.

- 3الاستثمار الطاقات البشرية بطريقة غير مشروعة.

وهذه سنة القدر ، أن يأتي فرعون ، و يستخدم هذه الوسائل المنكرة في تدعيم نظامه و هي : افساد المجتمع بعدم وحدته ، و الإخلال بالأمن ، و تحطيم أسس الإقتصاد.

[5] [و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض و نجعلهمأئمة]

ان يشافى بسبب الطبيب مريض أمر معروف ، أما أن يدعي بأنه سوف يجعل هذا المريض الذي يرتجف من مرضه أقوى رجل في العالم ، فذلك أمر مستبعد ، و القرآن يقول إن إرادة الله لا ترفع عن المستضعفين استضعافهم و حسب ، بل تجعلهم أئمة وقادة للبشر ، و هذا هو الهدفالأسمى لحركة التاريخ.

انهم سوف يغنمون كل ما لدى المستكبرين من نعم ، و رياض ، و أمتعة.

[و نجعلهم الوارثين]

[6] [و حينما يصل المستضعفون الى السلطة فإنهم يتمكنون في الأرض ، و يثبتون سلطتهم ، و ذلك حينما يقتلعون جذور الفساد ، و يبنذون المستكبرين في العراء كما فعل الله بفرعون و ملئه.

و من حقائق التاريخ : أن الأقباط الذين تحكموا في بني إسرائيل ، ظلوا محكومين إلى يومنا هذا ، و لم ترجع السلطة مرة أخرى اليهم أبدا.

[و نمكن لهم في الأرض و نرى فرعون و هامان و جنودهما] و سائر المستكبرين على مر العصور.

[منهم]

أي من المستضعفين.

[ما كانوا يحذرون]

حينما يصل المستضعفون إلى السلطة فسيذيقون المستكبرين العذاب الشديد ، و سيرون منهم كل ما كانوا يحذرونه.

أنا رادوه و جاعلوه من المرسلين:

[7] [و لكن كيف يتم ذلك ؟

يتم عندما يوجد إمام و قائد رسالي ، يتحمل المسؤولية ، و يفجر الثورة في الجماهير ، لننظر كيف أنبت الله شجرة هذا القائد الكريم في أرض صالحة.

[و أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم و لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين] لقد سبق الذكر بأن قضاء الله بغلبة المستضعفين ، و اندحار المستكبرين يتحقق غيبيا و بشريا ، أما غيبيا : فان الله لم يرسل رجلا من وزراء فرعون ليقوم بانقلاب عسكري ، مع

انه ممكن عند الله ، بل أرسل طفلا من بني إسرائيل ، في ظروف كان فرعون يذبح الأبناء فيها. و كيف أرسله ؟

أوحى الله إلى أمه أن تلقيه في اليم ، ليتربى في قصر فرعون ، و انتهى هذا الأمر بانتصار بني اسرائيل على فرعون بسببه ، و أساسا كلمة (موسى) في اللغة العبرية تعني ابن الماء و الشجر (فمو) : تعني الماء (وشي) : تعني الشجر.

ان هذا الولد الذي لا يملك شيئا هو الذي يحطم سلطة الطاغوت.

وأما بشريا : فالله لم يرسل الملائكة ، ولا الرياح لتقضي على فرعون ، بل أرسل بشرا فائدا هو موسى (ع.)

[8] و بالفعل استجابت أم موسى الى وحي الله ، كما وألقت بإبنها في اليم الذي حمله الى سواحل قصر فرعون.

[فالتقطه ءال فرعون ليكون لهم]

في المستقبل:

[عدوا]

ينهض ضدهم و يقود المعارضة ، و إنما يكون عدوا لهم لأنه يحمل قيم الحق التي تتناقض و نهجم الباطل و المنحرف.

[وحزنا]

يسبب لهم القلق الشديد ، و سوف يأخذهم الأسف على قرارهم بعدم ذبحه ، و هكذا نجد الأمور تسير كما يشاء الله - بإرادته - لا حسب ما يريد الفراعنة ، فهم التقطوا موسى ليكون لهم ولدا ، بينما أراد الله أن يجعله عدوا ، و ارادوه انه يدخل السرور على فرعون الذي ربما كان يقلقه عقمه ، فجعله الله حزنا و مصدرا للقلق بالنسبة اليهم.

و نجد لهذه الإرادة صورا هنا و هناك حينما نقلب صفحات التأريخ على الحقائق.

[إن فرعون و هامان و جنودهما كانوا خاطئين]

الظلم خطأ لا تقتصر آثاره على المحرومين و حسب ، بل تطال الظالم نفسه.

[9] فلقد احضروا موسى إلى فرعون ، فلما عرف انه من بني اسرائيل - اذ كانت ملامحهم واضحة - قال : خذوه و اقتلوه.

[و قالت امرات فرعون قرت عين لي و لك]

الحق يتجسد مرة في امرأة هي أم موسى (ع) و مرة أخرى في امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم) حيث أصرت على فرعون الا يقتله ، و استجاب لها فعلا:

[لا تقتلوه عسى أن ينفعنا]

عندما يكبر.

[أو تتخذه ولدا]

فقد كان فرعون عقيما ، ليس له ولد .

[وهم لا يشعرون]

ولا يحسون بقدر الله و قضاؤه في مستقبل هذا الطفل ، الذي يريدونه ولدا لهم ، هم يخطون لهدف ، بينما يجعله الله أماما يزيل سلطانهم على يديه ، و أيدي المؤمنين تحت قيادته.

فلن اكون ظهيرا للمجرمين هدى من الآيات

يذكرنا هذا الدرس بجانب مهم من سيرة الانبياء (ع) حيث الصراع المستمر بين الرسالة الإلهية و اتباعها من طرف ، و الجاهلية المادية و مؤيديها من طرف آخر ، و الذي تحسمه الإرادة الالهية لصالح جبهة الحق ، الا أن ذلك لا يعني ان الغيب يحرك مراحل الصراع مباشرة، بل انه قد يمضي سننه عبر إرادة الانسان و نشاطه ، و من هذا المنطلق يتعرض السياق في هذه الآيات لدور الانسان ، المرأة و الرجل.

و الدور الهام الذي قامت به أم موسى (ع) يؤكد دور المرأة في الصراع الرسالي الجاهلي ، كأم ، و زوجة ، و كشحنة عاطفية ، و هذه قضية أساسية و هامة.

فمن جهة نقرأ عما قامت به أم موسى في تأسيس هذا الصراع و انطلاقه ، و ما قامت به أخته من تتبع مصيره ، و من جهة أخرى تحدثنا الآيات عما قامت به زوجة فرعون من عمل حافظت به على حياة هذا القائد . اذ اشارت على زوجها بالابقاء على موسى (ع) حيا ، و بالرغم من اختلاف الأدوار ، إلا أنها تلتقي في نقطة واحدة هي مساهمة المرأة في الصراع.

وهذه المساهمة لا تقتصر على الأدوار الجانبية ، بل نجدها في صميم المسؤوليات الخطيرة ، فأم موسى (ع) وان كانت مؤمنة و ملتزمة بالأمر الإلهي إلا أنها كأم كانت لها عواطف الأمومة ، فكيف تقبل ان تلقي بولدها - الذي عملت المستحيل حتى لا تصل اليه يد السلطة - في اليم لتبتلعه أمواجه الغاضبة ، خاصة وان المرأة مهياة نفسيا و جسديا للإهتمام برضيعها بعد الولادة ، فكل اهتماماتها الفطرية و جوانب تفكيرها مركزة نحو ذلك الوليد!

و في البين يذكرنا الذكر بأحد العوامل الأساسية لانتصار الحركات الرسالية في الصراع ، وهو عامل الكتمان و السرية في العمل الرسالي و الذي يبدو بعض الأحيان الأهم في العمل ، فلو أن أم موسى أبدت عواطفها و باحت بسرها ، لتسببت في القضاء على الحضارة التي أسسها و ليدها المبارك ، و لهذا قال الامام الصادق (ع):

"كتمان سرنا جهاد في سبيل الله" (١)

ثم تذكر الآيات بدور عامل آخر في الانتصار ، و هو عامل البحث و التحقيق ، و حسب التعبير الحديث التجسس ، فالحركة الاسلامية و ان كانت حركة إلهية إلا أن عليها التسلح بكل العوامل المشروعة التي تقرب اليها النصر ، كعامل التجسس لمعرفة خطط النظام الفاسد و الواقع المحيط ، ثم تستفيد من ذلك في تحركها ، و من هذا المنطلق أمرت أم موسى (ع) اخته ان تقص أثره ، و تتعرف على مصيره ، فمشيت خلفه حتى رسى على مقربة من قصر فرعون ، فالتقطه آل فرعون ، و اجتمعوا حوله (١) بحار الانوار / ج ٧٥ / ص ٧٠.

يتشاورون ، وهنا تدخل الغيب لإنقاذ موسى (ع) ولكن بعد أن هيات أمه الظروف المناسبة ، و بذلت قصارى جهدها ، إذا استجاب لنداء الوحي ، و صبرت على فراق وليدها ، كما أرسلت اخته خلفه ، فأعاده الله إليها ، و لكن كيف ؟

لما حرم الله على موسى المراضع ، و ألقى محبته في قلبي فرعون و زوجه ، و جعلهم يستجيبون
لاقتراح أخته بان تدلهم على مرضعة يقبلها هي أمه.

و فعلا تحركت اخته لتخبر أمها بالامر ، وجاءت أم موسى (ع) صابرة متجلدة ، و ملتزمة بكامل السرية ،
فارتضت موسى منها ، و عاد إليها سالما كما وعد الله ، و الدرس الذي نستفيدة من هذا الحدث هو : ان
الرساليين لو صبروا و التزموا بالمنهج السليم ، الذي يرسمه لهم الله عبر آياته و وحيه ، و هدى عقولهم
فان الله سينصرهم كما وعد ، و من أصدق من الله قبيلا ؟!

و في آخر الدرس نجد صورة من الصراع بين المستضعفين و المستكبرين.

بينات من الآيات

فرددناه إلى أمه:

[10] و أصبح فؤاد أم موسى فارغا]

افرغته من كل اهتمام وانصب تفكيرها على مصير ولدها الصغير ، وهكذا يكون الانسان حينما يواجه
مشكلة أو أمر هام في حياته ، و يقال : فارغا أي مهموما و حزينا ، و ربما فسرت الآية " فإذا فرغت
فانصب " أي إذا حزنت و غممت ، و هذا التفسير يتناسب و موضوع سورة الإنشراح.

[إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها]

أي أعطيناها الصبر و المقدرة على كتمان السر.

[لتكون من المؤمنين]

و القرآن يبين في هذا المقطع من الآية أهمية الكتمان في انتصار الثورات ، و كيف أنه شرط الإيمان . اذا
لو أبدت أم موسى مشاعرها تجاه ولدها اذن لما كانت من المؤمنين.

و في الحديث عن الرسول (ص):

"استعينوا على أموركم بالصبر و الكتمان" [١١] و بعد أن القت أم موسى (ع) بوليدها لم تترك الأمر
هكذا تنتظر وليدها حتى يعود إليها ، بل أمرت أخته أن تلحق بالتابوت ، و لكن بسرية تامة.

[و قالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب و هم لا يشعرون] حتى لا تكون العلاقات بينهما و بينه واضحة
، فلا يقبل منها اقتراحها بأن تدلهم على من يرضعه مثلا ، لو عرفوا أنها أخته ، وربما يقتلونه.

[12] و هكذا عملت أم موسى كل ما في وسعها ، فكان ذلك تهيئة لتدخل الإرادة الإلهية في الأمر ، أما
لو كانت تنتظر كل شيء ، يأتي من عند الله ، دون أن تقوم هي بدور معين ، فلربما لم يرجع لها وليدها ،
لأن سنة الله في الحياة قائمة - في التغيير - على السعي منجها الإنسان نفسه اولا " ان الله لا يغير ما
يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (١)(١) (الرعد / ١١)

[و حرمننا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم و هم له ناصحون] و كلمة
" يكفلونه لكم " تدل على أن اخت موسى حاولت جهدها أن تخفي علاقتها به أمام الآخرين ، فلم تقل
أنه أخوها ، بل ملكته فرعون بكلمة " لكم " كما نستفيد من الآية الشريفة أهمية المتابعة للأعمال و
القرارات الرسالية حتى لا تموت في الأثناء ، بل تظل يد الرساليين ترعاها . لحظة بلحظة إلى أن تصل
الى نهايتها.

ان موسى الذي حرم الله عليه المراضع ربما كان يموت جوعا و عطشا لو لم تتدارك أخته الأمر بالمتابعة ،

و على أحسن الأحوال يصبح مصيره مجهولا عندهم.

[13] في آية سابقة قال تعالى:

"و أوحينا الى أم موسى ان ارضعيه فأذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك و جاعلوه من المرسلين" وفي هذه الآية يقول:

[فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن]

تطمئن ، و يذهب عنها الخوف و الوجل .

[و لتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون]

الآية الاولى تبين أن هناك وعدا من قبل الله ، أما الثانية فهي تشير الى تحقق هذا الوعد و هنا نستفيد أمرين:

1- صحيح ان الله يعد المؤمنين بالنصر و لكنه يطالبهم بالعمل لا ان يكونوعده لهم مدعاة للكسل ، و التوقف عن العطاء و السعي ، بل منطلقا للسعي الحثيث و الجهاد.

ان أم موسى أعطت من جهدها المادي و المعنوي حتى تكون أهلا لوعد الله.

2- حينما يعد الله بشيء ما يجب ان نطمئن الى وعده ، فهو تعالى لن يخلف وعده ، و لماذا يخلف وعده و هو القوي العزيز ، الحكيم القاهر؟! فلا يعجزه شيء ، و هو الصادق ، و من أصدق من الله قولا؟! و

لو كان الناس يعلمون بان وعد الله حق ، و يتحسسون بامل الانتصار لما تسلط عليهم الطغاة أمثال فرعون ، لكن مشكلتنا هو ضعف اعتقادنا بالله ، فاذا بأحدنا يقول : و ماذا استطيع ان أعمل ، و أغير مقابل هذا الارهاب ، والنظام القائم ، و أنا شخص واحد ؟ بلى .. الله يؤيدك و يسدد خطاك.

ان الثقة بنصر الله ، و التوكل عليه هو وقود الحركة ، و الذي يفقده يفقد كل شيء.

و كذلك نجزي المحسنين:

[14] لقد عاد موسى كما وعد الله الى أمه ، و ترعرع في حجرها.

[و لما بلغ أشده]

صار بالغا من الناحية الشرعية بتكامله العضوي.

[و استوى]

تكامل عقله.

[ءاتيناه حكما و علما]

حيث صار نبيا ، و ليس رسولا.

[و كذلك نجزي المحسنين]

ليس هناك قرابة بين الله و موسى حين اعطاه النبوة ، و إنما استحقها موسى بعمله و احسانه و كل انسان يعمل من اجل الآخرين يجازيه الله خيرا ، و هذه الحقيقة نجدها في التاريخ و بالذات في تاريخ الانبياء ، بل و في حياتنا اليومية أيضا ، كما أن أفضل ما يتعبد به الإنسان ربه ، و يستدر به رحمته هو الإحسان للناس.

و هذه الآية نجدها في أكثر من موضع من القرآن الحكيم ، ففي سورة يوسف يقول تعالى : " ولما بلغ أشده آتياه حكما وعلما و كذلك نجزي المحسنين " و نحن يمكننا أن نجرب هذه الحقيقة : لنحسن الى الناس ، ثم لننظر كيف يعاملنا الله . إن الصدقة تزيد في العمر ، و تدفع البلاء ، و تزيد في المال حتى لو كانت الصدقة هي أمانة الأذى عن الطريق ، أو مساعدة الأعمى و الطفل على عبور الشارع ، اذ ليس شرطا ان تكون الصدقة مالا.

ان أي خدمة يقوم بها الإنسان للآخرين يجد جزاءها سريعا فكيف إذا كرس حياته من أجل خير الناس و صلاحهم . ان الأنبياء لا يفكرون في مصالحهم الشخصية في الدنيا ، و انما يفكرون في خير الناس و مصلحة الرسالة التي يحملونها ، و نقرأ في سيرة نبينا الأكرم محمد (ص) : أنه عندما حضرته الوفاة ، و جاءه ملك الموت ليقبض روحه سأله ملك الموت : و هل تلقي أمتي أذى في مثل هذا الامر فاجابه : بلى و لكن الله أمرني ان اقبض روحك بأسهل ما يكون فيه قبض الروح ، قال له رسول الله (ص) :

"شدد علي و خفف على أمتي "

و هذه سنة الأنبياء ، كما يجب ان يكون هذا ديدن من يسير على خطهم في الحياة.

[15] و من علامات إحساس موسى (ع) انه كان يبحث عن الخير ، ولا يبالي بعدها بما يمكن أن يجره ذلك عليه من اذى إذا كان يرضي الله ، لقد كان يبحث عن المحرومين حتى ينتصر لهم.

[و دخل المدينة على حين غفلة من أهلها]

والذي يحمل قضية رسالية حينما يدخل بلدا يسيطر عليها الطاغوت بالخصوص . اذا كان يريد القيام بعمل كعملية عسكرية ، أو توزيع منشور ، أو عملية استطلاع و تجسس يجب ان لا يكون سادجا بل حذرا نبها ، و يختار الوقت الأنسب الذي يعينه في إخفاء نفسه ، و كتمان أمره، و ربما كان دخول موسى للمدينة ليلا أو في اول الصباح ، وربما كان في مناسبة انشغل بها ألام النظام عن الوضع.

[فوجد فيها رجلين يقتتلان هذامن شيعته و هذا من عدوه] بسبب ما قامت به الحركة الرسالية من أعمال سياسية وثقافية ، و ربما ميدانية في عملية الصراع بينها و بين فرعون حينذاك ، استطاعت أن توجد في المجتمع تيار مناهضا للسلطة ، بل و أكثر من ذلك أن ترفع مستوى الصراع بين تيارها و التيار الآخر الى حد المواجهة المباشرة ، و من أهم مسؤوليات و واجبات الحركة الرسالية حين تصعد بمستوى جماهيرها في الصراع ان تسيطر على الساحة حتى لا يكون للصراع مردود سلبي على خططها و تحركها.

و يبدو من الآية الكريمة : ان موسى (ع) منذ البداية كون الحركة الرسالية ، فكان له حزب و شيعه ، حيث استطاع ان يجمع شمل بني اسرائيل تحت لوائه ، و يتصدى للنظام الطاغوتي.

و ربما يكون معنى يقتتلان يتضاربان ، و لكن ظاهر الأمر يدل على أن أحدهما يريد قتل الآخر.

[فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه]

و أمام هذه الإستغاثه وجد موسى (ع) نفسه مضطرا للدفاع عن الذي من شيعته . لهذا بادر لدفع ضرر القبطي.

[فوكزه موسى ففضى عليه قال هذا من عمل الشيطان]

الفرد الرسالي يريد الخير لحركته و شيعته ، و لكن لا يعني ذلك أنه يريد الانتقام من الناس ، و قد يصل الأمر أن يقوم الرساليون بحرب فدائية و لكن عن اضطرار و ليس بهدف التخريب أو الارهاب ذاته ، بل لإزالة العوائق التي تعترض طريقهم.

لهذا قال موسى (ع) حينما وقع القبطي ميئا : " هذا من عمل الشيطان . "

يقصد بذلك العمل الذي دعى هذين (الاسرائيلي و القبطي) للاقتتال ، واذ ضربته فانما للدفاع عن المظلوم و المستضعف ، و قد قال بعض المفسرين : ان سبب الاقتتال هو محاولة القبطي تسخير الإسرائيلي ليحتمل شيء بلا أجر.

و عندما قتل موسى القبطي و لم يكن يريد قتله ، بل ردعه قال:

[إنه عدو مذل مبین]

[16] لقد انتصر موسى على عدوه الا أن ذلك لم يدعه للإغترار بهذا النصر ، بل أراد أن يقتل الغرور الذي عادة ما يصيب المنتصرين ، و ذلك عبر الإستغفار ، و اتهام النفس بالتقصير ، و ربما لذلك أمر الله رسوله محمد (ص) بالإستغفار بعد النصر . اذ قال : " اذاجاء نصر الله و الفتح * و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابا . "

و هنا نجد نبي الله موسى (ع) (يستغفر الله بعد انتصاره على عدو الله و عدوه.

[قال رب إنني ظلمت نفسي فأغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم] و جاء في التفاسير : ان موسى (ع) قد اخطأ فعلا بدخوله المدينة ، حيث كان لا يزال في طور الإختفاء ، لأن فرعون كان قد علم بانه يخالفه ، و قد اجتمع اليه شيعته من بني إسرائيل فهم بقتله ، فلما دخل المدينة على حين غفلة كان ذلك خطأ منه استغفر الله منه ، و معنى المغفرة هنا ان يستر عليه الله سبحانه.

و قد روي مثل هذا التفسير عن الامام الرضا (ع) (١) و نستوحي من هذا التفسير مدى أهمية الكتمان في العمل الرسالي .

[17] ثم عاهد الله ان لا يستخدم القوة و العلم و الحكمة التي وهبها الا من أجل الخير و في سبيل الله و الدفاع عن المستضعفين.

[قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين]

و كانت هذه الحادثة بالإضافة إلى مواقف أخرى سبقتها ، أدت بموسى الى الهجرة عن بلده ، لتبدا الحركة الرسالية مرحلة جديدة من الصراع و الجهاد.

(1) راجع نور الثقلين / ج ٤ / ص ١١٩ .

رب نجني من الظالمين

هدى من الآيات

تحدثنا آيات هذا الدرس عن صفات القائد الرسالي الذي يصنع الثورة ، و يقاوم الجاهلية المادية بالرسالة الالهية ، و موسى (ع) الذي قرر ان لا يكون ظهيرا للمجرمين ، بل يكون الى جانب الحق - لم تكن حركته نابعة من عواطف مؤقتة ، ولا من شهوات سلبية ، أو ردود فعل مرتجلة تجاه الأحداث ، و إنما كان ينطلق من مبادئ ثابتة ، و يتحرك عبر مسيرة واضحة المعالم ، فهو يريد أن يحقق العدالة في المجتمع ، بآداء نفسه أولا.

فبعد أن قتل موسى (ع) القبطي ، صار مطلوباً عند السلطة ، فكان ينبغي أن يكون حذراً في مدينة تطالها سيطرة فرعون ، و قد أشار القرآن لهذا الأمر في حديثه عن موسى (ع) و هو يدخل المدينة تارة و يخرج منها تارة أخرى ، أو يمشي فيها فقال : " و دخل المدينة علبحين غفلة من أهلها " فأصبح في المدينة خائفاً يترقب " فخرج منها خائفاً يترقب . "

و هكذا ينبغي للرسالي أن لا يأخذ الأمور بسذاجة عندما يدخل بلاد الطغاة لأداء مهمة ما . ان موسى دخل المدينة ، و خرج منها ، و عاش فيها حذراً ، وبالتالي مستعداً و مخططاً لتصرفاته في شتى الظروف و الإحتمالات .

و بينما كان موسى يمشي في المدينة ، و في هذه الظروف الصعبة ، فإذا بالذي استغاثه بالأمس يستصرخه اليوم ، يريد منه ان يعينه على رجل قبطي آخر ، لكنه هذه المرة تفجر غضبا على الأثنين ، على الاسرائيلي باعتباره يورط الحركة الرسالية في صراعات غير مخطط لها ، قد تنعكس سلباً على خطط الحركة في التغيير ، و يبدو أن الرجل كان ممن تثيره عداواته الشخصية ، فتجره الى مواقف مرتجلة هذا من جهة ، و لكن ذلك لم يمنع موسى من نصرته فلقد هم بالبطش بالقبطي باعتباره ظالماً من جهة أخرى .

ان خطأ الإسرائيلي الذي استحق عليه اللوم لا يكمن في استراتيجيته ، فهو مظلوم يتعرض للإهانة ، و ربما للقتل و من حقه الدفاع عن نفسه و كرامته ، انما يكمن خطأه في اسلوبه ، اذ فجر الصراع في ظرف و وقت غير مناسبين ، و هنا لابد أن نعرف ان من اسباب فشل أي حركة هو اللانضباط الذي من صورته و شواهدة دخول أفراد الحركة في صراعات غير مخططة و بعيدة عن قرار القيادة .

لهذا نهر موسى (ع) الاسرائيلي و قال له :

"قاتلت رجلاً بالأمس و تقاوت هذا اليوم لأدبئك ، و أراد ان يبطش به ، و هو من شيعته " (١) فزعم ان موسى (ع) يريد قتله ، فاتهم النبي (ع) بانه لا يصلح للقيادة ، و أن (١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١١٩ .

هدفه ليس إلا الافساد في الارض ، و التجبر ، و في البين فضح سرا من أسرار الحركة حين أعلن أمام الناس ، ان الذي قتل القبطي بالأمس هو موسى (ع) فانتشر الخبر في المجتمع ، و قررت السلطة ان تنتقم منه (ع) و تجعله عبرة للآخرين .

و يبدو ان الحركة الرسالية كانت ناضجة ، مما جعلها تخترق خاصة فرعون ، و تتعرف على خطط السلطة ، و هذا من اسباب النجاح في العمل ، إذ يمكن الإختراق الحركات من اتخاذ خطط وقائية و مضادة لخطط الحكومات ، و كانت الخطوة الوقائية لموسى (ع) هو قرار الهجرة في سبيل الله .

وهكذا دخلت الحركة الرسالية مرحلة جديدة ، و أسلوباً آخر في العمل الرسالي ، و الهجرة مرحلة أساسية لدى الحركات الرسالية عبر التاريخ ، وهي ذات معطيات هامة على مستوى الفرد و الحركة ، فهي مثلاً تركز الفرد من جهة و تحفظ القيادة و التحرك من جهة أخرى .

و لم تكن الهجرة بالنسبة الى موسى (ع) تعني الهروب من ساحة الصراع و العمل في سبيل الله ، بل كانت فرصة للإعداد الأفضل للصراع و العمل ، حيث كان مستضعفاً و محروماً ، فكان يبحث هنا و هناك عن مستضعف ليعينه ، كما لم ينقطع عن التفكير في جماهيره المغلوب على أمرها .

لهذا نجد القرآن أول ما يحدثنا عن موسى (ع) في دار الهجرة يشير الى انه اول ما قام به هناك هو خدمة الناس ، و الاحسان اليهم . انه لم يقل : يجب اولاً ان انتصر على الطاغوت ، ثم أفكر بعدها في خدمة المستضعفين ، كلا .. فأنت أيها المؤمن ، و أنت في مسيرة بناء الدولة الاسلامية عليك ان تسعى بما أتاك الله من قوة لخدمة الناس ، لأن ذلك يربي الانسان ، و ينمي فيه المواهب الخيرة ، و بالتالي

يجعله أهلا لتحمل المسؤولية الرسالية.

و في الآية الأخيرة نجد صورة نموذجية لأسلوب الفرد المؤمن في الدعاء.

بينات من الآيات

فاذا الذي استنصره يستصرخه

[18] [فأصبح في المدينة خائفا يترقب]

لقد كان موسى (ع) مطلوبا عند السلطة باعتباره معارضا لها ، فكيف وقد قتل شخصا منهم ؟!

ان الخوف الذي تشير له الآية الكريمة هو الخوف الإيجابي الذي يدعو صاحبه للتفكير في العمل ضمن الظروف الصعبة ، لا الخوف السلبي الذي يدعو للتوقف عن التحرك و الخنوع ، و فرق بين الأول الذي يعكس على أسلوب العمل ، و الآخر الذي يعكس على ذات العمل.

ان موسى (ع) لم يتوقف لحظة عن الجهاد في سبيل الله ، ولكنه صار يتحرك بحذر ، و الترقب : من المراقبة ، و توقع ردات فعل السلطة . الأمر الذي يدعو للإعداد الوقائي لأية ردة فعل من قبلها.

و عندما تدخل الحركة الرسالية في ظروف العمل السري يتوجب عليها ان تحسب الف حساب لتحركاتها ، و ان تختار الوقت المناسب لتوجيه أية ضربة للنظام ، وأن لا تفجر الصراع بشكل شامل و معلن الا بعد نضجها و نضج الساحة الجماهيرية ، وضمن خطة مدروسة أنفا ، وإلا فإن مصيرها سيكون الفشل.

و مجموع هذه الحسابات هي التي دعت موسى (ع) للغضب على الاسرائيلي لما تقاثل مع القبطي الآخر ، و لو لم يكن يستنجد بموسى ، و بالتالي يكشفه أمام الناس ، ربما لم يتخذ منه هذا الموقف.

[فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه]

و قد عبر القرآن عن المرة الثانية بالاستصراخ ، و لم يقل يستنصره - كما كان في حديثه عن الأمس - و ربما ذلك ليعين ان موقف الإسرائيلي كان فاضحا ، و لعل هذا كان مما دعى موسى (ع) للغضب عليه.

[قال له موسى إنك لغوي مبين]

انك تعرف الطريق الصحيح ، وانه من غير المناسب تفجير الصراع في مثل هذه الظروف ، و لكنك تتنكب عن الطريق بشكل بين و واضح ، و ذلك ان موسى (ع) - كما يبدو - كان قد بين له في المرة الأولى الخطأ " قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين " (١) لكن مخالفة القيادة فاستحق العتاب بل التأديب كما في الرواية التي مر ذكرها.

و مع كل ذلك صمم موسى (ع) على البطش بالقبطي ، لأنه أخذ على نفسه عهدا بان لا يكون ظهيرا للمجرمين.

[19] [فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما]

هو و الاسرائيلي - بعد ان لام الذي من شيعته على خطئه - و حيث ان كلمات موسى كانت قد أثرت أثرها في نفس الاسرائيلي ، فأراد الثأر لنفسه:

[قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين] (١) القصص / ١٥.

هكذا تبين ان الرجل كان غويا مبينا ، وان صراعه مع الأقباط كان مجردا عن المضمون الرسالي . اذ بمجرد

خشيتته من غصبة فائده و منقذه انقلب عليه ، و اتهمه بانه يريد ان يتجير في الارض - يتسلط على الناس بغير الحق - وان ادعاه بالسعي وراء الإصلاح ليس بصحيح ، ولعله كان من نمط المارقين الذين خرجوا على الامام علي - عليه السلام - و هذا النمط من الثوريين هم المتطرفون ، المعجبون بأنفسهم ، ضعاف الولاء لقيادتهم ، و مهما يكن نمط هذا الشخص فقد أذاع سرا هاما من أسرار الحركة .

و يلاحظ في احاديث أهل البيت (ع) أنهم اعتبروا افشاء السر أو اذاعة الامر - حسب التعبير الاسلامي - من اعظم المحرمات ، قال الامام الصادق (ع) :

"يا ابن النعمان ! اني لأحدث الرجل منكم بحديث فيتحدث به عني ، فاستحل بذلك لعنته و البراءة منه ، يا ابن النعمان ! إن المذبح ليس كقاتلنا بسيفه بل هم أعظم وزرا ، بل هو أعظم وزرا " (١) قال (ع) :

"و الله ما الناصب لنا حربا بأشد علينا مؤنة من الناطق علينا بما نكره " (٢) وقال (ع) :

"من أذاع علينا شيئا من أمرنا فهو كمن قتلنا عمدا ولم يقتلنا خطأ(3) " وعندما نقارن بين موقف موسى (ع) من الاسرائيلي في المرتين ، نجد التالي :

(1) بحار الانوار / ج ٧٨ / ص ٢٨٧ .

(2) المصدر / ج ٧٥ / ص ٧٤ .

(3) المصدر / ص ٨٧ .

1- انه في المرة الاولى قتل القبطي ، ثم بين له الخطأ : " فوكزه موسى فقصى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين " أما في المرة الثانية ، فانه تكلم ضد الإسرائيلي أولا : " قال له موسى انك لغوي مبين " ثم توجه للبطش بالقبطي:
" فلما أراد ان يبطش بالذي هو عدو لهما ... " و لعل ذلك ليبين لنا القرآن حقيقة طالما أكد عليها ائمة الهدى في احاديثهم و هي : ان الاسرائيلي في المرة الثانية حيث خالف أمن الحركة كان أحق باللوم و التأديب ، فموسى بدأ بالقبطي تلك المرة لأن تأديبه هو الأهم ، بينما بدأ بالاسرائيلي هذه المرة لأن رده عن تصرفاته الخاطئة هذه أهم بالنسبة للحركة الرسالية من قتل القبطي . بل ان بعض الروايات قالت : ان موسى اراد ان يبطش بالاسرائيلي لا بالقبطي ، قال الامام الرضا (ع) في تفسيره الآية:

"فاذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه " على آخر " قال له موسى انك لغوي مبين " قاتلت رجلا بالامس و تقاتل هذا اليوم لأ أدبناك و أراد ان يبطش به " فلما أراد ان يبطش بالذي هو عدو لهما " و هو من شيعته " قال تريد ان تقتلني .. الآية " (١)

2- في المرة الاولى قال القرآن عن لسان موسى و هو يخاطب الاسرائيلي لدخوله في الصراع مع القبطي : " قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين " و قد نسب العداوة و الضلال المبين للشيطان ، بينما قال في المرة الثانية : " قال موسى انك لغوي مبين " ناسبا الغواية الواضحة و المتعمدة للإسرائيلي ، و بالمقارنة نصل الى هذه النتيجة : ان الاسرائيل وقع في حبال الشيطان ، و صار عدوا لموسى من حيث لا يشعر ، وهكذا كل من يخالف أوامر قيادته الرسالية ، لتصوراته و مواقفه الشخصية.

(1) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١١٩ .

فاخرج اني لك من الناصحين

[20] و كما ان عدم الانضباط من أسباب فشل الحركات و ضعفها ، فان اختراقها لاجهزة النظام من

أسباب قوتها ونجاحها ، و لربما كانت حركة موسى تفشل لو لم تكن تملك نقطة القوة هذه ، فربما كانت تنتهي لو قبض على قائدها أو قتل.

[و جاء رجل من أقصى المدينة يسعى]

ورد في الروايات:

... " و بلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل ، فطلبه ليقتله ، فبعث المؤمن الى موسى : " ان الملائكة يأتون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين " (١)و هو الذي قال عنه تعالى في موضع من القرآن : " و قال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه " لقد كان هذا الرجل يتظاهر بالكفر ، و يخفي الايمان ، و ذلك لينفج به حركته الرسالية ، و أن يعيش الرجل بشخصيتين متناقضتين أمر صعب ، و يحتاج إلى شخص بمستوى رفيعمن التفوى و الجهاد و الارادة ، فلا يذوب أمام اغراءات الدنيا فينقلب على عقبه ، و لا يعجز عن أداء هذا الدور ، و جاء في بعض الروايات عن اصحاب الكهف:

قال الامام الصادق (ع) :

"إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان و أظهروا الكفر ، و كانوا على إجهار الكفر أعظم أجرا منهم على إسرار الإيمان " (٢)(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٢٠.

(2) وسائل الشيعة / ج ١١ / ص ٤٨٠.

و من طريف ما يحكى عن مؤمن آل فرعون و كتمان إيمانه و رسالته ، و إيمانه بموسى (ع) عن الامام الصادق (ع) انه قال:

" 2-و لقد كان لخربيل المؤمن من قوم فرعون الذين وشوا به الى فرعون مثل هذه التورية . كان خربيل يدعوهم إلى توحيد الله و نبوة موسى ... و من البراءة من ربوبية فرعون ، فوشى به الواشون إلى فرعون ، و قالوا : إن خربيل يدعو إلى مخالفتك ، و يعين أعداءكعلى مصادتك ، فقال لهم فرعون : ابن عمي و خليفتي على ملكي و ولي عهدي ؟ إن فعل ما قلتكم فقد استحق العذاب على كفره لنعمتي ، و إن كنتم عليه كاذبين قد استحققتم أشد العقاب لإيثاركم الدخول في مساءته ، فجاء بخربيل و جاء بهم فكاشفوه و قالوا : أنت تكفر ربوبية فرعون الملك و تكفر نعماءه ؟ فقال خربيل : أيها الملك هل جربت علي كذبا قط ؟ قال : لا ، قال : فسلمهم من ربهم ؟ قالوا : فرعون قال لهم: و من خالككم ؟ قالوا فرعون هذا ، قال : ومن رازقكم ، الكافل لمعايشكم ، و الدافع عنك مكارهكم ؟ قالوا : فرعون هذا ، قال خربيل: أيها الملك فأشهدك ومن حضرك أن ربهم هو ربي ، و خالقهم هو خالقي ، و رازقهم هو رازقي ، و مصلح معايشهم هو مصلح معايشي ، لا رب لي ولا خالق ولا رازق غير ربهم و خالقهم و رازقهم ، و أشهدك و من حضرك أن كل رب و خالق و رازق سوى ربهم و خالقهم و رازقهم فأنا بريءمنه و من ربوبيته ، و كافر بالهيته.

يقول خربيل هذا و هو يعني أن ربهم هو الله ربي ، و لم يقل إن الذي قالوا هم أنه ربهم هو ربي ، و خفي هذا المعنى على فرعون و من حضره و توهموا أنه يقول : فرعون ربي و خالقي و رازقي ، فقال لهم : يا رجال السوء و يا طلاب الفساد في ملكي و مريدي الفتنة بيني وبين ابن عمي وهو عضدي أنتم المستحقون لعذابي لإرادتكم فساد أمري ، و إهلاك ابن عمي ، و الفت في عضدي ثم أمر بالأوتاد فجعل في ساق كل واحد منهم وتد ، و في صدره و تد ، و أمر أصحابأمشاط الحديد فشقوا بها لحمهم من أبدانهم ، فذلك ما قال الله : " فواقه الله " يعني خربيل " سينات ما مكروا " لما وشوا إلى فرعون ليهلكوه " و حاق بأل فرعون سوء العذاب " و هم الذين وشوا لخربيل إليه لما أوتد فيهم الأوتاد و مشطعن أبدانهم لحومهم بالأمشاط " (١)

و قد تقتضي المصلحة أحيانا ان لا يعيش الفرد الرسالي مع المحرومين في مكان و احد ، بل يبحث له عن بيت سعيد ، يميل إلى الرفاه من اجل إخفاء شخصه ، ولكن لا ينبغي ان يعكس ذلك على إيمانه و شخصيته الحقيقية أبدا.

و الرسالي الذي يمارس هذا الدور يجب ان لا يظهر ارتباطه بالحركة أو القيادة الرسالية حتى لا يفترض أمره ، و القرآن يعبر عن مجيء الرجل من أقصى المدينة بالسعي ، و هو الإسراع ، و قد جاء مسرعا و ذلك حتى يتدارك الأمر قبل ان يقع موسى في يد السلطة من جهة ، وحتى يسبق جلاوزة النظام للمكان ، و بالتالي لا يرى و هو يؤدي واجبه الرسالي ، حيث لا يقول ربنا سبحانه : يركض أو يسرع . هذا من جهة ، و من جهة أخرى لم تكن سرعته بالشكل الذي يلفت انتباه الآخرين ، اذ من الخطأ عندما يكون عند الفرد الرسالي أمر هام أن يظهر في صورة غير عادية أمام الآخرين.

و هنا لاننسى أيضا أثر الوقت في كثير من المهام ، فقد يستدعي الأمر أحيانا أن يرسل الواحد للآخر إشارة فقط ، أولا أقل يختصر الكلام ليكون الوقت في صالحه بشرط ان يكون الاختصار نافعا.

[قال يا موسى إن الملائم يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين](١) بحار الانوار / ج ٧٥ / ص ٤٠٢.

بهذه العبارة المختصرة التي تتضمن الخبر و التحليل اكتفى هذا الرجل.

[21] كما ان موسى (ع) لم يفوت على نفسه لحظة واحدة ، اذ كان يملك القرار الحازم ، بالاضافة الى البصيرة النافذة ، و يعبر عن مجموع هاتين الصفتين بسرعة البديهة ، و كم من المجاهدين وقعوا في يد الأنظمة لأنهم لا بديهة لهم ، فتراهم عندما يسمعون بأن شيئا غير عادي يحوط بهم . تراهم يترددون في اتخاذ القرار المناسب ربما لصعوبته عليهم ، كقرار الاختفاء ، أو الهجرة ، أو التصدي ، فيقعون في محذورات أكبر.

[فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين] و كان يحمل معه في هجرته زاد التوكل و هو أعظم زاد.

[22] لقد كان موسى مهاجرا بالمعنى المعنوي ، عندما هجر سلوكيات المجتمع المنحرفة ، أما الآن فانه بدأ الهجرة العملية بمضمونها المادي أيضا ، و للهجرة في سبيل الله فوائد عظيمة . من أهمها تزكية نفس الانسان ، فاول ما يقوم به المهاجر في سبيل الله هو تزكية نفسه . ذلك ان و عشاء السفر ، و الغربية ، و الابتعاد عن المجتمع الفاسد ، و مواجهة التحديات ، و المشاكل الجديدة و .. و كل هذه الأمور بوتقة لصياغة شخصية الإنسان باتجاه التكامل ، و هكذا كانت الهجرة تعني بالنسبة لموسى (ع) فقد كان يبحث عن الهدى ، و لم تكن هجرته للهروب عن المضاعب و المشاكل . كلا .. فهو لا يزال يفكر في قومه.

ان قسما من الناس حينما يهاجرون عن شعوبهم ، و يجدون الرخاء و الأمن في البلد الآخر ، ينسون بلادهم و شعبيهم ، و كل الدموع و الدماء و المآسي التي لا يزال شعبيهم يعاني منها ، و هذا خطأ كبير ، و انحراف بالغ ، لأنك حينما تهاجر فلكتكتسب المزيد من الوعي و القوة ، فتعود لبلدك لتفجر الثورة.

و هكذا نجد موسى (ع) في مسيره الى مدين يسأل الله سبحانه ان يهديه سواء السبيل:

[و لما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل] و قد انطلق موسى - عليه السلام - في الصحراء وحده ، و كانت قصة هجرته أروع ما عرفه التاريخ من هجرات البشر . دعنا نقرأ جانباً منها:

[33] لقد هاجر (ع) الى مدين ، و كانت مدين مدينة يكثر فيها الرعاة ، و تحوطها الآبار.

[و لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون و وجد من دونهم] اي بعيدا عنهم.

[امراتين تذودان]

تمنعان اغنامهما عن الورود على الحوض ، لانهما كرهتا الإختلاط مع الرجال ، فكانتا تنتظران نهاية

السقاية.

[قال ما خطبكم]

ما الأمر ؟ لماذا لا تسقيان ؟ و كان - عليه السلام - يبحث عن مستضعف يعينه ، و هكذا تكون حياة الرساليين اينما كانوا كلها في خدمة الرسالة و الناس ، وهم يبحثون عن أي فرصة للعمل الصالح دون ان ينتظروا من الناس ان يسألوهم العون . و قد قال القرآن في حق عيسى (ع) : " و اجعلني مباركا اينما كنت " اي اينما حللت ، فالمؤمنون مبارك مقدمهم على مجتمع في دار الهجرة.

و لعلنا نستفيد من قيام موسى بهذا العمل ضرورة بناء علاقات اجتماعية تثبت التحرك الرسالي في مجتمع الهجرة ، كما يستفيد من خلالها في خدمة قضيته.

[قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء و أبونا شيخ كبير]لا يستطيع ان يسقي الأغنام ، اما نحن ننتظر سائر الرعاة حتى ينتهوا فنسقي أغنامنا.

[24] فسقى لهما

اننا نجد قسما من الثائرين يسقطون خدمة الناس من حسابهم ، بحجة ان العمل للقضية أهم من كل شيء.

أما موسى فانه يرى خدمة المستضعفين من أهم أهدافه ، لذلك سقى للإمراتين ، و كان فتى قويا ، عركته صعوبات الحياة و تحدياتها ، و قد سقى لهما بدلوا لا يطيق حمله الا عشرة رجال.

و الواقع : إن من أهم صفات الأنبياء الاحسان الى الناس ، و بأمثال هذه الصفة اصطفاهم الله للرسالة ، فعندما يتحدث القرآن عن اختيار الله للانبيا كثيرا ما يقول : " و كذلك نجزي المحسنين. "

[ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير]لقد كان موسى يتصور جوعا ، و يعاني من العربة ، و لا يعرف الى اين ينتهي به الأمر ، و لكنه لم يشك الى الله ذلك ، بل ذكر نعمه السابقة ، و قال انني افتقر الى ذلك الخير . وهذا من أفضل اساليب الدعاء ، اذ يتضمن كناية أبلغ من التشبيه ، و نظرة ايجابية . فبدلان يقول أحدها : ان عيني تؤلمني فشافها يا رب ، ليقول ان عيني كانت سليمة سابقا ، و اني اليوم لفي حاجة لان أكون مثل الماضي . اذ من آداب الدعاء أن يبدأ العبد بحمد الله ، و الثناء عليه - كما في الاحاديث. -

و أهمية هذا الأدب المحافظة على الروح الايجابية عند الانسان الذي يسعى الشيطان لأغوائه أبدا عن نعم الله ، و وضع نظارات سوداء على عينه كلما ألمت به مصيبة ، أو فقد نعمة ، حتى لا يرى سائر النعم الباقية و هي بالتأكيد أكثر مما فقدها و من لا يرى نعم الله عليه لا يمكنه من الانتفاع بها.

و في تفسير آخر للآية : ان ابا بصير قال : قلت لأبي عبد الله - عليه السلام - : هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرا ؟ قال : نعم ، قلت : ما هو ؟ قال :

" يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل و مال ، و إن كان فيما أنعم الله عليه في ماله حق أداه ، و منه قول الله عز وجل : " سبحان الذي سخر لنا هذا و ما كنا له مقرنين " و منه قول الله عز وجل : " رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير" ...

و ربما ربط الامام (ع) بين حدود الشكر و بين هذه الآية ليبين حقيقة هامة و هي : ان قول موسى هذا انما هو شكر ، لأنه بعدما سقى الى الامراتين ، و تولى الى الظل . قال : " رب اني لما أنزلت الي من خير فقير " لأنني ما عملته قليل ، و انا محتاج الى عمل أكثر و أكبر ، حتى يرتفع رصيدي عندك.

**أنس من جانب الطور نارا
هدى من الآيات**

الهجرة مرحلة ضرورية لكل الرسالات و الحركات الرسالية السائرة على خطاها عبر الزمن ، فهي تنفع الانسان تزكية لنفسه ، و بلورة لشخصيته ، و استقامة على الحق بما فيها من ساعات صعبة حبلى بالمشاكل و الألم ، فالمهاجر يقتلع نفسه من مجتمعه ، و يعيش غريبا ، مجهول المصير ، و لعل تلك الساعة التي آوى فيها موسى الى ظل الشجرة كانت من تلك الساعات ، فهو الآن جائع و متعب من وعناء السفر ، في بلد لا يعرف فيه أحدا ، بالإضافة الى هموم شعبه المستضعف ، و ربما كان خوف فرعون لا يزال يلاحقه ، و لم يتخلص منه نهائيا إلا بعد أن أخبره شعيب بأنه قد نجى - فعلا - من القوم الظالمين.

أما الوجه الآخر للهجرة ، فهي رحمة الله التي ترعى المجاهدين ، وفي هذه الآيات الكريمة نجد حديثا عن أبواب و الرحمة والبركة التي فتحتها الى نبيه موسى (ع) ففدجاءته احدى الامراتين اللتين سقى لهما ، و هي تدعوه الى بيتهم حتى يجزيه أبوها أجر السقاية ، و تتابعت عليه بركات الرب ، حيث أضحى و احدا من هذا البيت بعد ان كان غريبا في مدين ، و مستقرا بعد ان كان من دون ماوى ، و نقرأ بين السطور دروسا إلهية مهمة حول أخلاقيات المهاجر الرسالي.

و تتجلى الرحمة الإلهية مرة أخرى و بصورة أعظم حينما يرجع موسى بأهله الى وطنه و المشاكل تحوطه من كل جانب ، فالليل حالك الظلمة ، و البرد قارص ، و زوجته حامل ، و هم يسيرون في مفازة شاسعة ، دون معرفة بمعالن الطريق ، وفي الأثناء تموت مواشيه ، و هو لا يعرفماذا يصنع ، و اذا بيد الغيب تمتد اليه لا لكي تستنقذ موسى فقط ، و انما لكي تستنقذ معه بني اسرائيل ايضا.

في بادئ الأمر لما رأى موسى النار لم يكن في خلده سوى الإستفادة من جذوتها للتدفئة ، و ممن حولها الاهتداء الى الطريق ، و لكن ما إن بلغها حتى سمع النداء : " أخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى " و حينها انسلخ من كل الانتماءات المادية ، و نسي كلالهموم و الآلام ، و توجه الى ربه بكل عقله و عواطفه ، و هنا تتجلى عظمة الأنبياء ، فاذا بموسى (ع) لا يخلع نعليه و حسب ، بل يخلع كل انتماءات الأرض و التراب عن نفسه ، و يأتيه الوحي من طور سيناء ، دون ان يلتفت الى زوجته الحامل ، و لا مواشيه التي هلكت و التي كانت حصيلة عشر سنوات من العمل.

بينات من الآيات

اخلاقيات المهاجر

[25] [المهاجر باعتباره غريبا عن بلد الهجرة ، يجب ان يكون متساميا في الأدب ، لأنه لا يعرف البلد ، ولا يعرف خصائصه الاجتماعية ، و ربما يوجد فيه منيعتقد بأنه ثقيل الظل ، فيحاول الضغط عليه ، و من هنا يجب على المهاجر تفجير طاقاته المعنوية و المادية ليستوعبه أهل المدينة ، و أول عمل قام به موسى (ع) أنه أعان العائلة الفقيرة ، و هكذا نجد حياة الأنبياء و الرساليين عبر التاريخ ، فرسول الله (ص) دخل المدينة مهاجرا من مكة ، و دخلت معه البركات اليها بسبب نشاطه و قيمه الرسالية ، و أول ما وصل إليها بنى مسجدا فيها و هو مسجد (قباء) و ردم الحفر و المستشفيات التي انتشرت حولها - حسب بعض التواريخ - و التي كانت باعثا على الامراض ، ثم إنه (ص) لم يكن كلا على أهلها ، بل كان يعمل بنفسه ، و يكد من عرق جبينه ، أو ربما دفع الامام علي للقيام بهذا الدور ، و مثل هذا السلوك يجعل المهاجر محبوبا في المجتمع ، و هذا ما حدث فعلا لموسى - عليه السلام - إذ بعث اليه شعيب - عليه السلام - لما أنبأته ابتناه بأنه قوي أمين ، و قد أحسن اليهما بالسقي لمواشييهما.

[فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا] و هنا اشارة الى ان الأديان الألهية عموما لا تعارض دخول المرأة الى الواقع الاجتماعي ، و تعاملها مع الآخرين ، و لكن بشرط ان يكون تعاملها محاطا بالأدب و الحياء ، فهذه ابنة شعيب و هو أحد الانبياء بعثها أبوها في أمر يجده ضروريا ، و حين لبت كانت متسريلة بالعفة و الحياء.

و استجاب موسى (ع) لهذه الدعوة لا ليأخذ أجر السقاية ، و انما ليجد له موقعا في هذا البلد الغريب . إذ ينبغي للمهاجر الرسالي ان يبني شبكة من العلاقات الاجتماعية بمختلف الأسباب المشروعة ، و لمختلف الجهات في المجتمع حتى يستفيد منها في سبيل أهدافه الحق ، و حينما مشى موسى مع امرأة غريبة مشى بأدب

وحشمة ، فقد أمرها ان تسير خلفه و تدله على الطريق بحصاة ترميها يمينا أو يسارا ، لانه ربما يرى شكلها و هي تسير أمامه.

وفي الحديث:

"فقام موسى معها و مشت أمامه ، فسفقتها الرياح فيان عجزها ، فقال لها موسى : تأخري ودليني على الطريق بحصاة تلقينها أمامي اتبعها ، فانا من قوم لا ينظرون في ادبار النساء " (١) [فلما جاءه و قص عليه القصص]

روى له ما جرى عليه في بلاده التي يسيطر عليها فرعون و جلاوزته.

[قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين]

واول ما دخل عليه موسى امر له بطعام ، فرفض أن ياكله و هو جائع ، فلما سأله شعيب عن السبب ، قال نحن من أهل بيت لا نأخذ اجرا على خدمتنا للآخرين لانه لوجه الله ، و بقي مصرا على ذلك ، حتى أوضح له شعيب ان هذا ما نقدمه لكل ضيف يحل علينا.

و يبين لنا هذا الموقف احدى صفات المهاجرين الرساليين و خلفياتهم ، اذ يجب علي المهاجر ان يحصن نفسه ضد الذلة ، و يحافظ على قيمه التي جاء بها للمهجر ، فالكثير من المهاجرين ، سواءا كانوا عمالا أو مجاهدين حينما ينتقلون الى بلاد الشرق أو الغرب تمنحي قيمهمم أذهانهم ، و تنعكس على شخصياتهم قيم و سلوكيات مجتمع المهجر ، لأن المجتمع قوي ، و هم لا يجدون ما يحصنهم أمام تياراته ، فيذوبون(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٢٢.

فيه.

و على المهاجر ان يفكر في الحفاظ على قيمه ، و تحصين شخصيته قبل التفكير في توفير مأكله و مشربه ، فقد رفض موسى (ع) ان ياكل الا بعد ما تأكد من ان هذا الطعام لا تستتبعه ذلة ولا انتماء معيناً .

[26] [قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين] و هذا الاقتراح يكشف لنا عن أمرين :

الاول :أحساس المرأة بالحاجة الى رجل يقوم بمهام البيت ، و ان ما يشيع طموح المرأة في الرجل ان يكون قويا يجبر ضعفها ، و أمينا تطمئن للعيش في كنفه . هذا من الناحية الخاصة - بالنظر الى المرأة كامرأة - أما من الناحية العامة حيث الظروف المحيطة ببيت شعيفهاتان الصفتان مهمتان ، فمن الضروري ان يكون قويا حتى يؤدي المهام و الاعمال بشكل أفضل ، و أمينا حفظا لعرض البيت.

قال الامام علي (ع):)

"لما قالت المرأة هذا ، قال شعيب (ع) : وما علمك بأمانته و قوته ؟ قالت : أما قوته فانه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا بكذا ، و أما أمانته فانه قال لي : امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك ، فتصف لي جسديك " (١)الثاني : ربما يكشف هذا الاقتراح عن رغبتها في الزواج منه ، فقد ورد في الروايات أن التي تزوجها موسى هي صاحبة الإقتراح ، بل وإنها هي التي اشارت(١) المصدر / ص ١٢٣.

على أبيها بالزواج منه ، و الذي يدل على هذا الأمر الآية اللاحقة ، حيث يطرح فيها شعيب موضوع الزواج على موسى (ع) لقاء عمله معه ثمان أو عشر سنوات ، مما يدل على وجود بحث مسبق ، في هذا الموضوع بينه و بين أبنته ، ولا ريب انها كانت تعرف بأن أجور عمله هو الزواج.

[27] و قبل شعيب باقتراح ابنته فاقبل على موسى (عليه السلام) .

[قال إنني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين]

و اشترط عليه العمل ثمانى سنين.

[على أن تأجرني ثمانى حجج]

الزاما ، و خيره في سنتين اذا أراد هو.

[فإن أتممت عشرا فمن عندك]

باختيارك و ارادتك ، و احسانا منك .

[و ما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين] [٢٨] فأجابه موسى:

[قال ذلك بيني و بينك إيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل]و بقي موسى (ع) يعمل عند شعيب (ع) و قد جعل الله ذلك كرامة لنبيه شعيب لما هو عليه من التقوى و الزهد.

قال رسول الله (ص):

"بكى شعيب (ع) من حب الله عز وجل حتى عمي ، فرد الله عز وجل عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي ، فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة أوحى الله اليه : يا شعيب ! الى متى يكون هذا أبدا منك ؟ إن يكن هذا خوفا من النار فقد اجرتك ، و ان يكن شوقا الى الجنة فقد ابحتك ، فقال : إلهي و سيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفا من نارك ، ولا شوقا إلى جنتك ، و لكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك ، فأوحى الله جل جلاله إليه : أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى ابن عمران(1) "

و هكذا كان حيث زوج شعيب ابنته لموسى لقاء العمل عنده لمدة ثمان سنوات أو عشر ، وعلى هامش هذا الزواج هناك حقائق نشير اليها:

الاولى :من الممكن ان تختار المرأة الزوج المناسب لها ، لأن الزواج قضية مصيرية ، ذات أثر عميق على حياة المرأة و مستقبلها ، و لكن هذا الإختيار يجب ان يكون بطريقة لائقة ، تتناسب مع حشمة المرأة ، و القيم الالهية ، فهذه بنت شعيب انما اختارت موسى لما وجدت فيه من الصفات و المؤهلات ، من قوة و امانة ، و التزام بمفاهيم الرسالة ، ثم عرضت اختيارها بأدب على أبيها.

الثانية :قبل ان تقدم موسى (ع) بطلب الزواج ، بادر شعيب الى ذلك ، حيث وجد كفوها ، و وجد في زواجه من ابنته ضمانا لمستقبلها ، و سعادة لها في الحياة ، و هذا خلاف ما نجده الآن في المجتمعات التي صار فيها عرض الأب بناته للزواج ممن يجده أهلا لها عيبا كبيرا.

(1)المصدرص / ص ١٢٤.

الثالثة : ان البنت الصغرى هي التي تزوجت و ليست الكبرى . على عكس بعض التقاليد الخاطئة التي ترى ضرورة زواج الكبرى أولا.

[29]و بقي موسى عند نبي الله شعيب (ع) عشر سنوات ، و هي أقصى الاجلين قبل ان يقرر العودة من جديد.

[فلما قضى موسى الأجل و سار بأهله]

و كان هذا إيذانا بدخول الحركة الرسالية مرحلة جديدة ، هي مرحلة العودة للتحريير ، و قد سبق أن أشرنا بأن الهجرة عند الرساليين لا تعني الهروب من الواقع و تحمل المسؤولية ، إنما تعني الإعداد الأفضل لخوض الصراع الحاسم ، ولا ريب ان موسى كان يفكر في مستقبل شعبه ، و يخطط للمعركة القادمة و هو في طريق العودة.

كان الوقت ليلا ، و الفصل شتاءا ، و المسير في صحراء مترامية الأطراف ، و لم تكن هذه الطريق معهودة عند موسى ، فضاء و ماتت مواشيه ، فصار يلتمس عونا له على هذه الظروف ، و في هذه الاثناء:

[ءانس من جانب الطور]

وهو الجبل.

[نارا قال لأهله أمكثوا إنني ءانست نارا]

وأنس من الاستئناس ، و بالفعل أعطت هذه الشعلة شيئا من الأمل للنبي موسى و هو يعاني تلك الظروف القاسية ، فأمر أهله بالبقاء ، حيث ابقاهم في مكانهم ريثما يعود ، و كانت أصعبها عليه الضياع ، و بقاء أهله في البرد ، كذلك قال:

[لعلي ءاتيكم منها بخبر]

كان يتصور (ع) ان بجانب النار جماعة ما ، يسألهم عن الطريق ، و يعود لأهله بخبر مفيد.

[أوجدوه من النار لعلكم تصطلون]

و الاصطلاء : هو التدفؤ.

[30] كان هذا أبعد ما ذهب اليه موسى حينما رأى النار ، و لكنه كان يحمل في داخله هما أكبر من ذلك كله ، هم تحرير شعبه و سوقه نحو توحيد الله و عبادته ، بعيدا عن العبوديات المزيفة ، ولو وصل في هذا المضمار الى نتيجة لا بد انه كان ينسى كل شيء سوى ذلك الهم.

[فلما اتاها نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنني أنا الله رب العالمين] وفي غمرة هذا القرب الالهي امره الله ان يقطع عنه كل علاقاته الأخرى ، و ينسى أهله و ضياعه ، و هلاك مواشيه ، لانه وجد ربه ، و هنا التفاتة مهمة تعني المجاهدين أكثر من غيرهم وهي : ان عليهم الإطمئنان الى نصر الله و عونه ، و ان ذلك كله لا يتأتى لأحد إلا بعد السعي و الجهاد " : و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ان الله لمع المحسنين " (١) و ثمة فكرة نجدها في تفسير الامام الصادق (ع) لهذه الآية . إذ يقول:

(1)العنكبوت / ٦٩.

"كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فان موسى ابن عمران ذهب يقتبس نارا لأهله ، فانصرف إليهم وهو نبي مرسل " (١)(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٢٧.

**بآياتنا انتما و من اتبعكما الغالبون
هدى من الآيات**

لحظة الوحي هي لحظة حساسة في تأريخ البشرية ، لأنها لحظة الاتصال الخارق للعادة ، بين رب السماء و الارض عبر مشكاة طاهرة تتجسد في قلوب الرسل الذين يستقبلون الوحي ، ثم يبلغونه للناس دون زيادة أو نقصان ، و هذه اللحظة لا تتكرر كثيرا في حياة البشر ، إلا وفق حكمة الله البالغة ، و قد تحققت لأمة بني إسرائيل عندما كلم الله نبيه موسى (ع) في طور سيناء ، كما تحققت للأمة الاسلامية في ليلة القدر ، حينما نزل القرآن كله على قلب النبي محمد (ص) و لعظمة هذه اللحظة كانت ليلة القدر خيرا من الف شهر.

لقد كلم الله نبيه موسى تكليما ، و لكنه أجل من ان يكون له لسان ، انما يخلق الصوت خلقا و بذلك تغيرت صفحة الحياة ، و بدأت المسيرة الحقيقية لبناء الأمة المؤمنة.

و لقد زود الله نبيه موسى (ع) بآيتين عظيمتين هما العصا ، و يده التي تصير بيضاء حينما يضمها الى جيبه ، ثم أمره بالتوجه إلى رأس الفساد و الإنحراف في المجتمع و هو الطاغوت ، و ذلك أن من خصائص الرسالات الالهية عبر التاريخ أنها شجاعة مقدمة ، لهذا نجد موسى (ع) حينما يأمره الله بالتوجه إلى قلب الكفر يفعل ذلك و يترك العمل السري دون ان يخشى من فرعون ، و لماذا يهاب أحدا و قد اتصل بالوحي و بخالق الكون كله ؟!

و في مقابل موسى يقف فرعون و هو تركيز لشتى أنواع الفساد ، انسان ظالم ، تحوطه الاهواء و الشهوات و الكبرياء المزيفة ، و بالطبع لا يمكن أن يتخلى عن ذلك كله في لحظة واحدة ، و يتجه الى عبادة الله ، و يسلم لقيادة رسوله ، إلا أن موسى يبقى ثابتا أمام ذلك ، و اتقا من " انه لا يفلح الظالمون " و انهم مهما فعلوا ، و مهما استمروا ، و تشبثوا بأسباب القوة فان عاقبتهم الخسران.

ان العبر التي نستوحيها من هذا الدرس كثيرة ، و تنفعنا في حياتنا و نحن ندعوا الى الله ، و لكن أبرزها ان يعرف الفرد الرسالي بان النقطة المحورية لتحركه هو تقربه من الله ، فليدع و ليعمل و ليعارض و لكن انطلاقا من هذه النقطة و انتهاء اليها.

هل رأيت المحارب ينطلق من خندقه ، ثم يعود اليه ليغير سلاحه ، و يحكم خطته ، ثم يهجم مرة أخرى ؟ كذلك المؤمن يواجه السلبيات و المشاكل و التحديات ، فيضعف سلاحه ، و ينفذ زاده ، و تعب نفسه فيعود الى خندقه ليحجر ضعفه ، و يحمل زاده ، و يستعيد نشاطه ، و لكنه اين هو خندق المؤمن ؟ انه المحراب يقف فيه للصلاة ، و القرآن يستوحي منه خطط العمل و التحرك ، و الصوم يشد به أزره ، و التبتل يستفيد منه العزم و الإرادة و الإصرار عبر اتصاله بالله.

انا لو فصلنا الحركة الرسالية عن الروحيات (الصلاة ، و الصوم ، تلاوة القرآن ، الايمان بالغيب و ، ، و) فانها تصبح كأية حركة مادية أخرى لاقيمة لها ، كما الانسان لو أخذنا منه عقله ، أو الحيوان نسلب روحه . أنه يتحول الى كتلة لحم تتعفن بمرور الأيام ، فالحركة الرسالية يجب ان تكون من الله ، و الى الله ، و بالله ، و في سبيل الله ، و ليس من الله الى غيره ، أو من غيره تعالى اليه.

و حينما تتخلى أمة عن الوحي تضحي كبنى إسرائيل كانوا حركة رسالية ، فتحولوا الى حركة مادية بحتة أفرزت دويلة إسرائيل (فلسطين اليوم) أما المسلمون فقد تقدموا لما اتصلوا بالرسالة ، و لما تركوا الرسالة سلب منهم كل شيء.

بينات من الآيات

أذهبوا إلى فرعون إنه طغى

[31] لقد زود ربنا سبحانه ، نبيه موسى بآيتين عظيمتين هما أولا : العصا التي إذا ألقاها صارت حية تسعى ، و إذا أخرج يده من جيبه ، فإذا هي بيضاء للناظرين :

[و أن ألق عصاك فلما رءاها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب] لان موسى لا زال يحتفظ بخاصيته

البشرية ، فهو لا يزال و سيبقى بشرا ، يملك من العواطف و المشاعر ما يملكه الآخرون ، و هذا دليل على أن الأنبياء لا يتحولون بالوحي إلى آلهة ، و أن الوحي ليس من عند أنفسهم ، بل هو مسؤولية الهية الى من يختاره الله.

و كثيرا ما يوحى الله الى أنبيائه ليقولوا هذه الحقيقة للناس صراحة ، كما قال سبحانه " :قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الحكم اله واحد " . (١) لذلك ولى موسى فرارا ، و لم يلتفت خلفه لما رأى الجان وهو - كما يقول البعض - الحية الصغيرة المتحركة.

و لعل العصا صارت جانا في تلك المرة ، أما في المرات التالية فقد صارت ثعبانا مبينا.

[يا موسى اقبل]

انت الذي يراد لك ان تحمل رسالة الله ، يجب ان تكون مقداما لا تخاف.

[ولا تخف إنك من الأمنين]

فهذا هو أول الطريق ، و أمامك صعوبات و مشاكل ، فسكن قلب موسى من هذا النداء الرباني ، و تشجع فاخذ الحية فاذا هي عصا كما كانت.

[32] و تواصل النداء الإلهي:

[اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء]

[واضمم إليك جناحك من الرهب فذائك برهانان من ربك إلى فرعون و ملأه إنهم كانوا قوما فاسقين] و الفسق هو الخروج عن الخط الصحيح نحو الانحراف.

[33] وهكذا جاءت الرسالة تأمر موسى بمقاومة الانحراف و رأسه فرعون.

[قال رب إنني قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون]

و ربما كان موسى يعني ذلك القبطي الذي وكزه ففضى عليه.

[34] [و أخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني أنني أخاف أن يكذبون] و نستفيد من هاتين الآيتين أمران:

1- ان خوف موسى (ع) لم يكن على نفسه ، فقد باعها برضوان ربه و الجنة ، و لم يعد من مدين الا ليجاهد الطاغوت ، و لكن خوفه كان على الرسالة ، لأن قتله يعني عدم و صولها إلى بني إسرائيل ، كما تكذبه يعني فشله في تبليغها أو لا اقل تأثيره عليهم بها.

2- انه عندما طرح هذه المشاكل أو العقبات التي تعترضه ، لم يكن هدفه التبرير و التملص من تحمل المسؤولية ، و انما البحث عن الحل.

و هكذا ينبغي للإنسان الرسالي حينما يبعث الى مهمة ما ، في أي بلد ان يستعرض العقبات و المشاكل بحثا عن الحل لا التبرير.

[35] [قال سنشد عضدك بأخيك]

اي سنقوي كيالك بهارون.

[و نجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما]

قد يقول البعض ان ذلك نبي الله ، أما نحن فكيف يكون لنا هذا السلطان و نحن لا نملك عصا موسى (ع) !؟

بلى .. ولكن الله يقول:

[باياتنا أتتما و من اتبعكما الغالبون]

ان الذي يلتزم بالرسالة هو الذي ينتصر ، و ما دام المسلمون يتبعون آيات الله فانهم الغالبون ، كما انتصر موسى و هارون و من اتبعهما من بني اسرائيل ، عندما التزموا برسالة موسى (ع). (

[36] فلما جاءهم موسى باياتنا بينات]

لا تقبل التشكيك ، ولا تشبه السحر .

[قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في ءابائنا الأولين]ان مشكلة هؤلاء هي النفس البشرية التي تعودت على عادات معينة ، و تريد الاستمرار عليها، و بالتالي ترفض كل جديد لأنه جديد ، وفي مطلع سورة الشعراء نجد اشارة الى هذه الكلمة : " و ما ياتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين " . (١١)

[37] و لكن امام هذا الاعراض ماذا كان موقف موسى (ع) ؟

ان الأنبياء و الأولياء ، و كل من يسير في خطهم يتوكلون على الله ، و يرجعون كل شيء إليه ، فلا يقول احدهم أنا ، بل يقول : الله ، فتراه كلما عرضت له مشكلة أو مصيبة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . إنا لله و إنا اليه راجعون.

انهم يجعلون الله شاهدا على الواقع .

[و قال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده و من تكون له عاقبة الدار]مادمت أيها الرسالي تعلم بأنك تعمل في سبيل الله ، و تعلم ان هذا السبيل ينتهي بك الى الجنة فما يضرك من حديث الآخرين و من ضغوطهم.

[إنه لا يفلح الظالمون]

الفلاح هو الوصول الى الهدف ، و الرسالة هي الطريق اليه ، و الظالم أو الفاسق الذي انحرف عن الرسالة لا يفلح في دنياه لأنه لا يملك الهدى لا في دنياه ولا في آخرته ، لأن عاقبته ستكون النار.

ان الذي يصلح التربة ، و يزرع الأرض - و هذا هو السبيل السليم - يحصد القمح في نهاية الموسم ، أما الذي يعيش على الاحتيال و السرقة - و هذا هو السبيل الخطأ - فانه لا يصل الى هدفه ، فقد لا يقدر على السرقة ، و اذا سرق قد لا يستطيع ان يبيع ما سرقه ، و اذا باعه لن يتفوق بأمواله ، و النتيجة انه بسبب من الأسباب لا يفلح في هذه الحياة.

ان حقوق الآخرين حقائق واقعية ، لا يمكن تجاوزها دون جزاء ، أو إزالتها منخرطة الحياة بمجرد الإدعاء بأنها غير موجودة ، فلا يستطيع الجائع ان ينفى الجوع عن نفسه بمجرد إنكاره له ، و الظالم لا يستطيع ان ينكر حق الفقير في الشبع ، فهو حق ثابت أجريت سنن الحياة على أساسه ، فعقل الفقير و حاجته

و تطلعاته ، مضافا الى تركيبة الحياة ، و سنن الله فيها سوف تجعل من ظلمه مادة لإدانة الظالم و هلاكه .

انه لا يفلح الظالمون

هدى من الآيات

انتهت آيات الدرس السابق بالحديث عن الظلم ، و أنه يسبب الخسران لصاحبه ، و في هذه الآيات نجد مثلا واقعا على هذه الفكرة القرآنية التي تلخص سنة إلهية في الحياة ، مستمدة من قصة فرعون ، حيث أغرقه الله و جنوده في اليم.

ربما يستطيع الإنسان أن يغير سنة الحياة لفترة من الزمن - بما أعطاه الرب من حرية في ذلك - و لكن ليس للأبد ، لأن طاقاته محدودة ، بينما الحياة مستمرة ، و سننها تجريها إرادة الله المطلقة . إن فرعون حكم الناس ، و سيطر على البلاد و العباد ، و تكبر حتى بلغ الأمر به أن ادعى الألوهية ، و أعتقد بأنه قادر على مقاومة الحق ، و أن الحياة لا يحكمها قانون ، لكن الواقع كان خلاف ذلك ، فقد اصطدم بالواقع ، اذ تبين له ان فيها سننا ، و ان هناك من يجري هذه السنن.

بينات من الآيات

أنا ربكم الاعلى

[38] [يبدو ان موسى (ع) صعق الملأ بكلامه ، فاهتزت قناعاتهم بفرعون ، و اضطره الى الدفاع عن خرافاته بأساليب جديدة ، حيث قال:

اولا : انه يريد مصلحة الملأ ، و انه لم يجد إلها غيره يحققها ، و تظاهر ثانيا : بانه سوف يبحث عن ذلك الإله الذي يدعو اليه موسى.

[و قال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري] فما دام هو لا يعلم من اله غيره ، فالآخرين لا يعلمون ايضا ، بل يجب أن لا يعلموا ، و هو يقول " : لكم " لإيهامهم أنه ينفعهم ، و هو يخاطب الملأ ، لأنه كان قد سلطهم على الناس ، و أعطاهم امتيازات كثيرة.

[فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا]

قال " : لي " و ليس للشعب ، أو من أجل القيم ، و الصرح هو العرش أو القصر المرتفع ، الذي كان قديما يبنى من الآجر ، و هذا بدوره يصنع من الطين بعد تعريضه للنار ، و ما هو هدفه من بناء هذا الصرح ؟

[لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين] الهدف الأول : اظهار القوة ، فكلما شعرت السلطات الفاسدة ، عبر التاريخ بأنها ضعيفة ، و انها سوف تنهار ، سعت للبحث عن مظهر من مظاهر القوة ، حتى ولو كان هذا المظهر هو بناء العمارات أو الجسور ، التي تشملها عمليات ما يسمي بالتحديث .

ولا ريب ان قسما من الناس السذج يعجبون بمثل هذه الأعمال ، فيتصورون الطاغوت بقوتها و ضخامتها ، و فرعون عندما يبني هذا الصرح أو تلك الأهرامات فلكي يغطي بها الاهتزاز الذي اصاب كيانه الجاهلي بسبب رسالة موسى (ع) .

و اليوم نجد كثيرا من الانظمة الفاسدة تكسب الأسلحة ، و تعتقد الصفقات الواحدة بعد الاخرى لتتظاهر أمام شعبيها بالقوة ، و لعل الآية توحى بنظرية في علم الاجتماع تقول : ان التضخم المادي ينبأ بخلل داخلي يعاني منه المجتمع أو النظام السائد فيه ، و كما المتكبر يستعلي عندما يحس بعقدة الضعة في نفسه ، كذلك المجتمع المغرور داخليا يهتم بمظاهر الأبهة كبناء القصور الضخمة ، أو المعابد الكبيرة ، أو ما اشبه لتأخير حالة الانهيار.

الهدف الثاني : إلهاء الناس ، و سد فراغهم بقضايا هامشية ، فترى الحكومات عندما تشعر بالفشل ، و انها أقل من طموحات الشعب تشجع لعب الكرة ، وفي الأرجنتين حينما حدث الانقلاب العسكري ، و خرجت الناس الى الشوارع مطالبة بالحكم المدني استدعت الحكومة العسكرية الدورة العالمية لكرة

القدم ، و من خطط الـ (سي . آي . أ) التي عملت الانقلاب ، ان جعلت الكأس للارحنتين . و كأنهم يريدون القول للشعب : اذا فشلنا في بناء دولة ديمقراطية حرة ، و اقتصاد وطني ، فقد جلبنا لكم كأس العالم.

ان الشعب الذي يكون أكبر طموحاته اللعب بالكرة ، و افضل رموزه لاعبيها ، لا يفكر في الثورة على طواغيته.

أنمة النار

[39] و الطاغوت حينما يبني القصور ، أو يجمع المال و السلاح ، يتصور أنه صار

عظيما ، و هذا الشعور هو الذي يصنع بينه و بين الحقيقة حجابا.

[و استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق]

لم يكن العجز في رسالة موسى - حاشا لله - فهي آيات بينات ، و لكنهم أعرضوا عنها ، و زعموا أنهم أولوا كبرياء ، و لم يكونوا على حق ، و سبب الاستكبار هو عدم اعتقادهم بالبعث.

[و ظنوا أنهم إلينا لا يرجعون]

[40] و كان جزاء هذا الاستكبار هو الالهانة ، لكي يعرفوا أنفسهم على حقيقتها.

[5 = فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم]

و هذه العاقبة ، حذر منها نبي الله موسى (ع) من أول يوم ، و جاء عليها بالبراهين والآيات ، و كان ينبغي لفرعون و جنوده ان يعقلوها ، و هذا هو الهدف السامي من نعمة العقل : ان يتعرف به الإنسان على سنن الله ، و عواقب الأمور و يعمل على هدى الوحي و العقل ، لكن هؤلاء استكبروا على الحقيقة.

[فانظر كيف كان عاقبة الظالمين]

لقد أكد نبي الله (ع) " انه لا يفلح الظالمون " و جاء القرآن بالواقع العملي لهذه السنة الإلهية من خلال قصة فرعون و جنوده ، حتى أن السياق القرآني و صفهم بالإستكبار وليس بالظلم ، إلا انه قال : " فانظر كيف كان عاقبة الظالمين " حتى تجد انت أيها القارىء الترابط بين الآيتين ، وان هذه شاهد على تلك.

و ليست هذه الحقيقة بعيدة عن واقعنا ، فالله يقول " : فانظر " لكي لا تتصور انت أيها الذي تقرأ القرآن ، بأنك بعيد عن هذه السنن ، أو أنها تختص بذلك الزمان ، و هذه من مميزات الأسلوب القرآني في التربية . إذ يشد الإنسان اليه ، و يحمله مسؤولية النظر ، و التفكير ، و البحث المنهجي.

[41] و يؤكد القرآن الحقيقة الأنفة اذ يقول:

[و جعلناهم أنمة يدعون إلى النار و يوم القيامة لا ينصرون]المسألة اذن ليست مسألة شخص فرعون ، بل هو خط في الحياة ، و في آية قرآنية أخرى يقول تعالى : " و جعلناهم أنمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون (1) و ذلك حتى نعرف بأن في الحياة خطين هما : خط الحق المتمثل في رسالات الأنبياء و أنمة الهدى ، و خط الباطل المتمثل في الثقافة الجاهلية و الطواغيت ، و انا الذي اقرأ القرآن أو الذي أعيش في هذا العصر يمكنني أن أكون من الظالمين أو معهم ، فيكون مصيري كمصير فرعون و جنده ، و يمكنني أن أكون مع المؤمنين و منهم ، فتكون لي عاقبة الدار.

و هذه السلطات الفاسدة اليوم هي الإمتداد الفعلي لخط فرعون ، بينما تمثل الحركات الرسالية و العلماء الربانيون الامتداد المبارك لخط الأنبياء (ع).

[42] و الطغاة ليس ينالون جزاءهم في الآخرة و حسب ، بل يتحولون الى لعنة على ألسن الناس في الدنيا ، و يعدون عن رحمة الله.

[و اتبعناهم في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة هم من المقبوحين] (١) الانبياء / ٧٣.

انهم يحشرون بوجوه قبيحة ، لأن الجزء من جنس العمل ، فهذه الوجوه طالما دأبوا على تلميعها ، وتجميلها عبر وسائل الإعلام في الدنيا ، فجزاهم الله بتقبيحها في الآخرة.

بصائر للناس و هدى ورحمة

هدى من الآيات

تؤكد هذه الآيات على الجانب الغيبي للرسالات الإلهية ، فهي ليست قمة في تكامل بشري تدريجي طبيعي كالشهادة التي يحصلها الطالب عندما ينتهي من الجامعة مثلا ، انما هي قضاء إلهي مفاجيء ، يأتي لتصحيح مسيرة البشر بصورة غيبية.

و الرسالة كما في الآية (٤٣) أداة لرؤية الحقائق و توضيحها ، و منهج لمعرفة العلوم ، و هي في نفس الوقت علم و معرفة و هدى ، كما أن الرسالة تأتي لإتمام الحجّة على الناس لكي لا يقولوا غدا : لولا ارسلت الينا رسولا ! فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الإنسان حرافى حياته ، و يمنح فرصة الهداية من قبل الله ، و لم يشأ ربنا العزيز إكراه الناس على الهدى بالرسول جبرا ، فالهداية ذاتها هي مسؤوليتهم ، كالذي يعطيك الكتاب ولا يمنحك العلم ، و انما يوفر لك فرصته ، و هكذا الرسالة بالنسبة للناس ، و يوم القيامة تكون الحجّة البالغة لله علينا ، ثم ان السياق يعتبر صلة بين عبر الأمم الغابرة ، و سنن الرسل السابقين ، و بين رسالة النبي محمد (ص.)

بينات من الآيات

كتاب موسى

[43] [و لقد ءاتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى]

في هذا الشطر يلخص القرآن الدورة الحضارية ، فهي تبدأ برسالة إلهية و شخص أو جيل رسالي ، ثم تنتهي بثقافة جاهلية ، و جيل منحرف ينذر الرب ، فإن لم ينتفع بالنذر أهلكه ، ولا ريب ان هذه الدورة ليست حتمية ، فلو قدر ان تمسك الناس برسالات الله لما أهلكهم الله ، كما قدر لقوم يونس ذلك.

ثم يقول ربنا عن الكتاب الذي أنزل مع موسى:

[بصائر للناس و هدى و رحمة]

في الوقت الذي تكون رسالات الله منهج للرؤية (البصيرة) فانها بذاتها علم و معرفة توصل البشر الى الحقائق ، فمن جهة تعطي الإنسان بصيرة في الحياة تجاه الأشياء و الاحداث ، لأنها تحتوي على سنن الله في الحياة ، و تحمل في طياتها مقاييس و معايير تحدد له الرؤية النظرية السليمة ، و من جهة أخرى تحتوي على العلم و الهدى اللذين يرسمان له الموقف العملي الحق لو اتبعها.

و قد يكون الفرق بين العلم و الهدى : ان العلم هو مجرد اتصال الانسان بالحقائق ، اما الهدى فهو تفاعله معها ، و انتفاعه منها ، وجاء في الدعاء:

"واعوذ بك من علم لا ينفع (1) "

يقصد به العلم الذي لا يعمل به.

و عندما لا يعمل الانسان بالعلم فإنه يضل و يجهل ، بل و ينسى العلم نفسه ، أما حين يعمل به فسوف

تكون النتيجة هي السعادة و اللطف الإلهي (الرحمة) ماديا و معنويا.

و السؤال ماهو هدف هذه الرسالة التي تشتمل على البصائر ، و الهدى ، و الرحمة ؟

[لعلهم يتذكرون]

وماذا يتذكر الناس ؟

يتذكرون ميثاقهم مع الله ، فيعودون الى فطرتهم ، لأن من خصائص الرسالة انها ترفع الحجب عن قلب البشر ، و نستوحي من هذه الآية : أن العامل الأخير في الهدى حركة الانسان نفسه ، فالبصائر و الهدى و الرحمة من عند الله ، أما التذكر فهو مسؤولية الانسان نفسه.

[44] ثم يذكرنا السياق بان النبي لم يكن حاضرا الجهة الغربية التي كان النبي موسى (ع) يسير اليها من مدين الى مصر ، حين استقبل لأول مرة الوحي الإلهي ، و لم يكن هناك من الشاهدين ليصف تلك الحوادث هذا الوصف الدقيق الرائع ، و لكن الله سبحانه أوحى بالقرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه يختلفون ، و هذا دليل صدق هذه الرسالة.

(1) مفاتيح الجنان / تعقيب صلاة العصر.

[وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر]

كلمتان في القرآن احدهما تبين الوضع الطبيعي وهي القدر ، و الأخرى تبين الوضع الغيبي و هي القضاء ، و الفرق أن القدر هو السنن التي أجراها الله تعالى في الخلق ، بلا تبديل ولا تحويل ، أما القضاء فهو الأوامر الغيبية التي تصدر من عنده الى الخليقة فتتجاوز الأقدار جميعا ، فربما يكون قدر الانسان ان يموت اليوم ، فيدفع صدقة لفقير ، أو يدعو الله ، أو يصل رحمه ، أو .. أو .. فيقضي الله ان يتأخر أجله ثلاثين سنة ، و قد يكون قدره العيش ثلاثين سنة فيظلم من لا يجد ناصرا غير الله ، فيقضي الله بوفاته اليوم ، و الرسالة الإلهية نوع من القضاء . إذ ليست ثمة سنة إلهية لو عمل بها البشر لصار رسولا ، فتحول موسى بن عمران (ع) الى رسول ، أو محمد بن عبد الله (ص) الى رسول ما جاء بدراسة في الجامعة ، أو قراءة في الكتب ، انما الرسالة - و كما تقدم في الهدى - هي قضاء إلهي ، يحصل بموجبه الإتصال بين الخلق و الخالق ، عبر رسالة و رسول يجعله الله خليفته في الأرض جعلاً ، ولا ينفي هذا القول أن الله يختار رسله و أنبياءه على أساس صفات و مميزات فيهم.

و في لحظة القضاء قد يتحقق مالا يمكن تحقيقه عبر قرون ، فالرسول (ص) دخل الى غار حراء أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولكنه خرج منه يحمل رسالة تقصر البشر عن بلوغ ذراها أبدا.

[وما كنت من الشاهدين]

و لعل هذه الآية تشير الى ان الحقائق التي رويت في هذه القصة لم تكن واضحة عند أهل الكتاب أيضا ، أو كانت مثار جدل عظيم سواء في تفاصيل ما حدث أو في تفسيرها.

[45] ثم تبين الآية ما يبدو أنه إشارة الى الدورات الحضارية ، حيث أن من عادة البشر نسيان رسالات ربه بعد تطاول القرون ، مما يجعله محتاجا إلى بعث جديد برسالة الهيئة.

[و لكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر]

لقد بقيت البشرية تلفها الظلمات قرونا بعد قرون قبل ميلاد الرسالة ، حيث بدأت الهوة بين الناس و

رسالة موسى (ع) تتسع شيئاً فشيئاً ، حتى نبذوه وراء ظهورهم ، و عشعش الجهل في اوساطهم ، لذا كانوا بحاجة الى رسالة جديدة ، تبعث فيهم الوعي و توقظ الضمير.

[و ماكنت ثاويًا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا] إلا أن عدم وجودك لا يعني أنهم لم تصل اليهم الحجة ، فالحياة قائمة على هذه السنة الإلهية.

[ولكننا كنا مرسلين]

لقد أرسلنا اليهم شعيباً ، كما أرسلنا رسولا الى العرب.

[46] وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك [لعل هذه الآية تؤكد على وحدة الرسالات الإلهية من خلال وحدة أهدافها ، و بالتالي فإن الإيمان برسالة موسى يستلزم الإيمان برسالة الإسلام ، واذ يربط السياق القرآني بين هاتين الرسالتين فذلك لأسباب منها:

- 1أنهما تشكلان خطأ واحدا في الرسالات الاخيرة للحياة ، و رسالة عيسى (ع) إنما كانت امتدادا لرسالة موسى ، و كان هدفه تصحيح مسيرة الناس بعده ، و ليست هي جديدة بحد ذاتها.

- 2لتشابه تفاصيل الرسالتين ، و ان تلك الرسالة كونت أمة في حياة نبيها ، كما صنعت رسالة الاسلام أمة أيضا.

و للرسالة هدفان أساسيان:

أحدهما هداية الناس ، عن طريق التذكرة قال تعالى:

[لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون] فكما بعث الله موسى رحمة ، كذلك يبعث محمد (ص) رحمة ، وفي الآية حجة على أولئك الذين آمنوا برسالات الله السابقة ، و كفروا بالرسالة الخاتمة مع وحدة الملاك ، فكما ان تلك جاءت رحمة من الله كذلك هذه ، فلماذا يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض ؟!

[47] أما الهدف الآخر فهو اقامة الحجّة على الناس.

[و لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلنا إليك رسولا فنتبع آياتك و نكون من المؤمنين] و في الآية اشارة الى ان الناس يعلمون بأهمية الرسالة الإلهية حينما تنبئهم المذاهب ، و يجر عليهم ضلالهم الويلات و الإرهاق.

و لعل السياق يشير هنا إلى سنة إلهية هي : ان الله يصيب هؤلاء الجهلة بمصائب دينوية يحسون بها .. من نقص في الأنفس و الثمرات ، و حروب داخلية تطبخهم ، فيجأرون الى الله طالبيين الخلاص ، فلما يبعث الله فيهم الرسول ليخلصهم اذا هم به يكفرون ، و لعلهم كانوا يريدون الخلاص بلا عمل يقومون به ، أو تحمل لصعوبة الجهاد من أجله ، و يذكرنا السياق - على هذا التفسير - بقصة بني اسرائيل حين طلبوا من نبيهم ملكا ، فلما اختار الله لهم طالوت ملكا ، كفروا به لأنه لم يكن على هدايتهم ، و لم يؤت سعة من المال.

[48] ثم يبين القرآن كيف أنهم يكفرون بالحق ، لأنه يريدونه وفق أهوائهم و مقترحاتهم.

[فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى] من المعاجز كالثعبان ، و اليد البيضاء ، و السبب أنهم لم يكونوا ينظرون إلى جوهر الرسالة وإلا لوجدوها كرسالة موسى (ع) في أهدافها وخطها العام ، بل إن ما جاء به الرسول (ص) هو أعظم من عصا موسى . أوليست عصا موسى آية الهيبة ؟ فكذا القرآن كله آيات.

ومع ذلك يؤكد القرآن ان المشكلة ليست في عدم وضوح الآيات القرآنية بل في نفسياتهم السلبية ،

المعادنة للحق ، و المصرة على الكفر . لهذا يتساءل القرآن:

[أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا و قالوا إنا بكل كافرون] ولا ريب ان الذين يخاطبهم القرآن في هذه الآية ليسوا هم الذين كانوا مع موسى ثم كفروا به ، و لكن السياق يقول أنهم كفروا بموسى (ع) و ربما ذلك ليبين لنا وحدة المنهج و التفكير الذي يوصل الى نفس النتيجة.

[49] [قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين] من مميزات منطق الرسل انه موضوعي و عقلاني للغاية ، فالرسول على عظمته ، وقد هداه الله الى الصراط المستقيم تراه لا يعاند ، ولا يصر مستكبرا في مقابل الدعوات الأخرى ، إنما يقول : اذا كان لديكم كتاب هو أهدى من رسالتي فاني أتبعه ، و هو يعلم يقينا ان لا كتاب أهدى من كتاب الله ، الذي أنزل على موسى و الذي أنزل عليه مكملا و مهيمنا.

ومن أضل ممن اتبع هواه

هدى من الآيات

كيف نميز الحق عن الباطل ، و الصواب عن الخطأ ؟

هناك عدة مقاييس تمكنا من ذلك ، و من بينها:

4=أ - مقياس النتائج : فالمقدمة الصحيحة لا تنتهي الى نتيجة خاطئة ، كما ان المقدمة الخاطئة لا تنتهي الى نتيجة صحيحة ، فالعمل الصالح كمقدمة يؤدي للحياة الفاضلة كنتيجة ، و العكس تماما بالنسبة للعمل السيء.

ب - مقياس الإجماع : المبادئ التي تجمع عليها عقول الناس المجردة عن العوامل الخارجية لا تكون خطأ كالحرية ، و العدالة ، و الصدق ، و غير ذلك من القيم التي يجب البحث عنها و تطبيقها ، فهي إذن جيدة بالإجماع ، بينما تخرز عقول البشر عن الرذيلة ، و الظلم والكذب في كل زمان و مكان.

ج -مقياس الوجدان : ان أي فكرة تثبت في ذهن الانسان انما هي نتيجة لأحد شيئين : فاما تكون نتيجة للعقل و الوجدان ، أو تكون نتيجة للجهل و الشهوة ، و هذا أهم و أسهل من كل المقاييس الأخرى .

و القرآن في هذه الآيات يعالج هذه الحقيقة ، ففي البدء يقول الله : انكم أيها الناس اذا لم تتبعوا هذه الرسالة ، فابحثوا عما هو أفضل منها واتبعوه ، ولكنهم لو كانوا يريدون الهداية لاتبعوا الرسالة لانهم لا يجدون أفضل منها ، و اذ يتركونها فلكي يتبعوا الهوى باعتبارهم يريدون التملص من مسؤولية التعهد و الالتزام بالحق.

فالانسان اذن أما يتبع العقل أو يتبع الهوى ولا ثالث ، ولكن ما هو العقل ؟ وما هو الهوى ؟

العقل هو النور الذي يقربنا الى الحقائق الخارجية ، و يجعلها هي المقياس ، أما الهوى فهو القوة الداخلية التي تجرنا الى النفس ، و مصدره حب الذات ، فالعقل يوجهنا للناس ، بينما الهوى يوجهنا لذواتنا.

و كثيرا ما يتميز الحق عن الباطل بوضوح أمام الانسان ، ولكنهما قد يختلطان فلا يتميزان في بعض الاحيان ، لذلك ورد في الدعاء:

[اللهم أرني الحق حقا فأتبعه ، والباطل باطلا فأجتنبه ، ولا تجعله علي متشابها فأتبع هواي " و من الناس من يهتدي للحق في أعقد الامور بلحظة تفكير ، بينما نجد آخرين على العكس منهم ، و السبب هو أن الفريق الأول يستفيد من عقله لذلك ينمو ، بينما الفريق الثاني لا يستفيد منه فيخبو ، وهذه سنة الله في الحياة ، و قد قال أمير المؤمنين (ع) :

"لا تجعلوا علمكم جهلا ، و يقينكم شكا ، إذا علمتم فأعملوا ، إذا تيقنتم فأقدموا(1) " ثم يشير القرآن الى حقيقة هامة هي : ان قسما من الناس كانوا مسلمين قبل بزوغ فجر الاسلام ، و هناك جماعة يسمون بالحنفيين ، لانهم تركوا عبادة الأصنام لعبادة الله ، مثل ابي ذر الغفاري (رض) و جعفر الطيار الذي قال للرسول : " اربع خصال لم افعلها في الجاهلية ، ما سجدت لصنم قط ، ولا كذبت ، ولا زانيت ، ولا شربت الخمر " و السبب ان الايمان و الكفر حالتان في نفس البشر ، فالذي اعتاد على الانقياد للحق و التسليم له لا يجد صعوبة للايمان بالرسالة ، و العمل بها ، بينما يصعب ذلك على الآخر الذي اعتاد الانهيار أمام الشهوات و الأهواء ، لذلك نجد فريقا من الناس بقي منافقا حتى بعد البيعة.

و في نهاية الدرس يؤكد القرآن أن على الإنسان الأ ينتظر الهداية تأتيه رغما على أنفه ، بل يجب عليه ان يتحمل المسؤولية بنفسه ، و ليس الرسول سوى مبلغ للرسالة.

بينات من الآيات

[50] فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم]

ذلك ان الرسالة تلتقي مع الجانب الخير في الانسان و هو عقله ، و بالتالي يكون الباعث على مخالفتها هو اتباع الهوى .

[و من أضل ممن اتبع هواءه بغير هدى من الله]

الانسان قاصر في ذاته ، فلا بد ان يعالج هذا النقص باتباع هدى ربه ، واسع(١) نهج البلاغة / خ ٢٧٤ / ص ٥٢٤ / صبحي الصالح.

العلم و القدرة ، و لو لم يفعل ذلك فلن يزداد الا بعدا عن الحقيقة.

[إن الله لا يهدي القوم الظالمين]

الهدى سنة عظيمة لا يمنحها الله للظالمين الذين يعتدون على حقوق الناس و حقوق الله ، و من لم يجعل الله له نورا فماله من نور ، و الظلم يكرس حب الذات ، و اتباع الهوى في القلب ، مما يشكل حجابا كثيفا عن الحقائق.

[51] و مشكلة الذين لم يستجيبوا للرسالة ، ليست في غموضها أو قصر شواهدها ، بل لأنهم لا يريدون الهداية ولا التذكرة ، و الدليل انهم كانوا يرفضون رسل الله و رسالاته.

[و لقد وصلنا لهم القول]

أي جعلنا اسباب الهداية متصلة لا تنقطع ، وفي الروايات ان الله بعث مائة واربع و عشرون ألف نبي غير الاوصياء و الدعاة الى الله من أتباعهم.

[لعلهم يتذكرون]

و لم تكن الرسائل الإلهية شيئا غريبا بالنسبة للنفس البشرية ، لأنها تتلاقى مع فطرة الانسان و عقله ، اللذين أودع الله فيهما الحقائق ، و ما الرسالة في غالبيتها الا و سيلة لاستئثار الذاكرة.

[52] و أولئك الذين آمنوا بالكتب ، و دربوا أنفسهم على الانقياد للحق لا يجدون حرجا في التسليم للرسالة الجديدة.

[الذين ءاتيناهم الكتاب من قبله هم به]

يعني بالقرآن الحكيم.

[يؤمنون]

و ذلك لانهم يجدون هذا الكتاب في جوهره مطابقا للرسالة السابقة ، و موافقا للعقل و الفطرة ، لان المؤمنين بالرسالات السابقة كانوا قد روضوا أنفسهم بالحق . و قاوموا جهل قلوبهم و أهوائهم و شهواتهم ، و سلموا - بالتالي - لربهم ، فانهم كانوا مستعدين نفسيا للايمان بالحق.

[53] وإذا يتلى عليهم قالوا ءامنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين [] [٥٤] و يعطي الله هؤلاء أجرهم مضاعفا:

[أولئك يؤتون أجرهم مرتين]

مرة لايمانهم بهذا الكتاب الذي أكمل الله به رسالاته ، و مرة لأنهم آمنوا بالكتاب الذي أنزل اليهم ، و صبروا عليه فلم يحرفوه كما حرفة علماء السوء منهم ، و لم يخضعوا لضغط السلطة و الثروة.

[بما صبروا]

على الاذى الذي لا قوة بايمانهم بالكتاب ، و لعل أعظم الثواب كان لهم بسبب صبرهم أيام الفترة ، حيث سيطر الطغاة ، و انحرف الناس ، و لم يبق الا بقية مستضعفة من المؤمنين أمروا بالصبر ، و العمل بالتقاة ، و رد أذى الكفار و المنحرفين بسعة الصدر ، و حسن الخلق ، و العطاء ، و عدم الخوض في الجدل العقيم مع المنحرفين.

و على هذا يكون معنى الصبر ما بينه السياق لاحقا ، و تكون هذه الآيات بيانا لمنهاج المؤمنين في عصر التفتية ، و يتخلص في : الصبر ، و العفو ، و الانفاق ، و الاعراض عن لغو الجاهلين.

[و يدرون بالحسنة السيئة]

لقد تقدم أن الظالم يتبع هواه على حساب عقله ، و بالتالي تتضخم ذاته على حساب الآخرين ، أما المؤمن فعكس ذلك : يكبح جماح نفسه و هواه ، فينمو عقله ، فهو يفكر في الآخرين ، فاذا أخطأوا عليه درأهم بالحسنات ، و إذا احتاجوا سد حاجتهم.

[و مما رزقناهم ينفقون]

[55] ثم أنهم طوعوا أنفسهم ، و روضوا أهواءهم ، و حددوا حب ذاتهم عن طريق الإعراض عن اللغو ، و هذا ما ينمي العقل ، لانه يخالف الهوى.

[و إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه]

لان طموحاتهم و أهدافهم أسمى من الأهواء و الشهوات ، لذلك لم تستفزه إثارات الجاهلين ، و لم ييوحوا بأسرارهم ، و لم يخوضوا في الجدل الذي لم يؤمروا به ، بل إذا طالبهم الجاهلون بالحجة - جدلا - أعرضوا عنهم.

[و قالوا لنا أعمالنا و لكم أعمالكم]

هدف هؤلاء أبتغاء رضوان الله ، و ليس العلو في الارض ، و التظاهر ، و الفخر ، و الغرور بما لديهم ، لذلك لا يستفزه الجاهلون ، ولا يثيرهم سيهم ، و طلبهم للبراز في ميدان الجدل.

[سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين]

هكذا يقاوم المؤمنون محاولات التحريف بالإستقامة أمام الضغوط ، و عدم التأثير بالمحيط الإجتماعي الفاسد ، و الى هذا دعى الإسلام أبناءه.

قال الامام علي (ع): (

"كن في الناس ولا تكن معهم "

[56] وفي آخر آية يحدد الله مسؤولية حامل الرسالة و هي التبليغ ، اما ان يجبر الناس على الهداية ، فليس ذلك من شأنه ، لان الهداية لا تتأتى لاحد الا بسعيه و توفيق الله له.

[إنك لا تهدي من أحببت و لكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين]

و كم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها هدى من الآيات

للانسان موقفاً متناقضاً تجاه النعمة ، فإما الشكر و إما الكفر.

الشكر ان تكون النعمة سبيلاً للوصول الى هدفها ، فكل شيء في الحياة هو وسيلة لهدف أسمى منه ، فالنشاط و سيلة للسعي ، و السعي و سيلة لعمارة الأرض ، و عمارة الارض و سيلة لرخاء الإنسان وراحته ، و الرخاء و الراحة و سيلة للكمال الروحي ، و هكذا تستهدف من كل نعمة نعمة أخرى أعظم منها ، في سلسلة متصاعدة و يكون المنتهى فيها ما قاله عز وجل : " وان الى ربك الرجعى. "

و الشكر الحقيقي هو الذي يوصل الانسان ، الى التفكير في عوامل النعم و أسبابها ، و بالتالي المحافظة عليها ، لندوم له النعم ، حيث ان بقاءها مرهون ببقاء عواملها ، فظاهره الصحة - هذه النعمة - باقية مادامت الوقاية ، و مادامت سلامة النفس و الحركة ، هذا منجهة.

و من جهة أخرى نجد موقف الكفر ، و الذي يتخلص في ثلاثة أمور هي : عدم الإهتمام بعوامل النعمة أولاً ، و عدم السعي لتحقيق أهدافها ثانياً ، و اتخاذ الموقف الخاطيء منها ثالثاً.

و في هذا الدرس نجد معالجة عميقة لهذين الموقفين - الشكر و الكفر - فمع أننا لا نجد هاتين الكلمتين الا ان الآيات - من هذا الدرس حتى قصة قارون - تحدد للانسان الموقف السليم من النعمة.

إن أهل مكة من العرب كانوا يتصورون ان النعمة التي يتقبلون فيها ناشئة من الوافع القائم ، حيث عبادة الأصنام ، و فرض السيطرة على العرب من خلال الموقع الاقتصادي و الاجتماعي ، لذلك لم يكونوا يريدون الإيمان بالرسول (ص) خوفاً من تمرد العرب ضدهم ، و بالتالي خسروا هذه المكتسبات ، فأجابهم الله:

أولاً : انكم لم تعرفوا السبب الحقيقي للنعمة . انه ارادة الله ، و حكمه الذي قضى بحرمة البيت ، و هكذا اذا تمسكوا بسائر أحكام الله نزلت عليهم البركات لا تلك القيم الفاسدة التي تتصورونها ، و بالتالي فان الإيمان به و برسوله سوف يزيد هذه النعمة و يحافظ عليها.

ثانياً : ان النعم قد تكون نعمة على صاحبها ، و ذلك عندما تخدعه و تدعوه للغرور ، فكم هي القرى التي تصاعدت في مدارج النعم المادية الى ان بطرت معيشتها فدمرها الله بسبب كفر أهلها ، بعد ان أقام الله عليهم الحجة ببعث رسله و انبيائه ، و اذ يشير الله الى ماألت اليه تلك القرى ، فان في ذلك إنذاراً لاهل مكة.

ثالثاً : ثم لو افترضنا جدلاً أنها لم تكن من عند الله ، فان دعوة القرآن لهم ليست من أجل الرخاء المادي

فحسب ، بل من أجل نعيم الآخرة الذي لا يحصأياً ، و لو انهم خسروا هذا النعيم المحدود بسبب إيمانهم بالرسالة ، فان الله سيعوضهم ما هو أفضل منه في الدار الآخرة ، فكيف و الحال ان الايمان بها يمنحهم مزيداً من النعيم في الدنيا ، و الثواب في الآخرة؟!

و الدرس بمجمله يطهر القلب من أدراخ حب الدنيا المانعة من الايمان بالرسالة ، و ذلك من خلال بيان خطأ موقف أهل مكة الذين لم يبادروا الى الايمان خشية فقدان مصالحهم العاجلة.

بينات من الآيات

[57] ترى بعض النظريات ان المدنية تورث الخوف لأن أهلها يريدون الإحتفاظ بمكتسباتها ، فيقدمون التنازلات لدرء الاخطار عن أنفسهم ، و لعل أهل مكة كانوا في هذه المرحلة . اذ كانوا يخشون من الاصطدام مع قبائل العرب حتى لا يخسروا مكتسباتهم ، و كانت القضية التي يتوقع انها تثير العرب ضدهم هي ايمانهم بالرسالة الجديدة ، فكفروا بها و قالوا : نخشى ان تزول حالة الأمن التي نعيشها لو أننا أمانا ، فتتطفق العرب باقتحام بلدنا ، و اختطافنا من الارض.

[و قالوا ان تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا]

و في هذا الحديث اعتراف منهم بان سبب كفرهم بالرسالة ليس في نقص الادلة ، بل اتباعهم الهوى المتمثل في مصالحهم الخاصة ، و قد رد الله عليهم:

1/ ان مصدر هذه النعم هو الله ، و ليس الناس حتى يتصوروا ان الاختلاف معهم سوف يؤدي الى زوالها ، فالله هو الذي جعل الكعبة محلاً آمناً ، و فرض على الناس جميعاً و من فيهم العرب - من الناحية التشريعية الدينية - الإلتزام بحرمتها و الا لما كانت مكة بلداً آمناً في عرف قوم شعارهم الخوف ، و دنارهم السيف ،

ولهمجوا عليها ، و حطموا الحضارة الناشئة فيها.

و لو كان ثمة قانون يمنعه من ذلك لمنعه من التقاتل . ان الذي يمنعه هو القانون الإلهي منذ أيام إبراهيم (ع) بحيث لو التجأ الصيد الى الحرم ما كانوا يضطادونه احتراماً للكعبة ، حتى قال شاعرهم:

و المؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين العيل و السلميعني فسمما بالله الذي أعطى الأمان للطيور التي تستعيز بالحرم ، حتى ان القوافل التي تذهب الى مكة ليمس على ظهرها ، و لكن قريش لم يعقلوا هذا العامل الأساسي ، لما يتمتعون به من أمن و رفاه ، لذلك لم يشكروا الله ، و لم يؤمنوا برسالة الإسلام ، و لو أنهم فعلوا ذلك لاستزادوا من الامن و البركة.

[أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء] ان أهم النعم لدى أهل مكة كانت هي : الأمن الآتي من حرمة الكعبة ، و الرفاه بسبب سيطرة أهلها على التجارة ، و بسبب توافد الحجاج الى البيت الحرام . كانوا يحملون معهم خيرات الأرض بالرغم من أن مكة كانت بين جبال و عرة ، و أراض جرداء.

[ورزقا من لدنا و لكن أكثرهم لا يعلمون]

لقد ذكرنا مرة ان هناك فرقا بين الرزق و الكسب ، فالرزق هو ما يعطيه الله للانسان هبة و عطاء ، و ربما بدون سعي ، بينما الكسب هو ما يعطيه الله له بعد السعي ، و الآية تبين ان نعمتي الأمن و الرخاء التي كانت و لا تزال لأهل مكة ، لم يسع أهلها من أجلها سعياً ، و انما الله هو الذي تفضل عليهم بهما ، و عدم إدراكهم لهذا العامل - الذي جاءت بسببه هاتان نعمتان - هو الذي جعلهم يبطرون بالنعمة ، و يكفرون بالرسالة ، بدل أن يشكروا الله عبر الإيمان برسالته ، و طاعة القيادة التي فرضها.

و لعل الآية تشير إلى أهمية التشريعات الرشيدة في بناء الحضارات ، و ان القيم الالهية هي السبب في بركتي الأمن و الرخاء للناس.

2 / [58] قد تضحى النعمة نعمة على أصحابها ، و ذلك اذا صارت هدفا بذاتها ، بينما ينبغي للانسان ان يشكر ربه عليها ، و ان شكر أهل مكة الله على نعمتي الأمن و الرخاء يتمثل في الايمان برسوله ، و هذا هو السبيل الأوحى للحفاظ على النعم و منع تحويلها الى نعمة ، و هكذا يبقى الضمان الوحيد لاستمرار الحضارات اتباع رسالات الله و رسله ، و من ابرز فوائد الرسالات كبح جماح الانسان من الاسترسال مع النعم الى حد البطر والطغيان و الغرور ، حتى ينسى الحدود ، و يتجاهل الحقوق ، و يندفع في اتباع اللذات الى أبعد مدى.

[و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها]

و الله لا يدمر القرى لمجرد انها مرفهة ، و كيف يكون ذلك و قد خلق البشر ليرحمهم ؟ كلا .. إنه هو الذي و فر النعم للناس ، و يخطيء أولئك الذين يصورون الدين بأنه يعارض النعم بذاتها ، مفسرين الآيات و الروايات التي تتناول موضوع الزهد : بان الدين لا يجتمع مع الدنيا ، أو السياسة . كلا .. إنما دمرها لأنها بطرت بالنعم ، و أصابها الغرور ، و لم تصل بالنعم الى اهدافها.

[فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا و كنا نحن الوارثين] لقد سكنت من بعدهم تلك المساكن و لكن قليلا ، لأنها كانت لا تزال منحوسة ، مما جعل ساكنيها الجدد يرحلون عنها سريعا ، و لعل الآية تشير الى سنة إلهية هي : ان البلاد المدمرة بالعذاب لا تبقى فيها مقومات الحضارة ، و هكذا لا نجد الحضارة قد تجددت في ذات المواقع التي دمرت ، مما تجعل نتائج البطر بالمعيشة تمتد الى المستقبل البعيد.

[59] ثم يبين الله - و خلافا لنظرية الحتمية التاريخية التي تتصور الدورات الحضارية مرهونة بالزمن ذاته - ان العامل الاول في الدورات الحضارية بعد ارادة الله هي ارادة الانسان ، فلو بقيت أمة تسير في الخط السليم ، فستبقى تتقدم و تتطور أكثر فأكثر ، و لن يؤثر فيها الزمن بذاته ، و الله لا يسلب حضارة قوم أو يهلكهم هلاكاً مادياً ، إلا بعد تحقق أمرين:

الاول : اقامة الحجّة

[و ما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا]

و قال في آية أخرى : " و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " و يعلل الله عز وجل هذا الامر في الآية (٤٧) من نفس السورة اذ يقول : " ولولا ان تصيهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك و نكون من المؤمنين " و بعث الله رسولا في أم القرى يتناسب مع هدف اقامة الحجّة ، و قد لا يقصد القرآن من كلمة الام المدينة الاكثر سكانا ، بل الانسب حيث تصل أصداء الرسالة منها الى أوسع رقعة من الارض.

الثاني : الظلم

فبالإضافة الى أن سنن الله تقتضي زواله ، و دمار أهله ، فانه يحمل عوامل انهياره فيه ، فالطاغوت الذي يظلم الآخرين ، و يسلب حقوقهم لا يسلم من ردة الفعل ان لم ينزل عليه عذاب مباشر من الله كالمرض و الغرق و ما الى ذلك.

[و ما كنا مهلكي القرى إلا و اهلها ظالمون]

و الظلم هو الصورة العملية لرفض رسالات الله ، بل لمحاربة الله تعالى.

و كلمة أخيرة : ان قسما من الناس يتصورون بأن الإيمان بالله ، و الالتزام برسالته ، و بما يتضمنه كل ذلك من الالتزامات المالية ، أو التحديات السياسية و ما شابه سوف يسلب منهم النعيم ، بينما سنة الحياة تقتضي بالعكس ، حيث يهلك الله الذين يكذبون برسالاته ، و العبرة جلية في التاريخ ، و بالتالي فمن الأولى أن يخشى أهل مكة من عاقبة رفضهم للرسالة ان يفقدوا كل شيء لا من إيمانهم بها ، أو ليس الشكر هو التفكير في عوامل النعمة ، و الحفاظ عليها ، و بالتالي الحفاظ على النعمة ذاتها ؟!

3 / [60] إن الهدف الأسمى الذي يجب ان يسعى الإنسان من أجله هو نعيم الآخرة لا حطام الدنيا ، و الدنيا يجب ان تكون و سيلة تخدم الغاية العظمى للبشر . الا ان الكثير من الناس يتوقفون عند الوسيلة ، و تضحى عندهم هدفا ، و ذلك لضالة طموحاتهم ، و ضيق افقهم.

[و ما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا و زينتها]المتاع هو الوسيلة لتحقيق هدف ما ، و بتعبير آخر الضروريات ، و متاع المسافر هو ما يحتاجه لسفره ، و الزينة و سيلة التجميل أي الكماليات.

[و ما عند الله خير]

من حيث النفع و الإفادة (البعد المادي.)

[و أبقى]

من حيث الدوام (البعد الزمني.)

[أفلا تعقلون]

ان في الانسان جانبان ، هما العقل و الشهوة ، و طبيعة النفس البشرية انها ميالة للهوى ، و الله لم يقل : تخلوا عن الدنيا بكاملها ، و انما حمل الانسان مسؤولية الإختيار السليم الذي تدعو له رسالات الله و عقل الانسان ، و هل يختار عاقل المتاع و الزينة الزائلين على الخير الدائم؟!

ان التعقل الذي تدعو له الآية الكريمة ، هو ان يجعل الانسان الدنيا و سيلة للآخرة ، و لن يتضرر الانسان لو خسر الدنيا (و تخطف من ارضه) اذا كان ذلك في سبيل الله ، و لو أننا وقفنا على مفترق الطريق بين زينة الدنيا و نعيم الآخرة ، فان واجبنا أن نختار الآخرة على الدنيا ، وهذا ما يحكم به العقل السليم.

[61] و لهذا نجد القرآن يؤكد:

[أفمن و عدناه و عدا حسنا فهو لاقية كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين
[من مشاكل النفس البشرية أنها تميل للأشياء الحسية الآنية ، و الانسان ينساق وراء الدنيا لانها بين يديه ، و يرفض الآخرة لانها مؤجلة ، و مثل الانسان الذي يختار الدنيا على الآخرة كالذي يفضل دينارا واحدا حاضرا ، على مليار دينار غائب ، تتأخر عنه يوما او بعض يوم.

و ربك يخلق ما يشاء و يختار

هدى من الآيات

لماذا يكفر المرء بكتاب ربه و برسوله ؟ و كيف ينبغي ان نتجاوز عقبات الايمان بهما ؟

في درس سبق تلونا آيات تنسف عقبة عبادة الهوى ، و رعاية مصالح الدنيا ، و لكن هل كل الناس تأسروهم مصالحهم ؟ فكيف بهؤلاء المحرومين الذين يكفرون بالرسالات أيضا ؟

الجواب : انهم يتبعون مترفيهم ، و يتخذونهم آلهة يشركون بهم ربهم ، أو ليسوا يسمعونهم دون تفكر ، و يخضعون لهم و ما أنزل الله لهم سلطانا؟!

هكذا يعالج القرآن في هذا الدرس مرض الشرك لنعرف ان توحيد الله الخالص منهج كل هدى ، و سبيل كل صلاح.

و الشرك في القرآن الحكيم ، هو ان يعتقد الانسان ، بأن شيئا أو شخصا غير الله يهيم مع الله على أحداث الكون و متغيرات الحياة ، و يبين لنا القرآن عبر آياته الكريمة العوامل النفسية للشرك ، و يطهرها من هذه العوامل.

و في هذا الدرس يصور لنا الله مشهدا من القيامة . إذ يقف المشركون مع آلهتهم المزيفة للحساب ،
فيسأل الله الشركاء المزعومين : لماذا اتخذوكم آلهة من دوني ؟ و لماذا أضللتهم الناس ؟

فيكون جوابهم : اننا بدورنا كنا ضالين أيضا ، و نستفيد من هذا الحوار أمرين:

الاول : ان المشركين اتبعوا بشرا مثلهم ، فليس الشرك - اذن - محصورا في عبادة الأصنام و التماثيل
الحجرية . إذ ليس معقولا ان يحمل الحجر مسؤولية شرك الآخرين به ، كما لا يصح للحجر الهدى أو
الضلال حتى يقول : " أغويناهم كما غوينا . "

الثاني : ان معنى الشرك هنا هو الشرك الثقافي ، اذا ان الناس اتبعوا مجموعة آراء و عقائد من دون
ان يتبينوا ، أو ان يكون ثمة حجة و برهان من عند الله عليها ، فلا هم اتبعوا عقولهم ، و لا هم اتبعوا
الحجة الإلهية ، و يتضح هذا في قولهم " كما غوينا " إذن الغواية هي الضلال المنعمد و علماء السوء ،
و الصحفيون المأجورون ، و المفكرون المنحرفون مثال واضح لهؤلاء ، فهم بدورهم يضلون و يضلون . و اتباع
هؤلاء الفريق يجب ان يكون مبنيا على بينة و حجة واضحة والا فهو شرك.

و نستوحي من تواصل الحديث حول الشرك و القيادة الشرعية التي يختارها الرب : ان الله قد خلقنا وهو
الذي يختار و لسنا نحن المخلوقين ، اقول : نستوحي من ذلك : أن اتباع أولياء الشيطان هو الشرك
بعينه ، بل أي متابعة لم يأذن بها اللهشرك أيضا.

كما نستوحي من سياق الآيات التالية : ان اتباع الرسول و خلفائه تطبيق عملي لعقيدة التوحيد في
الحياة ، ذلك لأن ربنا يذكرنا فيها بانه هو الله لا اله الا هو.

و يبدو ان هذا الدرس - اجمالا - يكرس شرعية قيادة الرسل ، و زيف القيادات الجاهلية.

بينات من الآيات اغويناهم كما غوينا

[62] في يوم القيامة يجمع الله الآلهة المزيفة ، و الذين عبدوهم من دون الله ، ثم تبدأ فصول المحاكمة
التي تجري على الملأ العام ، و نستفيد ذلك من كلمة " يناديهم . "

[ويوم يناديهم فيقول أين شركاءي الذين كنتم تزعمون]و التعبير القرآني ذروة في البلاغة ، ان ربنا
يسميهم بالشركاء ، و يتساءل أين هم الآن ليجعل وجدانهم يجيب قبل ألسنتهم ، بل ليجعلهم يبلغون
الحقيقة اليوم بنقلة و جدانية خاطفة قبل ان يتورطوا في العذاب في ذلك اليوم ولات حين مندم.

في ذلك اليوم ليس فقط

يتبرأ التابعون حين يرون العذاب من المتبوعين ، بل يبادر هؤلاء بالاعتراف الصريح بغوايتهم.

[63] فيجيب الذين سبقوا الى الضلالة ، و هم طلائع أهل النار و أئمتها:

[قال الذين حق عليهم القول]

هؤلاء قد ثبت عليهم القول في الدنيا قبل الآخرة . إذ اضلمهم الله بظلمهم ، و سلب منهم مصباح العقل ،
و نور القلب ، و تركهم في ظلمات يعمهون.

و نجد هؤلاء ينطقون في الموقف . أو ليسوا في الدنيا و ضعوا ناطقين باسم تابعيهم؟! دعهم اليوم
يعترفون بأنفسهم على غوايتهم ، وهؤلاء يدخلون النار من دون حساب.

و تلخص الآية موقفهم في نقطتين:

الاولى : الاعتراف بالضلالة:

[ربنا هؤلاء الذين أغوينا]

أي اضللناهم عن الطريق المستقيم.

[أغويناهم كما غوينا]

فنحن بدورنا كنا ضالين ، و ما فعلناه أننا عكسنا ضلالتنا عليهم ، و هكذا تنكشف الحقائق كلها يوم القيامة ، قال تعالى : " لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " (١) الثانية : البراءة من المشركين:

[تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون]

لعل معناه : انهم في قرارة أنفسهم كانوا يعلمون بأننا لسنا بألهة ، و انما عبدونا(١) ق / ٢٢

لشهواتهم و اهوائهم ، و اذ ينقل القرآن هذا المشهد من القيامة ، فلكي يستثير وجدان الانسان نحو عدم اتباع الآلهة المزيفة من الطغاة و القوى الاجتماعية المختلفة . اذ كيف يتبع شخصا أو جهة تبرأ منه حين العسرة؟!

[64] ثم يتوجه الخطاب الى التابعين و المشركين بالله:

[و قيل ادعوا شركاءكم]

ليخلصوكم من العذاب.

[فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون] و تحتمل الآية معنيين:

- 1 ان المشركين حينما يرون العذاب يتمنون في أنفسهم لو كانوا مهتدين من قبل في الدنيا.

- 2 ان المشركين كانوا يرون هذه النتيجة منذ كانوا في الدنيا لو أنهم كانوا يتبعون الهدى ، لم يقعوا فيها الآن ، لان الذي يتبع هدى الرسالة يكتشف نتائج الشرك و هو العذاب.

[65] تجري محاكمة المشركين الذين اطاعوا كبراءهم و مترفيهم من دون ان يأذن الله لهم في ذلك ، و يسألون عن موقفهم من الرسل و خلفائهم الشرعيين الذين هم القيادة الحق لهم.

[و يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين]

فهل اطعموهم ؟

ان القيادة المنتخبة من قبل الله ميزان في الدنيا بين الحق والباطل ، و ميزان في الآخرة بين الجنة و النار ، و لذلك يسأل الناس عنها يوم القيامة.

نقرأ في النصوص ان أبا حنيفة - امام المذهب - يحاور الامام الصادق (ع) في الآية " ثم لتسألن يومئذ عن النعيم . "

فيسأله الامام عنها

"ما النعم عندك يا نعمان ؟ قال : القوت من الطعام و الماء البارد ، فقال الامام (ع) : " لئن اوقفك الله بين يديه يوم القيامة ، حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها ، أو شربة شربتها ليطولن و قوفك بين يديه " قال : فما النعيم جعلت فداك ؟ قال:

"نحن أهل البيت النعيم الذي انعم الله بنا على العباد ، و بنا ائتملوا بعد ما كانوا مختلفين ، و بنا ألف الله قلوبهم فجعلهم إخوانا بعد ان كانوا اعداء ، و بنا هداهم الله للاسلام ، و هم النعمة التي لا تنقطع ، و الله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم و هو النبي (ص) و عترته (ع) " (١)

[66] [فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لايتساءلون [فهناك خرست السنة الأنباء ، و عميت عيونها ، و توقفت المصادر الخيرية فلم تحمل حقيقة ، لذلك عاشوا في منتهى الحيرة ، و لم يسأل بعضهم بعضا شيئا ، لانهم جميعا في الجهل شرع سواء ، و ذلك لبلاغة الحجة الإلهية التي لا تترك لهم مجالا للتبرير

(1) بح / ج ٧ / ص ٢٥٨.

[67] [نعم لو ضل الانسان لفترة من الزمن عن اتباع القيادة الرسالية أو الانتماء الى صفوف التجمعات الرسالية ، لكنه تاب بعد ذلك ، فان الله يقبل توبته:

[فأما من تاب وءامن و عمل صالحا]

و شرط قبول التوبة هو الرجوع عن الخطأ بمحو آثاره الباطنية من النفس عن الايمان بالرسالة ، و آثاره الظاهرية من السلوك بالعمل الصالح ، اذ لا يكفي ان تفتح مع الله صفحة جديدة ، بل لابد ان تملأها بعمل الصالحات.

فالضباط الذين أنتموا الى جيش الطاغوت يمكنهم ان يتوبوا بالتمرد على النظام الفاسد ، و الانتماء و العمل في صفوف الحركة الاسلامية ، كما فعل الحر بن يزيد الرياحي (رض) حينما ترك معسكر ابن زياد ، و حارب بين يدي الامام الحسين (ع) حتى الشهادة.

[فعسى ان يكون من المفلحين]

و يستخدم القرآن كلمة " فعسى " التي يستفاد منها الإمكان ظاهرا و ليس التحقيق ، حتى يتضح لنا عظم الذنب فلا نصاب بالغرور ، أو الرجاء المفرط الذي لا تقل نتيجته سوءا عن القنوط التام من رحمة الله ، كما ان بقاء عقدة الذنب في نفس الإنسان من صالحا إذا كان يدفعه للعمل و السعي الاكثر في سبيل الله . طمعا في مرضاته عز وجل.

و ربك يختار

[68] [و ربك يخلق ما يشاء و يختار ما كان لهم الخيرة]

ان فطرة الانسان و عقله يهديانه الى ان مالك الشيء هو الذي يحق له التصرف فيه ، و مالك الخليقة هو الذي يصح له التصرف فيها لانه خالقها ، و لان الانسان جزء من الخليقة فلا بد ان ينتظر إذن الله في اتباع القيادة التي يعينها سبحانه ، فليس من المقبول - و جدانا - ان يخلقني الله ثم اختار لنفسني دونه القيادة السليمة و الولاية الضرورية.

قال الامام الصادق (ع) في تفسير هذه الآية:

"يختار الله عز وجل الامام ، و ليس لهم ان يختاروا " (١) و في اصول الكافي عن الامام الرضا (ع) في فضل الامام و صفاته قال:

" (5) لقد راموا صعبا ، و قالوا إفاكا ، و ضلوا ضلالا بعيدا ، و وقعوا في الحيرة اذ تركوا الإمام عن بصيرة " زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل و كانوا مستبصرين " رغبوا عن اختيار الله و اختيار رسول الله الى اختيارهم ، و القرآن يناديهم: " و ربك يخلق ما يشاء و يختار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله و تعالى عما يشركون " و قال عز وجل : " و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله و رسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم " (٢) [سبحان الله و تعالى عما يشركون]

و في الآية تأكيد على ان اختيار قيادة غير إلهية ، و التي تعرف بالتعيين المباشر ، أو من خلال المقياس المبدئية يعتبر نوعا من الشرك.

(1) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٣٦.

(2) اصول الكافي / ج ١ / باب فضل الامام و حجته.

[69] و لا يحق لنا حينما نعرف القيادة الحقيقية ان نتركها الى غيرها بمختلف التبريرات ، أو بالهوى في مقابل النص و المقياس الإلهي ، فأننا مهما أخفينا الأسباب و الدوافع ، الا أن الله يعلمها.

[و ربك يعلم ما تكن صدورهم]

الأسباب الباطنية.

[وما يعلنون]

الأسباب الظاهرية.

[70] فإذا أردنا اختيار قيادة فلا نختار غير ما يريد الله لأنه الهنا ، فهو أولى بنا من أنفسنا ، و هذا معنى التوحيد.

[و هو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى و الآخرة وله الحكم و إليه ترجعون] فالذي خلق و احاط علمه بالغيب و الشهادة احاطت رحمته الخلق في المبدأ و المصير ، وهو المهيم على شؤون الخليقة . انه الحميد الذي يختار لنا إمامنا الذي نطيعه.

و أحسن كما أحسن الله اليك هدى من الآيات

الإله في اللغة هو ما يتأله اليه بالبراءة (١) و يرجع اليه عند الشدائد ، و بالتالي هو الذي ينبغي ان يتخذ وليا ، و في هذا الدرس الذي يذكرنا برينا عسى ان نسقط الشركاء من حسابنا ، و نخلص العبودية لرينا ، و نطيع من أمرنا بطاعته من رسله و أوليائه ، و نتمرد ضد الطغاة ، و الظالمين الذين اتخذوا من دون الله أندادا ، و يتساءل السياق عن الآله الحقيقي ، الذي يجب ان يتخذه الإنسان وليا و نصيرا ، و قائدا و مولى ، ثم يقول مباشرة : " افلا تسمعون " افلا تبصرون . "

و كثيرا ما تتكرر هذه الصيغ و شبيهاتها " افلا تعقلون " ، افلا تذكرون .. الخ " في القرآن ، و في ذلك تأكيد لفكرة مهمة هي : ان وجود الآيات و حدها في الكون لا (١) قال ابن الاعرابي الأل كل سبب بين اثنين و قال ابن الفارسي : الأل : الربوبية ، و قال الفراء : الأل رفع الصوت بالدعاء و البراءة ، و يبدو ان ما ذكرناه أنفا يجمع المعاني المختلفة للكلمة . راجع معجم مقاييس اللغة / ج ١ / ص ٢٠ - ٢١.

يكفي ، بل لابد من وجود جهاز استقبال عند البشر حتى ينتفع البشر منها ، فهل ينفع نور الشمس من أغمض عينيه ؟!

ان الله هو الذي جعل الليل سكنا ، و النهار ميدانا للسعي و النشاط ، و هو الذي يقدر حياة الخلق و موتهم ، و المطلوب منا ان نتخذة إلها حقا ، و ذلك بان نستمتع لرسله ، و نصبر آياته ، ثم نعقلها لنعرف الحقائق.

نجد في الآيات الاخيرة من هذا الدرس اشارة بل توضيحا لفكرة القوة المالية في الحياة ، فما هو الهدف من النعم الالهية على البشر ؟

ان الهدف من النعم هو الوصول الى الكمال الروحي ، و العروج بقيم الانسان و روحه في مدارج المجد و العظمة عبر الشكر لله ، و الذي يمثل الأثر الإيجابي المنبعث عن وجود النعم ، و ذلك أسمى من الرفاه و الرخاء المادي ، و من لا يشكر النعم تتحول لديه الى نقمة منالناحية النفسية ، فترى نعمة الفراغ تتحول عنده الى قلق و ضياع ، تجده بدل ان يصرف الملايين التي يمتلكها في سبيل راحة نفسه و عائلته و أمته ، يذهب بها للفساد فيحطم شبابه ، ثم يعود صفر اليدين.

و شكر النعمة هو الذي يجعلها نافعة ، بينما الكفر بها يحولها نقمة على صاحبها ، و يتمثل الشكر في الانتفاع بها ضمن الحدود المشروعة لأهداف خيرة ، و قارون كان بعكس ذلك تماما ، فقد اعطاه الله من الكنوز ما تنوء مفاتها بالعصبة الاقوياء ، لكنه بدل ان يستفيد منها ، وهو من شعب مستضعف كفر بها و بربها كما يذكر القرآن ذلك في الدرس القادم ، و لكن السؤال : ما هي مناسبة الحديث عن قصة قارون ، و بالضبط عند الحديث عن القيادة ؟

الجواب : ان الانحراف البشري عن القيادة الصحيحة ، يتم بسبب ضغطاًحدى القوتين:

فأما قوة الارهاب و السيف ، أو قوة المال و الثروة ، و اذا كان فرعون مثلا للقوة الاولى ، فان قارون مثل للقوة الثانية ، و اذ يضرب الله لنا هذه الامثال فلكي يقيم الحجة علينا ، فلا نلتف حول صاحب الثروة لماله ، و لا حول من يملك الحكم لقوته.

بينات من الآيات

[71] لا ينكر أحد بأن الذي أضاء بنوره الارض و ما فيها هو الله ، و يعرف الكل أنه الأحق بالطاعة ممن لا يملك نفعا ولا ضرا ، و لا ضياء ولا هدى من جابرة الارض و مترفيها.

بلى .. يعرف الناس جميعا هذه الحقيقة ، و لكنهم لا يعقلونها ، فتراهم يركضون وراء الطغاة و المفسدين طمعا في بعض الثروة ، أو خشية من اذاهم.

[قل أرئيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا]

دائما و مستمرا.

[إلى يوم القيامة]

و هذا هين على الله ، فهو يستطيع ان يحجب نور الشمس لتتحول الأرض ظلاما دامسا ، و لو فعل ذلك لما استطاع أحد ان يعيد النور مرة أخرى.

[من إله غير الله يأتيك بضياء إفلا تسمعون]

[72] ثم لو جعل الله ابدا سرمدا ، هل يقدر من نعبدهم من دونه على المجيء بالليل لتسكن فيه ، و نعمم بهدوته الذي ينفذ حتى في عظامنا . ، و أنسجة أعصابنا.

[قل أرئيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون] و بالمقارنة بين الإيتين نستفيد فكرتين مهمتين:

الاولى : ان الله قال في الآية " : (71) يأتىكم بضيء أفلا تسمعون " من دون ان يبين فائدة الضياء ، بينما قال في الآية (٧٢) : " يأتىكم بليل " و بين إحدى فوائده " تسكنون فيه " و لعل ذلك لان الانسان ينام بالليل ، فلا يتفكر في أهميته فاقضى التنبيه.

الثانية : انه عز وجل قال في حديثه عن الليل : " أفلا تسمعون " بينما قال في حديثه عن النهار : " أفلا تبصرون " لأن الحاسة التي يمكن للإنسان الإستفادة منها في الظلام هي السمع ، لأنه لا يرى فيه ، بينما يعتمد أكبر شيء في النهار علىحاسة البصر.

و يبدو ان معنى الآية : أفلا تسمعون عن نعمة الليل ، أفلا تبصرون نعمة النهار.

[73] و من رحمته جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا فيه [أي في الليل.

] و لتبتغوا من فضله]

في النهار ، كأمر طبيعي بالنسبة للإنسان ، و الليل و النهار يبعثان حالة الشكر و الرضى في البشر.

[و لعلكم تشكرون]

و ذلك ل:

1- لان نفس الانسان لا ترتاح على نمط واحد ، بينما التنوع يرضيها و يبعثها على الشكر.

2- الذي يعمل بالنهار و ينام بالليل يحصل على وقت للتفكير في إنجازاته فيرتاح ، و للتفكير في مستقبله فيخطط له ، و حينما يأتي لعمله في النهار يكون قد أخذ قسطا من الراحة والاستعداد لبذل جهد و نشاط أفضل.

3- ثم ان هدف المؤمن من الحياة أسمى من الماديات ، فهو من وراء النعم يسعى للشكر ، لذلك تراه في حالة من الرضى و الاطمئنان مهما كانت الظروف معاكسة للطموحات المادية المغرورة فيه ، لانه ينظر الى الجوانب الايجابية في الحياة.

و في الحديث عن ابن عباس:

"ان امرأة ايوب قالت له يوما : لو دعوت الله ان يشفيك ، فقال : و يحك ! كنا في النعماء سبعين عاما ، فهل بضر في الضراء مثلها " (١) فاعلموا ان الحق لله:

[74] الله هو الخالق و صاحب الفضل و النعمة على البشر ، وله وحده يصرف الشكر ، الا ان البعض بدل ان يفعل ذلك تراه يشرك بالله ، فيعتقد ان السلطة أو أصحاب القوى المختلفة هم مصدر النعم و الفضل عليه ، فيعبدهم من دونه تعالى ، و حساب هؤلاء عسير عند الله.

(1) بح / ج ١٢ / ص ٢٤٨.

[و يوم يناديهم فيقول أين شركاءي الذين كنتم تزعمون] فلا يجيبون ، و قدسبقت آية مشابهة تماما لهذه الآية وهي آية (٦٢) مما يدل بان النداء الالهي مرة يكون أمام قادة المشركين من أئمة الضلال ، و مرة في حضور الرسل و خلفائهم من أئمة الهدى.

[75] و يتم الحجّة عليهم عندما يستدعي الشهود على كل أمة منها:

[و نزعنا من كل أمة شهيدا]

و هم الانبياء و الأئمة . جاء في آية كريمة : " فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا " (١) و جاء في حديث شريف في تفسير هذه الآية:

" و من هذه الامة امامها (1) "

[فقلنا]

للمشركين:

[هااتوا برهانكم]

ان كانت لديكم حجة على طاعتكم للأنداد ، و اتباعكم لذوي الثروة و السطوة ، و لكنهم لا يجدون جوابا . إذن علينا ان نفكر مرتين قبل ان نتبع قائدا ، لننظر هل نملك على طاعته برهانا يوم القيامة ، حيث لا ينفع الجدل و التظني(١) النساء / ٤١

(2) عن تفسير الميزان / ج ١٦ / ص ٢٠

و التبرير.

[فعلموا أن الحق لله و ضل عنهم ما كانوا يفترون]

يوم القيامة تبلى السرائر ، و تظهر الحقائق ، و يتلاشى الباطل و الكذب ، كما تتبدد الأعمال المنافة ، و لعل فاتحة الآية تشير الى ضلال و ضياع عبادتهم للأنداد ، و أيضا أعمالهم التي مارسوها في الإطار الشركي.

[76] و من جملة ما يفترى الانسان على الله هو اتباع مالكي المال و الثروة.

[إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم]

انحرف عنهم ، و صار يظلمهم.

[و آتيناها من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة] و العصبة كما في تفسير علي بن ابراهيم:

"ما بين العشرة الى خمسة عشر (1) "

لقد رزقه الله كنوزا ذات مفاتيح (صناديق و خزائن) لو حملتها العصبة أولوا القوة لأرهقتها ، و كان الهدف من اعطائه الثروة امتحانه . ذلك ان المؤمن الحقيقي تزيده الثروة قربا الى الله ، و تواضعا في خدمة الناس ، و لهذا جاء في الحديث:

"الغني الشاكر خير من الفقير الصابر"

أما ضعيف الايمان أو المنافق فانها لا تزيده من الله إلا بعدا ، وفي الناس إلا(١) بح / ج ١٣ / ص ٢٤٩.

تكبرا و غرورا ، و لم يكن قارون من النوع الاول ، فيادر المؤمنون لنصحيته:

[إذ قال له قومه لا تفرح]

و الفرح في هذه الآية بمعنى الغرور ، و هو أنعدام الهدف ، و أحساس الانسان بحالة الاشباع (أنعدام المسؤولية) و كثير هم الذين يصابون بهذا الداء بسبب الجاه و الثروة ، قال تعالى : " كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى [1] " إن الله لا يحب الفرحين]

لانهم ينسون الله فينساهم ، بل كثير ما يجرحهم الفرح لمبارزة الله.

[77] الدنيا سلاح ذو حدين فإما تؤدي بصاحبها الى النار و ذلك حين يتصورها هدفا بذاتها ، و أما ان تؤدي به الى الجنة و ذلك حينما يتخذها مطية لعمل الصالحات ، فالغنى يصير فضيلة اذا استخدمه صاحبه في سبيل الله.

هكذا يقول الامام أمير المؤمنين عن الدنيا:

"من أبصر بها بصرته ، و من أبصر إليها أعمته " (٢) [و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة]

باخراج حق الله و حق المحتاجين ، و صرف المال في عمل الصالحات كبناء المساجد ، و مساعدة الحركات الاسلامية ، و الاسلام لا يطالب الانسان بإعطاء كل ماله في سبيل الله ثم يجلس خالي اليد ، بل يطالبه بالاعتدال في الانفاق بقوله (١) (العلق / ٦ - ٧.

(2) عن نهج البلاغة / خ ٨٢.

تعالى في سورة الفرقان " : و الذين اذا انفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلك قواما [1] " و لا تنس نصيبك من الدنيا]

و هذه الآية دليل على هذا التفسير ، و على خطأ النظرة القائلة بفصل الدين عن الدنيا . إذ بإمكان الإنسان ان يبني مسجدا الى جانب بيت فخم . الا ان للامام علي (ع) تفسيرا آخر ينسجم - مع سياق الآيات - و نفسية شحيحة ، كما كانت عند قارون أمثلة الترف و الفساد، يقول الامام (ع): (

"لا تنس صحتك ، و قدرتك ، و فراغك ، و شبابك ، و نشاطك ان تطلب بها الآخرة(2) " ذلك ان ما يبقى من الدنيا ليس سوى ما يبعثه الانسان الى الآخرة.

ثم أكد السياق ضرورة الإحسان إلى الناس ، و الإحسان هو بذل المزيد من الأموال مضافة الى الحقوق المالية المفروضة ، و لا ريب ان الثروة المكدسة لا تهنيء لصاحبها من دون الإحسان ، و ان لذة روح الانسان من الاحسان أعظم بكثير من لذة بدنه بالترف ، كما أن الإحسان يمتص نقمة المحرومين على صاحب الثروة ، و يحولها الى ذكر حسن ، و ثواب عند الله عظيم ، بينما الشح يؤدي الى الفساد و الاستكبار في الارض.

[و أحسن كما أحسن الله إليك و لا تبغ الفساد في الأرض إن الله (١) الفرقان / ٦٧.

(2) تفسير نمونة / ج ١٦ / ص ١٥٦.

لا يحب المفسدين]

و لعل نهاية الآية (٧٦) " ان الله لا يحب الفرحين " تلتقي مع هذه الآية في ان الغرور (الفرح) يؤدي للفساد في الارض.

ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا

هدى من الآيات

بالإضافة الى الجوانب العلمية في القرآن هناك جوانب بالغة الأثر في الحكمة ، تمثل مفتاحا لشخصية الفرد ، و شفاء لامراضها و عقدها ، فعندما نقرأ قصة قارون فان الذي نعتبر به من هذه القصة يساوي او يفوق ما نتعلمه منها ، فنحن نتعلم منها أثر الثروة وميكانيكيته في المجتمع (قانون الثروة) و هذا وحده لا يكفي إذا لم نعتبر منها في إصلاح أنفسنا عند مواجهة زينة الحياة الدنيا بتجاوز ظاهر الأحداث الى لبها ، و تفاصيل القصة الى هدفها و ذلك من خلال وعي الآية القرآنية:

"يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم. "

و الحديث الشريف عن الدنيا انها:

"تغر و تضر و تمر " (١)

و كثير هم الذين تخدمهم الدنيا ، فيحسبونها غاية المنى ، و لكنهم حينما يجربونها يجدونها كالحية طاهرها أملس ، و باطنها السم الزعاف ، و هي كماء البحر كلما يشرب العطشى منه كلما يزدادون ظمأ ، و هكذا كلما لهث الانسان وراء زينة الدنيا ، يحسبها تحقق اهدافه، كلما ازداد بعدا عنها ، و صدق الامام علي (ع) اذ قال:

"منهومان لا يشبعان طالب العلم و طالب الدنيا " (١) و اهم ما نستفيد من هذه القصة التالية:

1- من الناحية النفسية يجب ان لا تخدمنا الثروة ، و تبعدنا عن هدفنا الأكبر و هو الآخرة ، فلقد كان بإمكان قارون الذي يعجز عن حمل مفاتيح خزائنه الرجال الأقوياء ، ان يجمع آخرته الى دنياه ، و لكنه حينما قيل له ذلك رفض و قال : ان الاموال التي حصلت عليها كانت نتيجة جهدي و عملي و أنكر فضل الله ، بينما لم يكن علمه سوى وسيلة بسيطة في جمع هذا المال الذي أعطي له لاختباره ، و امتحان ارادته ، لذلك فشل في الامتحان ، فخسر الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين.

2- من الناحية الاجتماعية يجب ان نلتف حول الاشخاص لما يحملونه من رسالة صالحة ، وما يجسدونه من صفات سامية ، و ليس لأموالهم و سلطتهم ، و الذي جعل الكثير من الطواغيت يتسلطون على رقاب الناس هو تقديس الناس للثروة ، و احترامهم لأصحابها ، و جعلها مقياسا بدل ان تكون القيم هي المحور ، و الاسلام

(1) نهج البلاغة / خ ٤١٩.

(2) نهج البلاغة / خ ٢٢٨.

يحسس الانسان بكرامته ، و أنها أكبر من المال و الجاه حتى لا يقع فريسة للرأسماليين . رجالا كانوا كما في الغرب ، أو أحزابا في الشرق ، و في الحديث الشريف:

"من اتى غنيا فتواضع له ذهب ثلثا دينه " (١) ٣- ان الذي يستفيد من الثروة في غير أهدافها ، كما لو استخدمها للتباهي و التفاخر يخسر الآخرة ، كما لا يتنعم بثروته في الدنيا ، بل يخسرها . ان هدف الثروة هو عمارة الأرض ، فإذا استخدمناها للتعالي على الناس ، و الفساد في الأرض فسوف يكون مصيرنا ما انتهاليه قارون ، الذي خسف به في الدنيا ، وهو الآخرة من الخاسرين.

بينات من الآيات

ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون

[78] عندما نصح المؤمنون من قوم موسى قارون ، بان لا يفرح بماله ، و ان يسعى به نحو أهدافه

الحقيقية ، و هو جعل الدنيا و سيلة للآخرة ، و ليس هدفا بذاتها.

[قال إنما أوتيته على علم عندي]

الثروة كانت نتيجة لجهودي ، و بالتالي فليس لزاما أن تعطى في سبيل الله لأنها ليست من عنده ، هكذا لم ير أي أثر للغيب في حصوله على الثروة ، بل لم يجد الغيب قادرا على ان يذهب به و بثروته جميعا ، هكذا طغى ، و اضحى من الفرحين بما أوتي ، لقد كانت نفسه ضيقة غمرها حب الثروة ، فحجبها عن سائر

(1) بحار الانوار / ج ١ / ص ١٨٩.

الكلمات المعنوية ، بل و حجبه عن رؤية المستقبل ، و احتمال زوال هذه الثروة ، بل و هلاكه هو معها ، وحتى عن رؤية سائر نعم الله عليه التي لا أثر للثروة فيها .

و يعالج القرآن هذه النفسية المريضة بتوسيع أفقها لتنظر إلى التاريخ ، و يتساءل ابن اولئك الذين كانوا يملكون القوة و الثروة؟! و يقول:

[أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة] في الانصار.

[و أكثر جمعا]

في المال ، و ذلك بسبب فسادهم ، و لن يمنع الله الغنى أن يهلك أحدا.

[ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون]

البعض يتصور أن بإمكانه تبرير انحرافه ، و لكن حينما ينزل العذاب فليس ثمة مجال لسماع التبريرات . هكذا يكون السير في الأرض ، و النظر في عواقب الأمم الغابرة ، و زيارة المقابر ، و دراسة حياة الأثرياء و السلاطين الهالكين افضل نجاة من غرور النعم و طغيانها.

فخسفنا به وبداره الأرض

[79] كان قارون يسعى لفرض سلطته على الناس من خلال ثروته ، مما كان يدفعه للتباهي و الظهور بمظهر العظمة ، و قد ورد في الأخبار : انه لم يكن يخرج إلا مع اربعين فارسا ، قد لبسوا زيا واحدا.

و في الأثر أيضا : و خرج على موسى (ع) في زينته على بغلة شهباء ، و معه اربعة آلاف مقاتل ، و ثلاثمائة وصيفة عليهن الحلي . (١) و في خبر ثالث : خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان ، و عليهم المعصفرات . (٢) [فخرج على قومه في زينته]

ولا شك ان في المجتمع من تقع هذه المظاهر الدنيوية موقعا في نفسه لضعف ايمانه ، ولأنه يلتقي مع أمثال قارون في نقطة واحدة هي حب الدنيا.

[قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم] هكذا أفسد قارون بالثروة المجتمع الاسرائيلي ، حيث ضللهم عن قيم الرسالة الى القيم المادية.

[80] أما المؤمنون الذين ينظرون للحياة من خلال بصيرة الإيمان ، فقد تحملوا مسؤوليتهم تجاه هذا الإنحراف ، فبادروا الى النهي عن المنكر.

[و قال الذين أوتوا العلم]

و بالتالي عبروا الظواهر إلى ألبابها ، و الدنيا الى الآخرة ، بل وعرفوا عاقبة هذا الموقف ، و هكذا ينبغي للمؤمن ان يتحمل مسؤوليته حينما يتأثر الناس بمظاهر الثروة الباذخة.

(1)بحار الانوار / ج ١٣ / ص ٢٥٣.

(2)المصدر / ص ٢٥٤.

[و يلکم ثواب الله خير لمن ءامن و عمل صالحا]

هؤلاء لم يتأثروا بزينة الحياة لأن هدفهم هو الآخرة التي لا تقاس بالدنيا ، و هذه الكلمات تكشف عن النفسية العالية التي تتحدى إغراءات الدنيا بقوة الايمان ، و لا ريب ان هذا التحدي يحتاج الى الصبر ، أو ليس الصبر ينمي في الانسان النظرة المستقبلية؟!]

[ولا يلقاها إلا الصابرون]

لقد تقدم في الدروس السابقة : ان من مشاكل النفس البشرية هي العجلة ، و الميل لما هو حاضر ، و حتى يتجاوز الإنسان هذه المشاكل ، فانه بحاجة الى الصبر حتى يحصل على ما في المستقبل و هو العاقبة الحسنة في الدنيا ، و الجنة في الآخرة.

[81] [فخسفنا به وبداره الأرض]

و لكن لماذا يخسف الله بداره الارض ؟

لعل ذلك حتى لا تغر بما فيها من زينة أحد غيره.

ان مقام الظالمين يكتسب نحوسته منهم فيستحق الهلاك ، هكذا أهلك الله القرى لما ظلم أهلها.

[فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله]

حتى الذين تجمعوا حوله ، كانوا يريدون شيئاً من دنياه ، أما و قد ذهبت من يده فهو لا يسوى عندهم شيئاً ، بل لو حاولوا نصره لما استطاعوا أبداً.

[و ما كان من المنتصرين]

و هذه الآية مثل على الحقيقة الأنفة " أو لم يعلم ان الله أهلك من قبله من القرون. "

و قد نهى النبي (ص) ان يختال الرجل في مشيته فقال:

" (3)من لبس ثوبا فاختال فيه خسف الله به من شفير جهنم ، و كان قرين قارون ، لأنه أول من اختال فخسف الله به و بداره الأرض " (١) [٨٢] و بعد ما خسف بقارون ، و انتهى كل ملكه تبينت للذين تمنوا مكانه حقيقتان:

الاولى :عرفوا كذب ما قاله لهم قارون من ان هذه الاموال من عنده ، منكر ان الله هو الذي يوسع و يضيق على من يشاء ، و الدليل أن الله هو الذي سلب منه ماله ، و الذي يقدر على سلب المال بهذه الكيفية لهو قادر على إعطائه.

[و أصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون و يكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر]ثم حمدوا الله انهم ما انجرفوا مع قارون ، والا لشملهم العذاب.

[لولا أن من الله علينا لخسف بنا]

الثانية : عرفوا أن الكافر الذي يكابر الله ، ولا يستفيد من نعمه في أهدافها الحقيقية يفشل في الحياة ، و أن المفلح هو المؤمن الذي يعمل الصالحات ، كما أكد على ذلك أهل العلم الإلهي في الآية (٨٠).)

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٤٠.

[و يكأنه]

أي و يل لك يا قارون انه...

[لا يفلح الكافرون]

و العاقبة للمتقين.

[83] و جاءت في خاتمة الدرس آية توجز عبرها و حكمها : ان رسالات الله نزلت حتى تزكي أفئدة الناس من دنس الاستكبار و الفساد ، و تطهر جنبات المجتمع من المستكبرين و المفسدين ، فهذا فرعون علا في الأرض واستكبر ، فقسم الله ظهره حين بعث موسى برسالاته و آياته، ثم نبذ فرعون و جنوده في اليم ، و قارون اذ بغى على بني جلدته ، ففسد في الأرض خسف الله به و بداره الأرض بدعوة موسى (ع.)

ان فرعون لهو الامثولة الظاهرة للاستكبار ، و ان قارون لهو الأحدثوة البينة للفساد.

و اذ يضرب الله بهما مثلا فلان الأمثال تضرب بأوضح المصاديق ، و اشدّها إثارة ، بينما تتسع عبرتها لكل من يكون مثلهما بنسبة وجود صفتها فيه.

ان القلب الذي ينزع نحو العلو في الارض ينطوي على فرعون صغير ، و الفؤاد الذي يهوى الفساد يحمل في ذاته قارونا بقدره ، و رد في الحديث:

"طوبى لمن اطاع موسى تقواه ، و عصى فرعون هواه "و كما ان النار تحرق ما حولها بقدرها ، كذلك الانحراف يؤثر بقدره ، ولا يمكنان ننكر طبيعة الحرق في النار حتى ولو كانت قبسا ، كذلك لا يجوز ان نستهيّن بخطر الإستكبار و الفساد حتى ولو كان بقدر ذرة ، و الدنيا دار ابتلاء و تمحيص ، و لا بد أن يتطهر القلب من آثار التكبر و الفساد حتى يضحى أهلا للجنة . دار ضيافة الله ، و مقام كرامته ، و ماوى اوليائه و احبائه.

[تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض]أما الطغاة و اولياؤهم فان لهم دارا أخرى ، حيث يساقون الى النار و ساءت مصيرا.

و أي امتحان عسير يتعرض له أهل الولاية و السياسة ، حيث يطالبهم الرب بان ينزعوا عن قلوبهم رداء التكبر ، و يعيشوا للناس و مع الناس ، و في مستوى المحرومين من الناس؟! و اين تجد مثل هؤلاء؟!

بلى ، كان ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) حيث يروي عنه راذان:

"انه كان يمشي في الاسواق و هو وال يرشد الضال ، و يعين الضعيف ، و يمر بالبياع و البقال ، فيفتح

عليه القرآن و يقرأ هذه الآية ، و يقول : نزلت هذه الآية في أهل العدل و التواضع من الولاة ، و أهل القدرة من سائر الناس (1) " و كل من طلب الرئاسة بغير حقها في كل حقل حتى ولو كان ضمن قيادة حزب أو تجمع أو هيئة ، بل و حتى رئاسة عشيرته و أسرته تشمله هذه الآية.

يقول الامام علي (ع) : و هو يصف الذين شقوا عصى الأمة في عصره ، و فرقوها يقول:

(1) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٤٤.

"فلما نهضت بالامر نكثت طائفة ، و مرقت أخرى ، و فسق آخرون ، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه اذ يقول : " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين " بلى .. والله لقد سمعوها و وعوها ، و لكنهم حليت الدنيا في أعينهم ، و راقهم زبرجها " (١)

و نقرأ حديثا يجعل كل حب للإستعلاء حاجزا بين الانسان و دخول الجنة ، يقول الامام علي (ع):

"الرجل يعجبه شراك نعله ، فيدخل في هذه الآية " (٢) [ولا فسادا]

إن اجلى مصاديقه : تخريب قيم المجتمع و محاولة السيطرة عليه عبر الثروة ، و السعي وراء افساد ضمير أبنائه بالرشوة.

و من مصاديقه : إفساد اقتصاده بالغش ، و سرقة جهود الفقراء بوسائل غير شريفة ، و التلاعب بأرزاق العباد بالإحتكار ، و لكن لا يتوقف الفساد عند هذا الحد ، بل شهوات الدنيا جميعا تدعوك الى الفساد اذا لم تضبطها في حدود العقل و الشرع . أوليس الإسراف في استهلاك الموارد الطبيعية ينشر الفساد فيها ، كذلك الإكتار في الطعام و الجنس يرهق جسمك ، و هو بدوره يعتبر ضريا من الفساد ؟!

أو ليس طلب المزيد من الحقوق في مقابل القليل من الواجبات يرحح كفة الفساد في حياتك ؟! بلى .. لذلك جاء في الحديث في صفة المؤمن:

(1)المصدر / ص ١٤٣.

(2)المصدر / ص ١٤٤.

"المؤمن حسن المعونة ، خفيف المؤنة"

واقولها بصراحة : ان منهج الاستهلاك و الشره و الحرص على الدنيا في ابناء المجتمع هو الذي يؤدي - بالتالي - الى سيطرة المترفين من أولي الثروة علينا ، و من خلالهم تحكمتا الإمبريالية الدولية . ان المترفين هم الجزء الظاهر من جبل الثلج في فساد الاقتصاد . انهم فروع شجرة ضربت بعروقها بعيدا في أعراض المجتمع.

ان الركض وراء الربح السريع ، و التهاون في العمل ، و البحث عن الرفاه و الرخاء المجانيين ، و ترك الإلتقان ، و التطفيف في العمل . كل هذه عوامل للإنحطاط الإقتصادي ، الذي يؤدي بدوره الى الفقر و التبعية .

متع الدنيا وسائل بلوغ الآخرة ، و افضل المناهج للتحرز من الفساد الزهد في الدنيا ، دعنا نتلوا معا الحديث التالي في تفسير الآية ، و بيان المصاديق الخفية منه الحديث يقول:

روى حفص بن غياث قال ابو عبد الله (ع):

"ما منزلة الدنيا من نفسي الا بمنزلة الميتة . اذ اضطرت اليها أكلت منها ، يا حفص ! ان الله تبارك و تعالی علم ما العباد عاملون ، وإلى ما هم صائرون ، فحلم عنهم عند أعمالهم السيئة لعلمه السابق فيهم ، فلا يغرنك حسن الطلب ممن لا يخاف الفوت ، ثم تلاقوله : " تلك الدار الآخرة ... الآية ، و جعل يبكي و يقول : ذهبت - و الله - الأمانى عند هذه الآية "قلت جعلت فداك ، فما حد الزهد في الدنيا ؟

فقال:

"قد حد الله - عز وجل - في كتابه فقال : " لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم(1) " واذا كان الامام الصادق (ع) يبكي عند تلاوة هذه الآية خشية الا يكون ممن تشملهم فكيف بمثلي ممن استبد بقلبه حب الدنيا ، و حليت في عينه الضيقة ، و استهوته الرئاسات و طلبها بكل و سيلة؟! اعاذنا الله جميعا منها و من شرورها.

[و العاقبة للمتقين]

الذين يحفظون أنفسهم من نار جهنم بالتزام نهج الحق ، و تعاليم الشرع في كل صغيرة و كبيرة.

(1) نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٤٣.

كل شيء هالك الا وجهه هدى من الآيات

كما في خواتيم السور نتلو في الدرس الاخير من هذه السورة أهم ما جاء فيها من بصائر نشير اليها:

1- تختلف الحسنات عن السيئات في أن جزاءها مضاعف ، فبينما يجازى أصحاب السيئات بقدرها ، يعطى أصحاب الحسنات عشرة أضعاف ما عملوا من الأجر ، و مثل السيئات و الصالحات في الدنيا ما يلي : لو أردت حرق بيدر من القمح يكفيك ان تشعل النار فيه حتى تأتي عليه و تحوله رمادا ، و لكن هل يقدر الرماد على حرق بيدر آخر . كلا .. أما لو زرعت حبة قمح فانها تتحول الى سنبله ، و نصير عشرات الحبوب ، التي اذا زرعت تحولت الى سنابل جديدة ، و من ثم الى بيدر آخر ، و هكذا سنة الله في الحياة ، فقد بنى الله الكون على أساس نموالصالحات ، و تحديد السيئات ، ذلك لان كل ما في الكون من قوانين و سنن يساعد بفعالية على البناء ، بينما لا تساعد الهدم الا في ظل قوانين الهلاك الفطرية.

الذي يبني يعمل معه كل ما في الكون لانه الآخر يبني ، و نستوحي من هذا فكرة هامة و هي : ان أفضل و سيلة لنمو الإنسان و تكامله ليس هدم الآخرين و انما بناء ذاته ، لأنه بالبناء سوف تتفاعل معه قوى الطبيعة و سننها ، اما عن طريق الهدم فهو يخسر كل ذلك.

2- ان الحركات القسرية التي لا تنسجم و طبيعة الحياة يحكمها الفشل ، فبالرغم من ان الظلم و البغي و ما اشبهه ، قد فسح له ربنا المجال ليختير ازادة البشر ، الا انه لا يدوم باعتباره حركة قسرية فالذين يخرجون من بلادهم بالظلم لايد ان يعودوا اليه ولو بعد حين ، و في التأريخ تمت هجرات قسرية كثيرة ، بعضها من أجل الرسالة ، و بعضها من أجل الكلا و الماء ، و بعضها بسبب الارهاب الحاكم ، و لكن أصحابها كانوا يعودون ولو بعد قرون منتصرين.

و هذا يدل على ان تلك الاعمال التي جرت على الرغم من العدالة و الحق في الكون ، محكومة بالفشل و قد انتهت بالفعل ، و هذا ما تؤكد الآية الثانية في هذا الدرس ، و التي نزلت على المهاجرين في المدينة ، في الوقت الذي كان أكثرهم لا يحلمون بالعودة الى وطنهم الاول.

3- على الانسان الذي يحمل مشعل العلم و الرسالة ان لا يتصور بأن ذلك له بل انه من الله القوي اليه ، و بالتالي يجب أن لا يسعى للحفاظ عليها و على مركزه فيها حتى لو كان ذلك على حساب قيمه و مبادئه ، فالرسول لولا رسالة الله لكان فردا عاديا . اذن فالذيمنحه الرسالة هو القادر ان يبقيه في علو

الشأن الذي بلغه بسببها ، و يجب ان لا يفكر بأن يكون ظهيرا للكافرين ، ليكتسب منهم القدرة ، أو يتنازل عن بعض ما أنزل اليه طمعا في تأييدهم (كما فعل النصارى بدينهم فاسدوه) وهذا يجري في علماء الدين ، لأن القرآن نزل كما في الحديث على لغة:

"أيك أعني ، و اسمعي يا جاره"

الخطاب موجه للرسول ، و لكن الذي يجب ان يسمع هم الذين يسرون على خطه ، و يعملون بمنهجه و هم علماء الدين ، فسر عظمتهم هو الرسالة التي يتحملون مسؤوليتها ، فلو فكروا أن يكتسبوا الشهرة و العظمة من مصدر آخر كالكفار ، أو السلطات الفاسدة ، أو الجماهير المنحرفة ، فإن ذلك يكون خرقا لسنن الله في الحياة ، و من ثم عاملا في انحطاط منزلتهم ، و ربما نهايتهم ، فليحترموا أنفسهم و العلم الذي تحملوا أمانته ، و ليستقيموا ، و ليتحدوا الصعاب ، و ليتجاوزوا العقبات بالتوكل على الله ، و العمل بهدى الرسالة.

و في الأخير تختم السورة بالتذكرة بالتوحيد ، و هو لا يعني الإيمان بالله ، و انه فاطر السموات و الأرض فقط - فهذا أمر لا ريب فيه - قال تعالى : " افي الله شك فاطر السماوات و الارض " (١) و قال : " ولئن سألتهم من خلق السماوات و الارض ليقولن الله " (٢) و لكن مشكلة البشر الشرك ، حيث يخلط بين القيم الالهية السامية ، و الاخرى المادية الجاهلية . الامر الذي لا يجعله يخلص العبادة لله.

و أكثر الذين ضلوا منذ خلق الله آدم حتى اليوم انما ضلوا بسبب شركهم ، و مشركي العرب انما عبدوا الأصنام تصورا منهم بأنها تقربهم الى الله زلفى : " ما تعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى " (٣) (١) ابراهيم / ١٠ .

(2) لقمان / ٢٥ ، الزمر / ٣٨ .

(3) الزمر / ٣٧ .

و هذه الفكرة تتناسب مع الفكرة السابقة ، انما يعبد القوى التي تملك ذلك كالاغنياء ، و الحكومات ، و الناس ، بينما ينبغي له ان يعبد إله الناس و ليس الناس أو كبرائهم و اغنياؤهم.

بينات من الآيات

[84] ان عامل البناء يسبق عامل الهدم في الحياة :

[من جاء بالحسنة فله خير منها]

و في الحديث القدسي :

"لما اعطى الله ابليس ما عطاه من القوة ، قال آدم : يا رب ! قد سلطت إبليس على ولدي ، و أجرته منهم مجرى الدم من العروق ، و أعطيته ما أعطيت فمالي ولولدي ؟ قال : لك ولولدك السيئة بواحدة ، و الحسنه بعشر أمثالها ، قال : يارب زدني ، قال : التوبة مبسوطة حتى تبلغ النفس الحلقوم ، قال : يارب زدني ، قال : أغفر ولا أبالي " (١) و قال عز وجل : " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة و الله يضاعف لمن يشاء و الله واسع عليم " (٢) و على العكس من ذلك تقوم الحياة على محدودية السيئة (الهدم) .

[و من جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون] و هذا وذاك من نعم الله على الانسان ، و الشقي الشقي هو الذي لا يستفيد من بحر رحمة الله ، فتزيد سيئاته على حسناته مع ان تلك بواحدة ، و هذه بعشر امثالها.

قال ابو عبد الله (ع) : كان علي بن الحسين (ع) يقول:

"ويل لمن غلبت آحاده " فقلت له : و كيف هذا؟! فقال : " أما سمعت الله عز وجل يقول : " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها و من جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها " فالحسنة الواحدة إذا عملها كتبت له عشرا ، و السيئة الواحدة إذا عملها كتبت له واحدة ، فنعوذ بالله ممن يرتكب في يوم واحد عشر سيئات ، ولا يكون له حسنة واحدة فتغلب حسناته سيئاته " (١) و تشير خاتمة الآية إلى أن جزء العمل في الآخرة ذات العمل بعد ان يتجسد في صورة مادية بشعة ، فالظلم في الدنيا ذاته هي الظلمات التي تحيط بصاحبها في الآخرة ، و من أكل اموال اليتامى ظلما فانما ياكلون في بطونهم نارا ، و سيصلون سعيرا ، اما النتن الذي يخرج من أفواه الفاسقين فانه ذاته الكذب الذي افكوه أو الغيبة و التهمة و الغيبة التي مارسوها في دار الدنيا . دعنا نستغفر ربنا حتى يقينا شر السيئات التي اقترفناها ، و الذنوب التي احتطبناها.

[85] الحياة قائمة على أساس سبق البناء لا الهدم ، و أن الحركات القسرية نهايتها الفشل ، بينما الحركات التي تجري وفق سنن الله في الخلق تنجح و تثمر ، لأن عامل الزمن يكون في صالحها ، و هذه الفكرة هي منطلق لفكرة أخرى و هي ضرورة انتصار الحركات الإلهية عبر الاجيال.

[إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد]

(1) نور الثقلين / ج ١ / ص ٧٨٥.

أي ان الذي أنزل القرآن و فرضه عليك يردك الى وطنك الذي هجرك منه الكفار والمشركون.

و لكن لماذا قال تعالى : " ان الذي فرض عليك القرآن " و لم يقل ان الله العزيز مثلا ؟

الجواب : هناك قاعدة بلاغية تقتضي انسجام المفردات مع السياق ، و هنا نجد ترابطا وثيقا بين فرض القرآن و عودة الرسول الى بلده ، فما دام الله هو الذي أعطى الرسول منهج العمل ، و فرض عليه الإلتزام به ، فانه يجعل هذه الأداة فعالة و كفيلة بأخذ حقه ، و بلوغ أهدافه كعودته إلى بلاده منتصرا بعد الهجرة ، و هذا ينطوي على فكرة حضارية هي : ان المهاجر لا يمكن أن يعود الى بلده ، إلا إذا طبق البرنامج الالهي و هو القرآن الحكيم.

ثم يشير القرآن الى ما يبدو انه تعليق للحكم السابق اذ يقول:

[قل ربي أعلم من جاء بالهدى و من هو في ضلال مبين] ان الهدى ينسجم مع سنن الله في الخلق ، بينما يتنافر الإنحراف معها ، و بالتالي فالذي يتبع الهدى اعتقادا و عملا سيصل إلى اهدافه ، لأن الله المهيم على الخلق هو العليم بالمهتدين فينصرهم ، بينما اصحاب الضلال يحبط أعمالهم.

[86] والضمانة الرئيسية لوصول الإنسان الى الجادة هي الاستقامة على الهدى ، وبدونها لا يزداد إلا بعدا عنها ، فلو استجاب للضغوط أو الإغراءات التي تحف طريقه نحو تطلعاته واهدافه فهل يصل اليها ؟ بالطبع كلا..

[وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك] اذن فلا تطلب الجاه أو الشهرة و العلو من عند غير الله .

[فلا تكونن ظهيرا للكافرين]

و الظهير هو المعين.

[87] و يؤكد القرآن هذه الفكرة مرة أخرى و يقول:

[ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك]

و يثنيك عنها الكفار بوسائلهم المختلفة ، فمن اتبعهم او نصرهم لا ينتفع من آيات الله في الخلق ، ولا آيات الله في الكتاب.

[و ادع إلى ربك]

أي استمر في الدعوة الى الله و حده .

[ولا تكونن من المشركين]

بخضوعك لهم.

[88] [ولا تدع مع الله إلهاً آخر]

لقد تقدم القول بأن الشرك هو مشكلة الإنسان الأولى ، فترى الكثير من الناس يخضعون لله ظاهراً ، و لكنهم يخضعون في قسم كبير و مهم من حياتهم للسلطة ، أو المال ، أو الشهرة ، أو .. أو .. ، واذ يدعو الله للتوحيد المخلص فلأن الواقع ينسجم مع هذه الدعوة ، حيث لا يوجد إله سواه.

[لا إله إلا هو]

الانسان مفطور على الخضوع للقوة ، والجاه ، و الثروة ، و لكنه يضل الطريق فيخضع لغير الله ، بينما الله هو مطلق القوة ، و الثروة ، و .. و .. ، فتراه تارة يتصور والده هو مصدر المال ، أو أن السلطة هي منتهى القوة ، فيخضع لهما مخالفاً هدى الله و اوليائه.

كما ان من طبيعة الانسان البحث بين متغيرات الحياة عن شيء ثابت يعتمص به ، و الله يؤكد له ان لا شيء ثابت غير الله.

[كل شيء هالك إلا وجهه]

لا ريب ان الله باق ، لكن الآية تؤكد على ان ما يتعلق به سبحانه هي الأخرى باقية ، فكل شيء هالك إلا ما كان لوجه الله تعالى ، فوجه الشيء هو الظاهر منه ، و وجه الله هو سبيله و نهجه.

[له الحكم]

السلطة.

[و اليه ترجعون]

فله العاقبة و اليه المنتهى.

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

1- قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

"من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر حسنات بعدد كل المؤمنين و المنافقين."

تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٤٧

2- عن أبي عبد الله الحسين - عليه السلام - أنه قال:

"من قرأ سورة العنكبوت و الروم في شهر رمضان ليلة ثلاث و عشرين فهو - و الله يا أبا محمد - من أهل الجنة ، لا استثنى فيه أبدا ، ولا أخاف أن يكتب الله علي في يميني إثما ، وإن لهاتين السورتين من الله مكانا."

تفسير مجمع البيان / ج ٨ / ص ٢٧١

الاطار العام

الإسم

أحسب الناس أن يتركوا؟!

هدى من الآيات

تفتتح سورة العنكبوت ، التي تهون من شأن الحضارات الجاهلية آياتها الكريمة ببيان حقائق شتى ، تمهد بها لبيان سنن الله في المجتمعات الفاسدة.

أولا : لن يترك الناس من دون فتنة تمحصهم كما تمحص النار الذهب ، و انها سنة جارية غابرا و حاضرا ، ليعلم الله الصادقين و الكاذبين في ادعائهم الايمان .

ثانيا : خطأ يزعم المسيئون انهم يتحدثون ربهم بذنوبهم كلا .. انهم لا يعجزون.

ثالثا : و هناك أجل مسمى ، لا بد أن يأتي المحسنين فينتهي بلاؤهم ، و المسيئين فتنتهي أيام مهلتهم فيخسرون.

رابعا : الذين يجاهدون أهواءهم و شياطين الإنس انما يعملون لأنفسهم (و همبالتالي لا يربحون الله شيئا) ذلك لأن الله غني عن العالمين . و من أعظم مكاسب هؤلاء ان الله سيكفر عنهم سيئاتهم و ليجزيهم أحسن ما كانوا يعملون.

خامسا : من العقبات التي تعترض طريق المجاهدين عادة ضغوط الاسرة ، و قد أوصانا ربنا بالاحسان الى الوالدين ، ولكن أمرنا بتحدي ضغوطهم التي تدفع باتجاه الشرك بالله ، و سيقف الجميع أمام رب العزة لينبؤهم بما كانوا يعملون ، و ليوفيهم أجورهم ، فالذين آمنوا و عملوا الصالحات يدخلهم في الصالحين.

هكذا تأتي فاتحة السورة أذانا بما سوف تبينه آياتها الكريمة.

بينات من الآيات

[بسم الله الرحمن الرحيم]

تشير هذه البسملة الى ما تحمله هذه السورة من معان من تجاوز عقبة الذات ، و ترك الدنيا و زينتها ، ولا يتم ذلك الا بالتوكل على الله ، و إعمار القلب بالإيمان ، و بالتالي باسمه سبحانه.

[2 - 1] الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا و هم لا يفتنون [كان بعض اتباع الرسل من

المؤمنين المخلصين يلقي في قدور الزيت ، و تحفر للبعض أخاديد تسعر نارا ، و يلقون فيها أحياء ، و كان البعض ينشرون بالمناشير ، أو يقتلوا ، أو يصلبوا ، و لم يفتنوا في دينهم أو يتركوه لما يلاقونه في سبيله ، فثبت الله في اللوح إيمانهم ، و قيل لهم ادخلوا الجنة مع الداخلين ، و هذه السنة جارية في كل زمان و مكان ، مهما اختلفت الظروف و تعددت المشارب.

فبعض كان يستمر على الايمان رغم الفتن ، و البعض عندما يجد ان السجن و التعذيب و التشريد و القتل ثمن إيمانه ، ينهار إلا من رحم ربك.

جاء في الأثر المروي عن الامام أبي الحسن عليه السلام في تفسير الآية انه قال لمعمر بن خلاد : " ما الفتنة ؟ " قلت : جعلت فداك الفتنة في الدين ، فقال " : يفتنون كما يفتن الذهب " ثم قال : يخلصون كما يخلص الذهب " (١) و حكمة الفتنة في الدنيا أنها تطهر القلب كما يطهر الذهب ، و قد صنع الله الدنيا بطريقة تناسب و الفتنة ، يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام:

" و لكن الله - جل ثناؤه - جعل رسله أولى قوة في عزائم نياتهم ، و ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم من فناعة تملأ القلوب و العيون غناؤه و خصاصة يملأ الأسماع و الأبصار أداؤه ، و لو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام ، و عزة لا تضام ، و ملك يمد نحوه أعناق الرجال ، و يشد اليه عقد الرجال لكان أهون على الخلق في الإختبار ، و أبعد لهم في الاستكبار ، و لآمنوا عن رغبة قاهرة لهم أو رهبة ماثلة بهم ، فكانت النيات مشتركة ، و الحسنات مقتسمة ، و لكن الله أراد أن يكون الاتباع لرسله ، و التصديق بكتبه ، و الخشوع لوجهه ، و الاستكانة لأمره ، و الاستسلام اليه أمورا خاصة لا يشوبها من غيرها شائبة ، و كلما كانت البلوى و الإختبار أعظم كانت المثوبة و الجزاء أجزل ألا ترون ان الله جل ثناؤه اختبر الأولين من لدن آدم الى آخرين من هذا العالم بأحجار ما تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما ، ثم جعله بأوعر بقاع الأرض حجرا ، و أقل نتائق الدنيا مدرا و أضيّق بطون الأودية معاشا ، و أغلظ محال المسلمين مياها ، بين جبال خشنة ، و رمال دمثة ، و قرى منقطعة ، و أثر من مواضع قطر السماء دائر ، ليس يزكو به خف ولا ظلف ولا حافر ، ثم أمر آدم و ولده أن يثنوا أعطافهم (١) تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٤٨ .

نحوه. "

و بعد أن بين الامام انه لو كانت مكة في مناطق ذات بهجة و ثمر لسقط البلاء قال:

" و لكن الله جل و عز يختبر عبده بأنواع الشدائد ، و يتعبدهم بألوان المجاهد ، و يبتليهم بضروب المكاره ، اخراجا للتكبر من قلوبهم ، و اسكانا للتذلل في أنفسهم ، و ليجعل ذلك أبوابا [فتحا] إلى فضله ، و أسبابا ذللا لعفوه ، و فتنة كما قال : " ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * و لقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين " (١) أجل يتبين الايمان المستقر من العواري حين تجرد العوائل من فلذات أكبادها ، و حين يهجرون خلال حقول الألغام ، ليكونوا طعمة يقات عليها المتحاربون ، و التعبير القرآني " أحسب الناس أن يتركوا " استفهام استنكاري على أولئك الذين يتصورون ان طريق الإيمان مليء بالورود . إن طريق الإيمان صعب.

و قد قال الامام الصادق (ع):)

"هلك العالمون إلا العابدون ، و هلك العابدون إلا العالمون ، و هلك العالمون إلا الصادقون ، و هلك الصادقون إلا المخلصون ، و هلك المخلصون إلا المتقون ، و هلك المتقون إلا الموقنون ، و إن الموقنين لعلی خطر عظيم " (٢) و يشرح الرسول - صلى الله عليه و آله - أنواع الفتن التي سوف تتلى الأمة بها كما جاء في نهج البلاغة : و قام إليه عليه السلام رجل فقال : أخبرنا عن الفتنة و هل سألت رسول الله - صلى الله عليه و آله - عنها ؟ فقال عليه السلام " : لما أنزل الله (١) المصدر / ص ١٥٠ - ١٥٣ .

(2) بحار الانوار / ج ٧٠ / ص ٢٤٥ .

سبحانه قوله : " ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون " علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله - صلى الله عليه وآله - بين أظهرنا ، فقلت يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟ فقال : يا علي إن أمتي سيفتون من بعدي ، فقلت : يا رسول الله : أوليس قد قلت يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين ، وأحيزت عني الشهادة فشقق ذلك علي فقلت لي : أبشر فإن الشهادة من ورائك ، فقال لي : إن ذلك لكذلك فكيف صيرك إذا ؟ فقلت : يا رسول الله ليس هذا [من مواطن الصبر ، و لكن من مواطن البشري و الشكر ، و قال : يا علي سيفتون بعدي بأموالهم ، و يمتنون بدينهم على ربهم ، و يتمنون رحمته ، و يأمنون سطوته ، و يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة ، و الأهواء الساهية ، فيستحلون الخمر بالنبيذ ، و السحت بالهدية ، و الربا بالبيع ، قلت : يا رسول الله فيأي المنازل أنزلهم عند ذلك أم منزلة ردة أم بمنزلة فتنة ، قال : بمنزلة فتنة " (١) [٣] ثم يبين الله سبحانه إن الفتنة تصيب الإنسان . عمل السيئات أو الخيرات ، و ان مشكلة الذين يعملون السيئات أو ينهارون أمام المشاكل أكبر لأنهم يخسرون الدنيا و الآخرة.

[و لقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين] و الفتنة تتباين اشكالها و صورها و جوهرها واحد ، كما أن فتن السابقين كانت مختلفة ، فقد جاء في جوامع الجامع ، و في الحديث : " قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، و يمشط بامشاط الحديد ما دون عظمه من لحمو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه " (٢)

(1)المصدر / ص ١٤٨ .

(2)المصدر / وجوامع الجامع هو مختصر تفسير مجمع البيان للعلامة الطبرسي.

و نحن نرى اليوم من المجاهدين الصامدين تحت تعذيب الجلادين من البطولات النادرة ما يجعلنا نزداد يقينا بصدق الأخبار هذه ، التي أنبأت عن صبر و صمود المجاهدين السابقين.

يضعونهم في توابيت مغلقة لعدة أشهر بل لعدة سنوات ، أو يسمرونهم على الحيطان خلال أعوام السجن ، لا ينظفون تحتهم ، أو يلقون بهم في أحواض الأسيد ، أو يعذبونهم باجهزة تدار بالكمبيوتر لتزرع أجسامهم بالألم الشديد و تمنع عنهم النوم و الراحة لأسابيع ، أو يحرقون أشد أجزاء بدنهم حساسية باعقاب السجائر ، أو يعتدون على شرفهم و شرف أخواتهم و أزواجهم أمام أعينهم.

و لكنهم لا يزالون صامدين بتوفيق الله ، لأن أزواجهم قد صفت من حب الدنيا ، و ربتهم هذه الآية الكريمة ، و عرفوا حقيقة الدنيا و حقيقة الآخرة ، فلم يختاروا على الآخرة شيئا.

و ليس المهم أن يعلم الناس إيمانك ، بل الأهم أن يعلم الله صدقك.

[4] مسكين ابن آدم يزعم انه يهرب من حكومة الله ، أو يعجزه هربا ، و يسبق قضاءه و قدره ، و انما مثله مثل الرجل الذي جاء إلى الامام الحسن (ع) (فقال له : أنا رجل عاص ، ولا أصبر عن المعصية ، فعظني بموعظة ، فقال - عليه السلام - : " إفعل خمسة واذنب ما شئت : فأول ذلك : لا تأكل رزق الله و اذنب ما شئت ، و الثاني : اخرج من ولاية الله و اذنب ما شئت ، و الثالث : اطلب موضعا لا يراك الله ، و اذنب ما شئت ، و الرابع : إذا جاءك ملك الموت يقبض روحك ، فادفعه عن نفسك ، و اذنب ما شئت ، و الخامس : إذا أدخلك مالك في النار ، فلا تدخل في النار ، و اذنب ما شئت " (١) (١) بحار الأنوار / ج ٧٨ / ص ١٢٦ .

[أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا]

يفوتونا . كلا..

[ساء ما يحكمون]

ما من يوم يمر على الصابرين حتى يقتربوا يوما إلى رحمة ربهم ، ولا يمر يوم على الجلادين حتى يقتربوا خطوة إلى العذاب.

[5] [من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم] و تعطي هذه الآية أملا لمن يرزح تحت سياط الجلادين ، أو في دهاليز المخابرات ، أو المنبوذون بسبب إيمانهم ، فمتى ما تنهى البلاء قرب الفرج ، وإن جهادك و صبرك إنما هو بعين الله.

لقد بعث الطاغية العباسي هارون الرشيد إلى الامام موسى بن جعفر (ع) الذي كان معتقلا عنده من يستميله ، فرفض الامام و قال : ما محتواه : لا يمر علي يوم إلا وأزداد عند ربي ثوبا ، و تزداد عند ربك عقابا ، و سنلتقي عند ربنا للحساب.

[6] [و من جاهد فإنما يجاهد لنفسه]

عندما يقاوم المؤمن سلبيات نفسه ، و يتحدى ضغوط الحياة يكتب عند الله مجاهدا ، و الجهاد : بذل الجهد قدر الطاقة في سبيل الله ، و جهاد الانسان يحسب له ، و لن يضيع الله عمل عامل.

و أيام الانسان كالأوراق النقدية التي تسقط بسقوط نظام و قيام آخر ، فهو إن لم يسارع إلى تغييرها ، أو تحويلها إلى بضاعة ، ستصبح مجرد أوراق ملونة بدون رصيد ، و أيام ابن آدم ان ذهبت فلن تعود ، فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :

"ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له ذلك اليوم : يابن آدم ! أنا يوم جديد و أنا عليك شهيد ، فقل في خيرا ، و اعمل في خيرا أشهد لك به يوم القيامة " (١) فلستغل الفرصة كيلا تتحول أيامنا إلى أوراق نقدية لا رصيد لها ، جاء في الحديث : " الدنيا ساعة فاجعلوها طاعة " (٢) و لا يزيد ربنا بأعمالنا غنى.

[إن الله لغني عن العالمين]

[7] [و الذين ءامنوا و عملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم و لنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون] و هذه هي البشارة الكبرى ، فان ربنا - عز وجل - سيمحي السيئات عن آمن و عمل صالحا ، و يعطيهم بدل سيئاتهم حسنات ، و هذه أسمى نعم الله على المؤمن ، فلو أن شخصا انتبه ذات صباح عند أذان الفجر فتماهل قليلا ، و أخذته الغفوة ، ثم انتبه ثانية ، و اذا بالشمس قد طلعت فان عليه أن يصمم لمحو أثر هذا الذنب من نفسه بأن يقوم بعمل عظيم لئلا يفتضح في يوم البعث على رؤوس الأشهاد بأنه لم يصل الصبح ذلك اليوم إلا قضاء ، أنثذ لا ينفعه الكذب ، و لا تجديه الوسطة ، و أين هي تلك الوسطة التي تستطيع أن تغير ما في الكتاب ؟!

بلى . في ذلك اليوم ينفع شيء واحد ألا وهو الله الكبير المتعال ، و الوسطة هي(١) سفينة البحار / الشيخ عباس القمي / ص . 739

(2)بحار الأنوار / ج ٧٧ / ص ١٦٤ .

العمل الصالح ، فمن عمل صالحا فان الله يبذل سيئاته حسنات ، و تكتب له في قائمة أعماله.

اذن فلنبادر إلى استغلال الفرصة ، فكلنا مسيء ، و من منا من لم يعمل السيئات ؟! كلنا خطاؤون ، فلا بد أن نغسل خطايانا بالمزيد من الأعمال الصالحة ، و العطاء في سبيل الله - جهادا و تضحية - عسى ربنا أن يغفر لنا خطايانا.

[8] [و وصينا الإنسان بوالديه حسنا]

إن أصعب الحالات التي تعترض الانسان هي مقاومة المجتمع الذي ينشأ فيه ، و هنا يشير القرآن الحكيم إلى ان الله يطلب من الانسان أن لا يجعل والديه مبررا لتنازله عن مسؤوليته ، بالرغم من ضرورة الاحسان إليهما و الاهتمام بهما ، فالوالدان ليسا بالضرورة مثلا يحتذي بهما الابن حتى لو ضغطا عليه خضع إليهما.

[و إن جاهدك]

أي أكثرنا عليك الضغوط.

[لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما]

أي ضغطا عليك لتشرك بالله - أي كان نوع هذا الشرك - و إن ذكراك بالتعب الذي تعبنا عليك في تربيتك ، و إن عابا عليك انتماءك إلى تجمع إسلامي.

[فلا تطعهما]

فهذا شرك خفي.

[إلي مرجعكم]

فيوم القيامة لن يحاسبك أبواك ، فأنت و هما سيحاسبكم الله جميعا.

[فأبئبكم بما كنتم تعملون]

و الأب الذي يجعل ابنه نصرانيا ، أو يهوديا ، أو مجوسيا ، أو طاغوتيا ، أو مشركا مسؤول يوم القيامة عما فعل ، و لا تسقط من مسؤولية الابن شيء.

[9] [و الذين ءامنوا و عملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين] لا تفكر بما أصابك في جنب الله ، فان الله سوف يبذلك بما هو أحسن ، لقد كان مصعب بن عمير وحيد والديه الثريين ، و لكنهما طرداه بعد أن لم ينصاع إليهما ، فجدراه من كل ما أسبغا عليه ، و أخرجاه من البيت ، و لكن ما ان أصبح وحيدا ، فاذا بمجموعة من المؤمنين الصادقين ممن تصافت قلوبهم ، و تلاقى أفكارهم على الإيمان يحتضنون مصعبا ، فيتحول من طريد أهله إلى أول مبعوث لرسول الله (ص) إلى أهل يثرب.

و كان بذلك أول فاتح إسلامي حقيقي للمدينة المنورة ، و أول رجل يمهد الأرضية لهجرة الرائد العظيم رسول الله (ص).

فلا تتلف أعصابك ، ولا تخف ، ولا تحزن أيها المؤمن المجاهد فالمسألة هينة ، فاذا أخرجتك عائلتك ، فسوف تحتضنك القلوب و الأئمة ، كما قال الامام علي (ع) : " من تهجره الأقران احتضنه الأبعاد. "

وليعلمن الله الذين آمنوا و ليعلمن المنافقين

هدى من الآيات

تأكيدا لامتحان الله للانسان في إيمانه تذكرنا آيات هذا الدرس ان الإيمان انما هو و قر في القلب ، و ملكة نفسية قبل أن يكون شعارا ، و ان بعض الناس الذين يدعون الإيمان حينما يفتنون في سبيل الله بسبب إيمانهم ينهارون أمام الفتن ، و يتصلون عن إيمانهم ، و إن ربنا سبحانه يرد على هؤلاء مستنكرا : ان هذا العذاب البسيط الذي لا يعدو كونه فتنة لا يساوي ذلك العذاب الشديد الدائم الذي ينتظركم.

إن هناك فرقا في التعبير القرآني بين الفتنة و العذاب ، حيث نستوحي من لفظة الفتنة محدوديتها زمانا و مكانا ، بالنسبة للفرد أو الجماعة ، و أن الهدف منها هو اختبار الانسان في إيمانه ليس إلا ، أما العذاب

فانه نتيجة لتلك الفتنة ، فحينما يذهب المرء إلى قاعة الامتحانات فانه لا يلبث إلا قليلا ثم يعود بعدها إلى منزله ، و لكن نتيجة تلك السويغات القليلة تستمر معه بعد ذلك و ربما تصل إلى سنين عديدة ، فالفتنة إذا تساوي بمحدوديتها العذاب بدوامه و استمراره ، و قد ورد في الدعاء:

"يا رب و انت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا و عقوباتها ، و ما يجري فيهما من المكاره على أهلها ، على أن ذلك بلاء و مكروه قليل مكثه ، يسير بقاءه ، قصر مدته ، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة؟! و جليل وقوع المكاره فيها؟! و هو بلاء تطول مدته ، و يدوم مقامه ، ولا يخفف عن أهله ، لأنه لا يكون إلا عن غضبك و انتقامك و سخطك " (١) و تشير الآيات القرآنية بعد ذلك إلى الأخطاء المنتشرة في المجتمع ، و لكنها قبلئذ تذكر بان الأفكار الخاطئة تشبه الجرائم الخطيرة التي إذا تكاثرت على قلب الانسان حجبته عن الخير ، و قضت على كل أثر للسلامة عنده " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" و مثل على هذه الأفكار أن يقول إنسان لآخر : اعمل ما أمرك به و أنا المسؤول عن ذلك غدا عند الله . إن هذا القول لا ينفي مسؤولية المنفذ ، إذ أن من يتبع إنسانا مفسدا فانه لا يستطيع الإدعاء بأنه بريء ، ولا شك ان المتبوع مسؤول عند الله سبحانه ، ذلك لأن الإنسان يتحمل تبعه تضليل الآخرين فيعاقب عليها ، دون أن يسقط عنهم العقاب.

و حين يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة فلكي نتجنب الأفكار التبريرية التي تحول بين الإنسان و رؤيته للحقيقة ، و التي تجعل الفكر مقيدا بحدود ضيقة ، لا يرى خلالها الواقع كما هو.

بدلا من تبني هذه الأفكار الخاطئة أو اعتناقها ، فان على الإنسان أن يفتح على الحياة ، و يرى الحقائق بصيرة ثابتة دون حجب ، و ينزع عن عينيه تلك النظارات القاتمة.

(1) مفاتيح الجنان / دعاء كميل.

و هناك كثير من الناس يضع على عينيه نظارات حمراء و خضراء و سوداء ، و لكن على شكل مجلات ، و جرائد ، و إعلام مضلل ، فلا ينتبهون لذلك الاعلام المضلل ، إن تلك المجلات الزاهية ذات الورق المصقول ، و الصور الملونة ، تزرق في الأذهان تفسيرات خاطئة للأحداث و تبريرات مبتدعة للجرائم و تشويه للحقائق الواضحة ، هذا عدا اللغو و الكذب و البهتان.

فعلى المؤمن أن لا يعطل عقله و يأخذ ما في هذا الاعلام أخذ المسلمات ، بل عليه أن يستخدم عقله ، و يعمل على تغذيته بقراءات موجهة هادفة ، ليرى العالم على حقيقته لا كما يراه الآخرون.

و بعد عرض و جهات النظر القرآنية حول بعض الأفكار ، يضرب ربنا سبحانه و تعالى الأمثال من واقع الأمم السابقة ، و كيف ان المؤمنين قاوموا الصعوبات وهم يدعون إلى ربهم ، دون أن ينهاروا إزاء الأذى و الصعوبات التي تعرضوا لها.

استمر نوح (عليه السلام) خمسين و تسعمائة سنة . يدعو قومه دون أن يستجيبوا له ، حتى اضطر أن يستقل ظهر السفينة عندما أراد الله إهلاكهم ، فأنقذه الله سبحانه و الذين آمنوا معه من الطوفان ، و هذا النبي إبراهيم (عليه السلام) يمكث في قومه زمنا طويلا فلم يكن جزاؤه إلا الإلقاء في النار ، و لما تجاه الله نفوه بعيدا عن بلاده ، و هذه الامتحانات لا تدل على ان الله سبحانه لا يحب الانسان ، بل على العكس تماما ، فقد تكون الفتنة في كثير من الأحيان دليلا على حب الله للمفتون ، و لرفع درجته عنده.

جاء في الأثر : ان الامام الحسين (ع) رأى جده رسول الله (ص) في المنام ذات مرة فشكا إليه جفاء قومه ، فقال له الرسول (ص) : " يا بني ! إن لك عند الله درجة مغشاة بنور الله و لست تنالها إلا بالشهادة " (١) و جاء في الحديث المعروف " : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم الأمثل فالأمثل " (٢)

بينات من الآيات

[10] و من الناس من يقول ءامنا بالله

إدعاء و ليس إعتقاداً.

[فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله]

و هل تقاس الفتنة التي يمتحن الله بها عباده بعذابه؟! انه قياس باطل ، فأين الفتنة المحدودة البسيطة التي قد تنطوي على هدف كريم من العذاب الشديد الدائم ، الذي يعني نعمة الله و هوانه على من فشل في دار الفتنة ، و ما الأذى الذي كان يلحق بالمؤمنين الصادقين من العلويين إلا لأنهم كانوا يثرون ضد السلطات الجائرة الفاسدة ، و لا يتوانون عن الثورة رغم ما كانوا يلاقونه من قمع وإرهاب . كانوا يلقون بالثلاثة أو الأربعة منهم في سجن مظلم لا يميز فيه الليل عن النهار ، كانوا يتناوبون على قراءة القرآن لتحديد مواعيد الصلاة ، فمثلاً يقرأ الأول ثلث القرآن فيصلون الصبح ، و يقرأ الثاني الثلث الثاني من القرآن فيصلون الظهر و العصر ، و يقرأ الثالث الثلث الأخير من القرآن فيصلون المغرب ، أما غذاؤهم فلا يأتيهم إلا مرة واحدة في اليوم يرمى به إلى طامورتهم المغمورة الرطبة ، التي تنتشر فيها الجراثيم و الحشرات السامة ، وفي تلك الظروف الحرجة حيث القاذورات(١) مقتل أبي مخنف / ص ٢٤.

(2)الكافي / ج ٢ / ص ٢٥٢.

و الروائح الكريهة و اذا مات أحدهم ، يبقى على وضعه حتى ينتن جثمانه ، و يتفسخ ، ثم يموت الآخرون الواحد بعد الآخر فيهدم عليهم السجانون الطامورة بعد أن أضحى الجميع رميماً.

و بالرغم من تلك الفتنة المجهدة كان الواحد منهم - لو كتب له الخروج من تلك الطامورة - انما يخرج لبشهر سيفه نائراً ، و ما كان ذلك الارهاب ليلويهم عن أهدافهم ، لانهم قد اختاروا طريقهم بوعي ، و آمنوا بما عملوا إيماناً حقيقياً ، و لأنهم عرفوا أن هذا الأذبالديوي أمره حقير ، و خطره يسير ، و أمده قصير ، إذا ما قورن بما ينتظر أعداءهم يوم القيامة ، ذلك العذاب الذي يتمنى الإنسان لو أن عنده ملء الأرض ذهباً فيفدي نفسه به.

[و لئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم]

أيتصور هؤلاء إن إدعاءهم الإيمان سينقذهم؟! يقولون : نحن مع المؤمنين حينما تكون عند المسلمين دولة ، و لكنهم مع الكفار حينما يتعرض المسلمون للسنج و القتل!!

[أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين]

بلى ان الله سبحانه يعلم ما في صدر هذا و ذاك ، و ما يكونه من الايمان أو الكفر.

[11] [و ليعلمن الله الذين ءامنوا و ليعلمن المنافقين] فالله يعلم من الذي آمن و صبر ، كما يعلم من هم الذين آمنوا ثم انهاروا ، و المنافقون هم اولئك.

[12] [و قال الذين كفروا للذين ءامنوا اتبعوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم و ما هم بحاملين من خطاياهم من شيء]

تعال معي و انا اتحمل عنك تبعات عملك . انه منطوق مرفوض قرآنياً ، و هل يعمل الانسان عملاً دون ان يسأل عنه و يحاسب عليه؟! انك ستحاسب عليه يوم القيامة مع من اغواك ، و يتبرأ منك.

[13] [و ليحملن اثقالهم و اثقالا مع اثقالهم و ليستلن يوم القيامة عما كانوا يفترون] كل مخطيء يتحمل خطاياه بقدر عمله و نيته ، و يحمل مع اوزاره اوزار من تبعوه.

ان كل خطيئة تتحول يوم القيامة الى غل يناط بعنق المذنب ، فكم سيحمل الجاني المضلل من اغلال يوم القيامة؟!]

من يظلم انسانا ، أولا يعطي حقا من حقوق الله كالزكاة أو الخمس ، أو يغتصب أرضا فان ذلك يتحول الى ثقل يحمله على ظهره يوم القيامة . وفي الحديث : روى الطبرسي عن رسول الله (ص) انه قال:

"ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله الا جعل في عنقه شجاع يوم القيامة " (١) ثم يذكرنا الرب - مرة أخرى - بقصة نوح فابراهيم ، و يعود السؤال الى اذهاننا : لماذا هذا التكرار ؟ و نقول : ان الحوادث التي خلدتها القرآن كانت ذات أهمية قصوى ، فليست حادثة الطوفان ، أو مجمل قصص إبراهيم و سائر المسلمين هينة نسمة مرة و نمضي عنها ، لابدأن تحفر في قلوبنا ، و تتحول الى وعي ايماني عميق ، يسمو بالبشرية أبدا الى التكامل المعنوي ، و هكذا يكرر الذكر هذه الطواهر المرة تلو (١) شجاع بضم الشين و كسرهما : ضرب من الحيات . بحار الانوار / ج ٧ / ص 141 الحديث طويل اخذنا موضع الحاجة.

الآخري ، و يعتصر منها عبرها و آياتها و حكمها ، و يلعن الظالمين ليصبحوا عبرة ، و يكرم انبياءه الكرام ليصبحوا أئمة و هداة.

[14] و لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما [و رغم هذه المئات التسع و الخمسين سنة لم يؤمن قوم نوح به ، فاضطر (ع) ان يدعو ربه لينزل عليهم العذاب.

[فأخذهم الطوفان و هم ظالمون]

لم يأخذهم الطوفان الا لانهم كانوا ظالمين.

[15] فأنجيناه و أصحاب السفينة و جعلناها آية للعالمين [حيث اهلك الله أولئك الظالمين جميعا بذلك الطوفان الرهيب الذي وسع البسيطة ، الالفئة محدودة كان الله قد أمرها بصنع سفينة في الفلاة ، ثم ركبوها وبدأ الطوفان .أوليس في ذلك آية للعالمين؟!

[16 - 17] و إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله و اتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله آوثانا [دعا ابراهيم (ع) قومه الى عبادة الله و تقواه ، مبينا ان ذلك افضل لهم ، ثم حدد لهم ماهية افكارهم و واقعها عبر الاسلوب الرسالي الذي يتكرر في كل رسالة ، و الذي يعتمد على نقطتين:

الف : بيان بصيرة التوحيد التي تحقق للمجتمع حريته و استقلاله ، و تمنحه القيم الانسانية الراقية من الحق ، و العدالة ، و السلام.

باء : تعرية الواقع الفاسد ، و تسليط الضوء عليه ليتبين لأفراد المجتمع خطورة الفساد الذي هم فيه.

أوضح النبي ابراهيم (ع) لقومه و ضعهم المزيف بقوله : " انما تعبدون من دون الله آوثانا. "

ثم ان هذه الاوثان التي تعبدون انتم صنعتموها ، ثم اضفيتم عليها صبغة الواقعية ، و لكن مهما فعلتم فانها تفتقر الى الواقعية ، و لعلنا نستوحي من قوله سبحانه : " و تخلقون إفكا " حقيقة نجدها في آيات اخرى أيضا هي : أن الناس هم الذين يخلقون الطاغوت دون نفسه ، لأن الطاغوت أضعف من ذلك ، ان الذين يرضون بالطاغوت ، و يسكتون عليه ، و الذين يلتفتون حوله ، و يسمعون أوامره ، و يحاربون معه أولئك هم الذين يخلقونه.

[و تخلقون إفكا]

أي تخلقون كيانا باطلا كذبا.

[إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا] انكم انتم الذين تعطون لما خلقتكم القوة ، و انتم الذين تقتطعون لهم من ارزاقكم و ليسوا هم ، و هل يستطيع الطاغوت ان يعيش دون ضرائب يفرضا

على ابناء الشعب ؟!

[فابتغوا عند الله الرزق و اعبدوه]

فانبذوا هذا الواقع المزيف ، و اطلبوا من بارتكم الحق رزقكم ، فهو الجدير بالطاعة ، و الخضوع ، و التسليم ، ثم ...

[و اشكروا له]

و الشكر هو العبادة العملية ، كما قال : " اعملوا آل داود شكرا " و هذا يعني : ان تكون أعمالكم و سلوكياتكم بحيث تجلب لكم المزيد من النعم و البركات ، و كذلك فان من يشكر يزداد رزقه ، و نستوحي هذا المعنى من قوله تعالى " : فابتغوا عند الله الرزق و اعبدوه و اشكروا له " أي أن من يريد الرزق فليبتغ من الله بالعبادة و الشكر ، و قد قال تعالى : " و لئن شكرتم لازيدنكم. "

[إليه ترجعون]

و بالتالي ستعودون الى ربكم.

و مرة أخرى يؤكد الذكر الحكيم ان كل الصفات الحسنة ، و الاخلاق الفاضلة انما تأتي من الايمان الصادق بالله و اليوم الآخر ، فمن يؤمن بيوم الجزاء سيجعل من حياته هذه مزرعة للخيرات ، و قنطرة للسعادة في الآخرة ، كما يستمر السقف صحيحا ما دامت أسسه سليمة ، فكذلك حياة الانسان تعمر و تزدهر كلما كانت عقائده صحيحة و واقعية.

قل سيروا في الأرض هدى من الآيات

يوصينا القرآن الكريم - مرة بعد أخرى - بضرورة العودة الى التأريخ للاعتبار بسير السابقين بنفس القدر الذي يؤكد فيه على ضرورة البحث المباشر ، و التطلع الى ما يحيط بالانسان من مظاهر طبيعية ، و اثار تحمل اخبار الماضين ، و ما يكتنف الحياة عموما من السنن والحقائق و التطورات.

و التأكيد على هاتين القضيتين تحقق عدة أهداف:

أولا : ان سعة الافق العلمي ، و شمول المعرفة البشرية يساعد الانسان على النهوض من واقع التخلف ، و التسامي الى سماء القيم بعيدا عن الخرافات و الأساطير ، ذلك لانه ليس ايمان الجاهل كايمن العالم ، فكلما تقدم العالم في ميدان العلم ، اقترب أكثر فأكثر من حقيقة الايمان بالله ، و نشأة الكون ، و بدء الحياة ، و لذلك فالايمن بالله هو قمة العلم و المعرفة.

ثانيا : معرفة أحوال الأمم السابقة ، و كيفية نشوئها و تطورها ، و الأدوات التي استخدموها ، لا يتم الا بدراسة الآثار التي تحمل مخلفاتهم ، و مطالعة كتاباتهم ، و نوع تفكيرهم و فنونهم ، عبر النقوش على الصخور و الكهوف ، و بتلك الدراسة المستوفاة ، نستطيع التعرف على الامم السابقة ، و كيف تقدمت و لماذا بادت.

ثالثا : ان الحياة لم تكن على وتيرة واحدة ، و انما منح ربنا سبحانه الحياة الكمال شيئا فشيئا ، و خلقا بعد خلق ، و ليس الأمر كما يقول الجاهلون بأن الطبيعة كانت شعلة متوهجة منذ البداية ، و ستبقى هكذا الى النهاية ، و لو كانت شعلة منذ الازل لا نتفى الكمال ، ذلك لان فلسفة الكمال تتخلص في : ان المسيرة ابتدأت من وضع غاية في البساطة ، ثم راحت تتصاعد في مدارج الكمال عبر ملايين السنين ، حتى و صلت الى ما نحن عليه الآن ، و ستواصل المسيرة في المستقبل الى ان تصل القمة التي شاءها الله ، فيأذن بأمره.

و العلم الحديث قد توصل الى هذه النتيجة بدليل علمي و هو قدرة العلماء على اكتشاف عمر الانسان من الحفريات و الاثار التي يعثرون عليها ، عن طريق التحليل الطيفي لذرة الكربون الموجودة في الكائنات العضوية - الحيوان و النبات - و كلما مر قرن من الزمان على ذرة الكربون زاد في عدد نيوتروناتها و احد ، و بقدر ما في الذرة من نيوترونات يعرفون عدد القرون التي مرت على هذه الذرة ، و بالتالي يعرف عمر الجمجمة مثلا بعد معرفة عدد السنين التي مرت على هذه الذرة ، و ان دل هذا الاكتشاف على شيء فانما يحمل دلالة على ان الانسان كانت له بداية و كذلك كل الخلائق ، و السير في الارض هو من اجل معرفة تلك البداية ، و اذا كان الله سبحانه هو الذي أوجد الانسان في البدء و لم يكن شيئا مذكورا ، أو ليس بقادر على أن يعيده مرة أخرى؟! ولا يستطيع أحد ان يقول ان الله ليس بقادر لأن ابتداءالخلق من بعد العدم اصعب بذاته من اعادته ، بعد ان كان - و بالطبع - ليساصعب على الله سبحانه ، لان الامور عند الباري سواء.

رابعا : لكي نعتبر من التاريخ العام بعد التعرف الدقيق على سير الأمم التي سبقتنا ، يجب ان نتيقن بأننا مسؤولون عن أعمالنا ، و أن السنن التي حكمت السابقين تحكمننا ايضا ، و القرآن الحكيم حينما يحدثنا عن التأريخ فانه لا يتحدث بأسلوب علمي محض لمجرد نقل الخبر ، و انما يخترق الفواصل الزمنية ليبين : ان سنة الله تجري فيمن يأتي بمثل ما جرت على من مضى.

و اكتشاف القانون لتطبيقه على الواقع الحاضر هو الهدف القرآني ، من هنا نرى ان النظرة الاسلامية للتأريخ (نظرة عبرية) ليتحول التاريخ من حقيقة علمية الى حقيقة سلوكية في حياتنا ، و الى حقيقة ايمانية في اذهاننا.

و من سنن الله:

أولا : ان الله يفعل ما يشاء ، يرحم او يعذب من يشاء ، دون ان يقدر احد على تحدي مشيئة الرب سبحانه ، مما يجعلنا أكثر واقعية وان الناس يرجعون - بالتالي - الى ربهم ليوفيهم الجزاء الوفاق.

ثانيا : ان البشر لا يقدر على مقاومة قدره الالهي ، فاذا نزل به فلا شيء ولا أحد ينصره أو يواليه.

ثالثا : الكفار لن ينالوا رحمة الله في الدنيا ، و ينزل بهم في الآخرة عذاب اليم.

كل ذلك قاله ابراهيم (عليه السلام) لقومه ، و لكنهم كذبوه ، و ارادوا ان يحرقوه فأنجاه الله من النار.

بينات من الآيات

[18] [و إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم و ما على الرسول إلا البلاغ المبين]

لستم اول من كذب ، فقبلكم امم قد كذبت ، و حاق بها العذاب ، فاعتبروا ! و ليس على الرسول الا ان يبلغكم ، و قد سبق القول : ان من مشاكل الانسان النفسية انه يعتقد بان الهداية ليست من مسؤوليته ، و لكن القرآن الكريم يؤكد على ان السعي وراء الهداية من مسؤولية البشر نفسه ، و ليست مسؤولية الانبياء ، فمسؤولية الانبياء تنتهي بمجرد التبليغ ، وعلى الانسان ان يسلك بقية الطريق.

[19] [أو لم يروا كيف بيده الله الخلق ثم يعيده] ان بعض انواع المخلوقات لها اعمار مديدة جدا ، و العرب يضربون المثل في طول العمر بالغرب ، يقال : (عندما يشيب الغراب) لأن الاباء و الابناء يرون الغراب نفسه رغم تعاقب الاجيال ، و هذه الانواع لا يمكن للفرد مراقبة اطوار حياتها ، و هناك انواع أخرى قصيرة الاجل كالذباب أو البعوضة التي لا تعيش أكثر من ثلاثة ايام ، و كذلك هناك بعض الحشرات التي لا تلبث سوى ساعتين هما كل عمرها ، و يمكن للانسان ان يراقب ولادته و نهايته ببساطة ليعرف كيف يولد يبسر ، و كيف ينتهي بلا ضوضاء ، و ليعتبر ان عودته كما بدايته سهلة ولا يعجز الله شيء ، و لا يصعب عليه فعل سبحانه.

[إن ذلك على الله يسير]

فإرادته سبحانه بين الكاف و النون .

[20] [قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق] ان قضية السير في الارض لا يمكن ان تدرس في الغرفة المغلقة ، و انما على الطبيعة . ينقب الانسان عن الاثار ، و يبحث في الطبقات ، و يدرس الحفريات ، حتى يفهم كيف ابتدع الله الخلق ابتداءا.

و كل واحد قادر على ان يلاحظ تطورات الحياة ، من خلال سيره في الارض ، بأعين مفتوحة ، و قلب واع ، و ضمير يقظ.

[ثم الله ينشئ النشأة الآخرة]

اذا عرفنا ان الخليفة لم تكن ثم كانت ، و ان تحريكها يتم بصورة غيبية (أي بتدخل قوة خارجية في الكون) نعرف بان الله هو الذي خلقها ، و نعرف ان الذي خلقها قادر على ان يعيدها بعد ان يميتها وأنذ نؤمن.

[إن الله على كل شيء قدير]

لأنه يقلب الحياة خلقا بعد خلق ، و نشأة بعد نشأة.

[21] [يعذب من يشاء و يرحم من يشاء]

لأنه المالك المتصرف ، ولا احد يستطيع الاعتراض على مالكيته - شاء أم أبى - فهو الذي خلق ، و وهب الحياة ، و اهدى الوجود ، و رزق الكائنات ، فان عذب فبعده ، و ان رحم فبعفوه و تجاوزه.

[و إليه تقلبون]

الى الله المآب و المرجع.

[22] [وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء] فلا تمنى نفسك بالتهرب من الجزاء ، كما يمني المجرم نفسه بالفرار ، فان عرف المرء منذ البداية انه لا فرار من العقوبة فسوف يرتدع عن الجريمة.

[وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير]

و هذا رد لمن يمني نفسه بالشفاعات ، و يظن مثلا ان عيسى (ع) سيفديه بنفسه ، و يدركه عنه العذاب ، الا ان الحق تبارك و تعالى يقول : لا عيسى ولا سائر الانبياء ولا الاولياء يستطيعون ان ينقذوكم من عذابه الا باذن منه.

و ينذر ربنا الكفار الذين لا يؤمنون بيوم القيامة ، بانهم يائسون من رحمته ، فلا ينتظروا منه رحمة - و هو الذي و سعت رحمته كل شيء - فلا يتمنوا عليه ان يدخلهم جنات النعيم ، الا بعد الايمان و اصلاح أنفسهم.

[23] [و الذين كفروا بآيات الله و لقائه أولئك يئسوا من رحمتي] و لعل الآية تشمل فيمن تشملهم اولئك الذين يدعون الإيمان بالآخرة ، و لكنهم يبنون عملهم و سلوكهم على أساس عدم وجود النشور.

[و أولئك لهم عذاب أليم]

و أحد انواع العذاب اليأس.

ان المؤمن على العكس من ذلك ، فهو يعيش الرجاء ، فالرجاء يعطي فرصة التفكير في المستقبل ، و التخطيط للنجاح ، و بلوغ الأهداف ، و قد صدق الشاعر حين قال:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيقت العيش لولا فسحة الأمل فالعيش ضيق ، و العمر كئيب ، و الحياة مظلمة لولا فسحة الأمل ، و لكن الكافر لا يملك فسحة الأمل ، ولا روح الرجاء ، لانه لا يثق بالله سبحانه ، لذلك يعيش الألم.

[24] تلك كانت خلاصة ما قاله النبي إبراهيم (ع) (لقومه : اذ أمرهم بالفتح أعينهم ، و السير في الأرض ، و النظر في سير الآخرين ، و الاستخدام لعقولهم.

[فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه [طلب إبراهيم (ع) من قومه التعقل و التروي قبل الحكم السريع ، و مناقشة واقعهم الفاسد على ضوء الأدلة ، و مع ذلك لم يبدو منهم الا العناد و الرد القبيح بالقتل أو الحرق.

[فانجاه الله من النار]

وما أوسع رحمة الله اذ لم ياخذهم بالعذاب بغتة ، فنحن لم نقرأ في التأريخ أو في القرآن : ان الله عذب قوم نمرود أو دمرهم ، أو انزل عليهم رجزا من السماء ، و انما قرأنا ان الله سبحانه انجى نبيه من نارهم ، فخرج مهاجرا عن القوم الظالمين.

[إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون]

أجل . ينبغي ان يكون أملنا بالله تعالى قويا ، فرحمته و سعت كل شيء ، و قد سبقت رحمته غضبه ، فهو مولانا . عليه توكلنا ، و اليه انبنا ، و اليه المصير.

وجعلنا في ذريته النبوة و الكتاب

هدى من الآيات

بواصل السياق بيان قصة إبراهيم (ع) و قومه و كيف هاجر مجتمعه الفاسد ، فأمن له لوط ، و بين ان التجمع الصنمي لا ينفذ شيئا عند الله ، اذ يكفرون ببعضهم يوم القيامة ، ويتلاعنون ، و مصيرهم جميعا جهنم ولا يتناصرون ، و لقد هاجر هو و لوط الذي آمن معه ، و رزقه الله اسحاق و يعقوب ، و جعل النبوة و الرسالة في ذريتهما ، و آتاه أجره في الدنيا ، و ادخله في الآخرة في زمرة الصالحين ، ثم بين قصة لوط و كيف واجه فساد قومه الفاحش من اتيان الرجال ، و قطع السبيل ، والاجهار بالمنكرات . اما قومه فقد طالبوه بالعذاب ، فدعا ربه فنصره إلا أن الملائكة أصروا على إبراهيم قبل ان يصبوا العذاب على قوم لوط (ع) فجادلهم بان في القرية لوطا ، فاخبروه بأن الله سوف ينجيه و اهله إلا امرأته ، و هكذا انجاهم الله و دمر الباقيين.

ولان سورة العنكبوت تشدد على ضرورة جعل محور العلاقة بين الانسان و نظيره الانسان علاقة الايمان بالله ، و رفض المحاور الوثنية الأخرى ، لأنها زائلة وضارة ، و تستدرجنا الى عذاب الله الاليم ، فإننا نجد إبراهيم (ع) يبين فكرة هامة هنا هي : ان اتخاذ الأوثان انما تم بهدف المودة المتبادلة بين المشركين ، و ان هذا الهدف باطل ، اذ يكفر المشركون ببعضهم يوم القيامة.

ان البشر خلق اجتماعيا ، و لعل اسم الانسان و الناس مستوحى من هذه الفطرة الراسخة فيه ، اما كلمة الحضارة أو المدنية فانها تشير الى حضور الانسان عند نظيره ، و هو بعيد عن ذات الفطرة ، الا ان هذه النزعة الاجتماعية تضل سبيلها و هي كسائر الغرائز البشرية بحاجة الى توجيه و تركية ، فكما غريزة الجنس يهذبها الاسلام و يهديها الى السبيل القويم لها بالزواج ، كذلك النزعة الاجتماعية ، و لكن بسبب انفلات هذه النزعة عن قنواتها المحددة ، جرت البشرية الى مآسي مروعة.

كيف ذلك ؟

قبل ان نجيب عن هذا السؤال نوضح حقيقتين:

الف : النزعات الفاسدة في قلب البشر هي التي تضحي علاقات اجتماعية شاذة في حياته ، فحب المال حبا جما يفرز الطبقية ، و التكبر يولد الاستكبار و العلو في الارض ، و الجبن يسبب الاستضعاف ، و

الحرص يجر الى الفساد الاقتصادي و .. و.

و لذلك كان الجبت و الطاغوت وجهان لعمله فاسدة واحدة ، فعبادة المال و التسليم للصولجان هو جبت القلب ، بينما الديكتاتورية والاستبداد طاغوت المجتمع.

باء : ان الجاهليين الذين كانوا يعبدون الأوثان لم يكونوا ناقصي العقول الى هذه الدرجة ليزعموا ان هذه الاحجار التي يصنعونها بايديهم هي التي خلقتهمفعلا.

كلا .. انما كانت الاوثان رمزا لتجمعهم ، و تعبيرا عن نوع العلاقة التي ارتضوها لأنفسهم ، ولذلك كانت الاصنام تكبر و تصغر حسب حجم القبيلة ، فهناك صنم قريش (هبل) يعتبر اكبر الاصنام في الجزيرة ، لان تلك القبيلة كانت تزعم انها كبرى قبائل العرب ، و اصغرمنها حجما كان صنم ثقيف (مناة) لان تلك القبيلة كانت اقل مستوى من قريش ، و كلما صغرت القبيلة تضاءلت اهمية اوثانها ، حتى بلغ بتجمع صغير حقير ان صنع لنفسه صنما من التمر ، فاذا اصابتهم مخمصة وقعوا على إلههم المزعوم و التهموه عن آخره.

بعد بيان هاتين الفكرتين نجيب عن السؤال السابق:

باستثناء التجمعات التوحيدية انحدرت البشرية الى درك الوثنية بطريقة أو باخرى ، اذ انها ارتبطت ببعضها عبر المصالح و العصبية و الخرافات البعيدة عن العلاقة التوحيدية ، ما الذي جمع طبقة المترفين الى بعضهم ؟ أوليس الحرص على تكديس الثروة؟! اذا المحور هنا حب المال ، والعلاقة بالانسان تمر عبر قناة جمع الثروة ، ولا يحترم الانسان كإنسان بل بصفته صاحب ثروة ، اذ ان الاحترام هو للثروة ذاتا و لم يملكها بالتبع اليس كذلك؟! اذا الثروة معبودة ، و هي محور العلاقة ، و لايد ان يختاروا لها رمزا يحترمونه و يكرمونها بقدسونه ، و بالتالي يعبدونه . ذلك الرمز قد يكون صنما من ذهب او فضة أو احجار كريمة - كما كان يصنعه الانسان البدائي - و لكن قد يكون رمزا متطورا يسمونه بـ (العلم) كما تصنعه امريكا ، أو بتمثال الحرية ، و برج ايفل ، أو تمثال النيل أو التمساح.

و قد يختار تجمع المترفين شخصا يسمونه بالملك و يصيغون عليه قدرا من القداسة المزعومة ، و الجلالة المزيفة ، فيجعلونه رمزا لتجمعهم.

و كما محور الثروة كذلك محور القومية و الوطنية وما اشبه ، تنفلت من اطارها السليم ، و تتحول الى صنم يعبد من دون الله.

اما والان وقد عرفنا ان هذه الأوثان التي كانت تعبيرا عن نزعات نفسية شاذة و منحرفة جرت المزيد من الويلات على البشرية ، فكم ارتكبت باسمها الجرائم و كم سوغت باسمها المجازر ، و كم اشعلت نار الحروب الصارية ولا تزال.

و قد بين ربنا على لسان محطم الاصنام ابراهيم (ع) ان اتخاذ الاصنام انما تم "مودة بينكم" فالهدف هو إيجاد العلاقة ، ثم أوضح أن الكفار سوف يتبرؤون من بعضهم يوم القيامة.

و من هنا نعرف العلاقة بين الآية الاولى و الثانية في هذا السياق ، اذ ان رفض الاسلام للمودة الوثنية يقابله تشجيعه على المودة الرحمانية ، القائمة على أساس التوحيد . فكما حارب إبراهيم الوثنية آمن به لوط ، و رزقه الله اسحاق و يعقوب ، و من ورائهما الاسباط ، و التجمع الايماني ، ذلك التجمع الذي باركه الله في الدنيا ، حيث اعطي جزاء ابراهيم (ع) و افايا ، و في الآخرة ادخله في الصالحين . أولئك الذين لا يتبرأ بعضهم من بعض.

أي تجمع يباركه الاسلام ؟ وهل كل تجمع مفيد ؟ و على أي أساس ؟

ان التجمعات اليوم قائمة على محاور وثنية ، كالتجمع حول (وثن الوطنية ، أو صنم الاقليمية ، أو القومية ، أو العنصرية ، أو الطبقية) هذه الأوثان التي قد يرمز لها بعلم ، أو شخص (طاغوت) أو مسميات اخرى ،

(الجندي المجهول ، أو تمثال الحرية ، أو تمثال الفيل ، أو التمساح ، أو ابي الهول ، أو شجرة الأرز.)

ولا تعني هذه الرموز سوى النزعة الصنمية ، ذلك لأن أولئك الذين كانوا يقدسون الاصنام في الجاهلية ، التي كانوا يصنعونها من التمر ثم يأكلونها إذا جاعوا ، هل كانوا يعتقدون فعلا انها آلهتهم؟!

كلا .. فلو كانوا يعتقدون حقيقة أنها آلهتهم لم يأكلوها عندما يجوعون . انهم كانوا يزعمون أنها رمز تجمعهم ، لذلك كانت كل قبيلة لها صنمها الخاص.

بيانات من الآيات

[25] و قال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا]

حيث اتخذتم وثنًا يكون رمزا لعلاقاتكم في الحياة الدنيا ، بيد ان هذه العلاقات غير ثابتة لانها منبثقة عن النزعات النفسية التي تتبخر عند الموت ، فحينما ينزل ابن آدم الى قبره يودعه على حافته ماله ، و عياله ، و ذويه ، و انتماءاته الحزبية ، و ولاءاته السياسية ، ليواجه مصيره وحده.

[ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين]ورد في مواضع أخرى من القرآن تجسيد حي لبعض مشاهد الآخرة ، و هذه الآية تعرض واحدة من تلك الصور التي تجسم النزاع الذي يدور بين الجماعات التي كانت متوحدة في الدنيا على بعض القيم المزيفة ، اذا بهم يتلاعنون يوم القيامة ، أما المؤمنون فيقول عنهم ربنا سبحانه : " و نزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين " (١) و جاء في حديث مأمور عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير الآية:

(1)الحجر / ٧٣.

عن مالك الجهنمي قال : قال لي ابو عبد الله:

"يا مالك انه ليس من قوم ائتموا بامام في الدنيا الا جاء يوم القيامة يلعنهم و يلعنونه الا انتم ، ومن كان على مثل حالكم " (١) [٢٦] كلا الفريقين يعكسان طبيعة ما كانوا يعيشونه في الدنيا من زيف أو حقيقة ، و لكن على الرغم من تكذيب القوم لابراهيم (ع) و جوابه لهم بهذا المنطق الصارم ، الا ان دعوته لم تذهب سدى حيث آمن به لوط (ع). ()

[فامن له لوط و قال إنني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم] و لوط (ع) بايمانه قد حقق هجرتين لا هجرة واحدة ، فالاولى هجرة معنوية حيث هجر المجتمع الفاسد رافضا تمحوره حول الأوثان ليتصل بالمجتمع الصالح المتمحور حول الايمان الحق ، و الهجرة الثانية هجرته الجغرافية حيث ترك مدينة بابل ليرحل الى مصر ففلسطين مع ابراهيم (ع) لكي يقوم ببناء محور جديد لتجمع يقوم على أساس الايمان بالله ، و ليقوم بدوره في تبليغ رسالات ربه.

[27] و وهبنا له إسحاق و يعقوب و جعلنا في ذريته النبوة و الكتاب و ءاتيناه أجره في الدنيا و إنه في الآخرة لمن الصالحين] و يشير القرآن هنا الى امتداد ابراهيم عبر الزمن عن طريق اسحاق و يعقوب ، بينما كان اولاده بالفعل (اسماعيل و اسحاق (و لكن الله سبحانه و تعالى ركز على اسحاق ، و لم ينف اسماعيل و ذلك لان التجمع الرسالي امتد عبر الزمن عن طريق اسحاق ، و وراءه يعقوب ، و من بعده ذرية طيبة كانت فيهم النبوة و الكتاب ،

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ١٥١.

فتصدوا بذلك مسرح لاحداث ، و كل اولئك كانوا من ذرية اسحاق (ع) في الوقت الذي كانت فيه ذرية

اسماعيل (ع) تغط في سبات و جهل و خمول الى ان بزغ نور رسول الله (ص) فيهم ، فكان رحمة للعالمين ، و سيد المرسلين ، و هكذا بارك الله في امة ابراهيم بحيث اصبح ذكره اليوم محمودا عند أكثر من ملياري انسان . هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فهو عند الله من الصالحين و كفى بذلك مقاما كريما.

[28] [و لوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين]بدأ لوط (عليه السلام) باستنكاره على قومه الاتيان بالفاحشة ، فقال لهم : يا قوم انكم ترتكبون من الفواحش ما لم يسبقكم اليها احد من العالمين ، فانتم أعظم خطرا ، و اسوء شرا لانكم ابتدعتم جرائم عديدة.

و جاء في حديث مروي عن الامام الصادق (عليه السلام): (

"ان ابليس اتاهم في صورة حسنة ، فيه تأنيث ، عليه ثياب حسنة ، فجاء الى شيان منهم فأمرهم ان يفعلوا به ، ولو طلب منهم ان يقع بهم لأبوا عليه ، و لكن طلب منهم ان يقعوا به ، فلما وقعوا به التذوه ، ثم ذهب عنهم و تركهم فأحال بعضهم على بعض " (١)

[29] [أنتم لتأتون الرجال و تقطعون السبيل]

اضافة الى فاحشة اللواط كانوا يقطعون الطرق الآمنة على الناس ، لأن قراهم كانت في مركز جغرافي حساس ، فلا يسمحون بمرور القوافل.

[وتأتون في ناديك المنكر]

(1)المصدر / ص ١٥٧ .

أي تجاهرون بالمنكرات ، و تقترفونها في نواديك التي تجتمعون فيها بكل صراحة ، فمن يعمل المنكر و يخفيه عن اعين الناس فان أمره هين و قد يغفر الله له ، أما ان يفعل المنكر أمام الناس فذلك تعد على الحرمات و القيم.

و ذكر في بعض الروايات : " انهم كانوا يحذفون الحصة على بعضهم ، و انهم كانوا يتضارطون في مجالسهم " (١) [فما كان جواب قومه إلا ان قالوا اتتنا بعداب الله إن كنت من الصادقين]فوق ما اقترفوا راحوا يستكبرون ، و يتوغلون في التحدي ، إذ أن من يعمل السيئات ثم يندم عسى الله ان يتوب عليه ، اما ان يعمل السيئات ، ثم يتحدى الله ، فهو مخلد في النار.

[30] [قال رب انصرني على القوم المفسدين]

هناك انهى لوط (ع) رسالته ، و اوكل الأمر الى الله ، و متوكلا عليه ، طالبا منه النصرة . و قد بقي ينصحهم ثلاثين عاما فلم يقبلوا.

[31] [و لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين]الحسم لا يتم الا بمعرفة القيادة العليا ، فالملائكة الرسل الذين جاؤوا لنصرة لوط ، و اهلك قومه مروا في طريقهم على ابراهيم لكي يوعز ربنا سبحانه لابراهيم : بأنك انت القائد الاعلى للتجمع الايماني في الارض ، و قد كان بإمكان هؤلاء(١) المصدر.

الملائكة ان يذهبوا رأسا ناحية لوط ، و لكنهم مروا على إبراهيم جزاء من الله له على ايمانه الصادق و اخلاصه.

و هؤلاء الرسل لم يبدؤوا ابراهيم بالانذار ، و انما ابتدأوه بالبشرى بان الله سيهب له اسحاق و من ورائه يعقوب والذرية الصالحة ، رغم انهم يحملون العذاب لقوم لوط ، ولا تخلو هذه اللفتة من مفارقة كريمة و

هي : ان ربنا سبحانه و تعالى قبل ان يهلك قوما كفروا و عاندوا بشر رئيس ذلك المجتمع ابراهيم (ع) بانه سيعطيه ذرية صالحة ، تحمل راية الحق ، و تنشر كلمة الله في الارض ، فتلك هي المفارقة ، و يبشره بالعباءة أولا ، ثم يندره بانه سوف يهلك الظالمين ، و لكن ابراهيم (ع) حينما عرف ان الله مهلك قوم لوط فرع.

[32] قال إن فيها لوطا]

و ذلك هو سلوك المؤمنين الصادقين ، فمن صفات الانبياء (ع) انهم رحماء بالبشر غيرون على المؤمنين ، بحيث لم يتمالك نفسه ، و اندفع قائلا : وما هو مصير لوط !؟

و جاء في حديث ماثور عن الامام الصادق عليه السلام : ان ابراهيم كان يسعى لدرء العذاب عن قوم لوط ، يقول الحديث (بعد بيان جوانب من قصة لوط :)

"فقال لهم ابراهيم : لماذا جئتم ؟ قالوا في اهلاك قوم لوط ، فقال لهم : ان كان فيها مائة من المؤمنين اتهلكونهم ؟ فقال جبرئيل عليه السلام : لا ، قال : فان كان فيها خمسون ؟ قال : لا ، قال : فان كان فيها ثلاثون ؟ قال : لا ، قال : فان كان فيها عشرون ؟ قال : لا ، قال : فان كان فيها عشرة ؟ قال : لا ، قال : فان كان فيها خمسة ؟ قال : لا ، قال : فان كان فيها واحد ؟ قال : لا ، قال : فان كان فيها لوط ، قالوا : نحن اعلم بمن فيها لننجينه و اهله الا امرأته كانت من الغابرين "قال الحسن بن علي (ع) :

"لا اعلم هذا القول الا وهو يستقيم و هو قول الله عز وجل : " يجادلنا في قوم لوط " (١)] قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه و اهله الا امرأته كانت من الغابرين [وفي هذه الآية عودة للتذكير : بأن التجمع الاسري مطلوب ، ولكن في حدود الايمان الحقيقي ، ولان امرأة لوط كانت سيئة فقد اصبحت من الغابرين و استبعدت من الصالحين.

[33] و لما أن جاءت رسلنا لوطا ساء بهم وضاقت بهم ذرعا] كان لوط يحترث الارض ، و اذا به يرى مجموعة من الرجال يأتون اليه ، فاستقبلهم بحفاوة و طلب منهم النزول عليه في بيته ضيوفا ، و لكن ما ان سمع القوم بقصتهم حتى هرعوا اليه يريدون ان يفعلوا الفاحشة ، فضاقت بهم ذرعا ، و لم يدر ما يصنع ، و لكن حينما رأى الضيوف خيرة لوط طمأنوه..

[و قالوا لا تخف ولا تحزن]

لا تخف على المستقبل ، و لا تحزن على الماضي ، فنحن نرسل السماء اليك..

[إنا منجوك و أهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين]

[34] [إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما(١) المصدر / ص ١٥٨.

كانوا يفسقون]

ولابد من ملاحظة الفرق بين " منزلين " بالتخفيف " و منزلين " بالتشديد ، الاولى من (انزل) أي دفعة واحدة ، بينما الثانية من (نزل) اي على فترات شيئا فشيئا ، و الملائكة هنا اخبروا لوطا ان العذاب سينزل من السماء رجزا على الفاسقين دفعة واحدة.

أما كيف نزل بهم العذاب ؟ فقد روى ابو حمزة الثمالي قصة ذلك مفصلا في رواية:

عن ابي جعفر عليه السلام قال:

"ان رسول الله صلى الله عليه وآله سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم لوط ؟ فقال :ان قوم لوط كانوا أهل قرية لا ينتظفون من البول و الغائط ولا يتطهرون من الجنابة ، بخلاء اشحاء على الطعام ، و ان لوطا لبث

فيهم ثلاثين سنة ، و انما كان نازلا عليهم و لم يكنمنهم ولا عشيرة له فيهم ثلاثين سنة ولا قوم ، و انه دعاهم الى الله عز وجل والى الايمان و اتباعه ، و نهاهم عن الفواحش و حثهم على طاعة الله فلم يجيبوه و لم يطيعوه ، و ان الله عز وجل لما أراد عذابهم بعث اليهم رسلا منذرين عذرا نذرا ، فلما عتوا عن امره بعثاليهم ملائكة ليخرجوا من كان في قريتهم من المؤمنين ، فما وجدوا فيها غير بيت من المسلمين فاخروجهم منها ، و قالوا للوط : " اسر باهلك " من هذه القرية الليلة " بقطع من الليل سار لوط ببناته ، و تولت امرأته مدبرة فانقطعت الى قومها تسعى بلوط ، و تخبرهم ان لوطا قد سار ببناته ، و اني نوديت من تلقاء العرش لما طلع الفجر : يا جبرئيل حق القول من الله تحت عذاب قوم لوط ، فاهبط الى قرية قوم لوط وما حوت فاقليها من تحت سبع ارضين ، ثم اعرج بها بالسما فاقفها حتى يأتيك امر الجبار في قليها ، ودع منها اية بينة من منزل لوط عبرة للسيارة ، فهبطت على أهل القرية الظالمين فضربت بجناحي الايمن على ما حوى عليه شرقها ، و ضربت بجناحي الايسر على ما حوى عليها غربها ، فاقتلعتها يا محمد من تحت سبع ارضين الامنزل لوط اية للسيارة ، ثم عرجت بها في حوافي جناحي حتى اوقفتها حيث يسمع أهل السماء زقاء ديوكها ونباح كلابها فلما طلعت الشمس نوديت من تلقاء العرش : يا جبرئيل ! اقلب القرية على القوم ، فقلبتا عليهم حتى صار اسفلها اعلاها و امطر الله عليهم حجارة من سجيلمسومة عند ربك وما هي من الظالمين من امتك ببعيد " (١) [٣٥]] و لقد تركنا منها اية بينة لقوم يعقلون]

تركناهم عبرة لمن يستفيد من التجارب و الدروس التاريخية . و قد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة في آية متقدمة من هذه السورة : " و ان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم " ثم قال : " قل سيروا في الارض. " فعلينا أن نسير في الارض ، و ننقب في الآثار ، و نكتشف الى أي مدى من التحضر أو التخلف و صلوا ، حتى نفهم كيف كان هؤلاء ، و لماذا هلكوا.

وما احوج البشرية اليوم للإعتبار بمصير قوم لوط و هي تنزلق في وحل الرذيلة و الفحشاء ، و تراها استمرت الخلاعة و استباحات الزنا و انتشر فيها الشذوذ الجنسي و بدأ يكتسب وضعاً قانونياً في بلاد عديدة ، و بالرغم من تحذير الحكماء ، و انذار الرب بانتشار مرض الايدز فانهم لا يزالون يهبطون نحو الهاوية ، حيث غضب الله الذي لا يقدر على رده - أنجانا الله منه . -

(1)المصدر / ص ١٥٨ - ١٥٩.

وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت هدى من الآيات

أوهن العلاقات الاجتماعية ، و أوهن الحضارات البشرية هي التي تقوم على أساس باطل ، لأن هذه العلاقات و الحضارات و ان كانت قوية في الظاهر ، إلا أنها ضعيفة في الواقع ، لانها لا تتفق و رسالات الله ، و سنن الحياة ، و عبر التاريخ ، و يرفضها العقل و الفطرة ، مما يجعلها عرضة للزوال ، لان من طبيعة الباطل الزوال و الزهوق ، تماما كبيت العنكبوت الذي قد يخدع الانسان بمداخله و مخارجه و هندسته ، و لكنه سرعان ما يطير مع هبات الريح ، و كذا هو عذاب الله بالنسبة لتلك الحضارات.

و تذكرنا هذه الآيات المباركة ببعض دروس التاريخ ، و عبره الحضارية ، حيث تستعرض الأسباب التي أنهت مدنات عديدة ، و تأتي بعدة شواهد على ذلك ، من مجتمعات متباعدة زمنياً ، متباينة في السلوك و التوجهات ، فمن قوم نوح إلى قوم إبراهيم الى قوم لوط الى قوم شعيب الى قوم عاد و ثمود ، و بعد ذلك النموذج الأشهر

وهو قصة موسى و فرعون ، متعرضاً لقصة فارون.

و لنهاية الحضارات أسباب ذاتية و خارجية في منظور القرآن ، إلا أن السياق يبين الأسباب الذاتية ، لان العوامل الخارجية لا تنهي الحضارات من دون وجود أسباب داخلية لانهايارها ، و حتى لو بدت بعض العوامل الخارجية ذات أثر فعال فلا بد أن نبحت في أساس بنیان الحضارات مما اضعفها و جعل زوالها

ممكنا ، و تبين الآيات الممارسات الخاطئة التي تختلف من تجمع الى آخر ، و لكنها تنتهي بالتالي الى ثلاثة عوامل - فيما يبدو لي: -

- 1الثقافة الجاهلية

حيث يلعب انحراف الثقافة دورا بارزا في تبرير اخطاء الانسان مما يجعله يفقد المناعة ضد الخطأ ، و يغدو متراكم السلبيات عرضة للبور ، ثم ان الثقافة الباطلة تحول القيم فتنحرف مسيرة الحضارة الصاعدة الى طريق هابط ، و أخيرا تشوش الثقافة الفاسدة الرؤية فيتخذالبشر مواقف خاطئة ، و لان الثقافة بمثابة البنيان التحتي لأي كيان ، فمتى كان الاساس غير سليم ، فان البنيان ينهار سريعا.

-2الانحراف عن الصراط

فالانحراف يذهب بطاقات الامة و الفرد بعيدا عن اهدافه الرئيسية ، كالذي يسير بعيدا عن الجادة ، لا تزيده السرعة الا بعدا ، و كلما ابتعد الانسان عن الطريق الذي ارتضاه الله له كلما قرب من نهايته ، سواء كان الانسان الفرد أم الحضارة.

- 3الإعتماد على القوة المادية

ثقافة الانسان الجاهلية ، و انحراف عن الصراط يدفعانه الى تجاهل قدرة الله ، و الاعتماد أكثر فأكثر على حسابات مادية بحتة ، سواء كان يمتلكها هو أو تحيط به ،ناسيا ان من يسير الحياة هو رب العباد ، و انه سبحانه هو الذي يشاء لا غيره ، و هذه خاتمة المطاف في مسيرة التدهور البشري ، و حين تصل البشرية الى هذا المطب ، فقد اذن لها بالزوال.

و مع ان الله قدم لنا ادلة واقعية على اسباب سقوط الحضارات ، الا أننا نرى الآن البرهان تلو البرهان على جاهلية هذا القرن ، و زيف حقائقه ، ففي هذا الزمان صار الهوى صنما ، و صارت المظاهر المادية قوت الانسان اليومي ، و الشواهد و الارقام تبين مدى الاخطار التي تهدد البشرية ، ولا ريب ان التصاعد الجنوني في ميزانيات التسليح في العالم ، و اتساع الفجوة العظيمة بين الدول المستكبرة و المستضعفين ، و انتشار الفساد الخلقي و الارهاب و النفاق ، هو بعض مظاهر الكفر في الجاهلية الحديثة التي تهدد مكاسب الانسانية جمعاء.

بينات من الآيات

[36] و الى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله و ارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين [بعث شعيب (ع) الى مدين من اجل الاصلاح ، و قد كانوا مفسدين ، و ذكرهم شعيب (ع) بثلاث مسائل :

1 / عبادة الله ، و التي تعني إخلاص العبودية له ، و التوجه إليه.

2 / وارجوا اليوم الآخر الذي يعني الخوف من النار و الرجاء للجنة ، بمعنى ان يضعوا اليوم الآخر في حساباتهم ، يعرفوا انهم محاسبون على اعمالهم ، و متى ما عرف الانسان ذلك صلحت أعماله.

3 / ولا تعثوا في الارض مفسدين ، و في آي القرآن الكريم في سورتي الأعراف الشعراء فسادهم الاقتصادي.

[37] فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين [كعادة سائر الاقوام كذبت مدين نبيها شعيبا ، و جرت فيهم سنة الله سبحانه ، إذ أخذهم بالرجفة ، فأصبحوا جاثمين في بيوتهم ، بعد ان صرعهم العذاب.

و هنا سبحانه يختصر السياق ببيان الصراع بين نبي الله و بينهم ، الذي فصل القول فيه في سور مختلفة ن فقال سبحانه : " فكذبوه " و لكنه في المقابل يصف عذابه و صفا بليغا ، و لعل ذلك للاستخفاف بتكذيبهم ، و ان تكذيبهم لم يكن ليضر الله ، أو ينقص فيحكمه ، و بيان ان الله سبحانه عندما ينتقم فان انتقامه سيكون رهيبا.

[38] ولم يكن العذاب ليحيق بمدين أو قوم لوط فحسب ، بل ان العذاب على من كذب و تولى.

[و عادا و ثمودا و قد تبين لكم من مساكنهم]

انظروا الى مساكنهم و آثارهم ، لتعرفوا رهبة العذاب ، و قدرة الله سبحانه و تعالى ، و في المقابل انظروا الى أي مدى و صلوا في التحضر ، و هل كل ذاك التمدن منع عنهم عذابه.

[و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدتهم عن السبيل]

عبادة الشيطان كان السبب الرئيسي في ضلالهم ، فقد زين لهم اعمال السوء التي كانوا يعملون ، و صدتهم عن السبيل ، و قد أخذ الله سبحانه من البشر عهدا بعدم عبادة الشيطان عندما قال لهم : " الم اعهد اليكم يا بني آدم ان لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين *وان اعبدوني هذا صراط مستقيم " (١١)

(1)يس / ٦٠ - ٦١.

و لكنهم نكثوا عهدهم مع الله فحاق بهم نكثهم.

[و كانوا مستبصرين]

و لعل الآية تهدينا الى ان استبصار الامم عند نشوئها لا يشفع لهم عند الله اذا انحرفوا ، و ان على الامم المستبصرة ألا تستهين بمكر الشيطان الذي يزين اعمال السوء في أعين الغافلين و يصدتهم عن السبيل.

و هنا فكرة أخرى نستوحىها من هذه الخاتمة هي فكرة الدورات الحضارية ، و ان الأمم الفتية يغلب صلاحها على فسادها ، إلا أنها لا تلبث ان يتغلب عليها جانب الفساد ، و ان الله سبحانه يبعث الرسل لمنع تدهورها ، الا ان كثيرا منها تتخذ طريقها الى النهاية المدمرة.

[39] و كما سائر الأقسام كذلك قارون و فرعون و هامان الذين استكبروا ، و لكن هل كانوا قادرين على مواجهة عذاب الله ؟!

[و قارون و فرعون و هامان و لقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين] تشير الآية الى الاعمدة الثلاث للفساد و هي:

- 1السلطة الاقتصادية (قارون.)

- 2السلطة السياسية (فرعون.)

- 3السلطة الاعلامية (هامان.)

فقد كان يمثل قارون الفساد الاقتصادي - الاحتكار ، عدم دفع الاستحقاقات ، الطغيان على المجتمع ، اتهام القيادة - بينما كان فرعون يجسد الارهاب السياسي و العسكري ، أما هامان فقد كان المستشار الاعلامي لفرعون و موضع سره ، و لا يتجسد الفساد في المال ، أو السلطتين السياسية و العسكرية ولا في الاعلام ، فهي مجرد وسائل اجتماعية ، و انما الفساد في الرؤوس المدبرة لهذه السلطات الثلاث.

[40] لقد كان حصيلة تمسك هؤلاء بالفساد استكبارا في الارض الدمار ، و لم يكن هلاكهم بدعا أو صدفة ، انما كان سنة جارية تكررت في مختلف الظروف ، و عند أمم متباينة تاريخيا و قوميا و فسادا.

[فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا و منهم من أخذته الصيحة] و هذا جزاء قوم عاد و ثمود

[و منهم من خسفنا به الأرض]

قارون.

[و منهم من أغرقنا]

فرعون و هامان.

[و ما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون]لم يكن الله ليظلم عباده ، بيد ان عذابه للكافرين تجسيد لأعمالهم أنفسهم ، و ظلمهم لها ، و ان عذاب الله انما هو صورة لعدل الله سبحانه.

و نحن نعرف ان الجزاء من جنس العمل ، و عذاب الله سبحانه - دنيا و آخرة - انما هو صورة أخرى لفعالهم ، فمن قدس الماء غرق فيه ، و من حفر الصخر عذب به .. و هكذا.

قال الحجاج لسعيد بن جبير (رض) لما أراد قتله : اختر قتلتك ، فاجابه سعيد بكل ثقة و اطمئنان : بل اختر انت قتلتك التي سأقتلك بها في الآخرة.

[41] مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون [ان من اعتمد على غير الله ، فان حضارته كبيت العنكبوت ، و ان أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

فمهما كانت قوة الانسان و قدرته ، فانها لن تجدي نفعا امام قدرة الله ، بيد ان الضمان الوحيد لاستمرار الطاقات ، و نمو الحضارات هو تبلور المفاهيم التوحيدية في الواقع، و أداء واجب الشكر ، و حق الطاعة ، و اقتلاع جذور الشرك و العبودية لغير الله.

[42] إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء و هو العزيز الحكيم [ان الله يعلم حقائق الشرك الخفية في النفوس ، و مصاديقها في الواقع ، مهما تعددت اشكالها ، و تنوعت حقائقها ، و الله عزيز قادر على الأخذ كيفما يشاء متى يشاء ، ولكنه حكيم لالا يأخذهم حتى يتم الحجة عليهم.

[43] و تلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون [وجود القابلية للهداية و الرغبة فيها ، و التحذر من مواطن السيئات التي وقع فيها من قبلنا شرط أساسي للإستفادة من عبر التاريخ.

و تعقل هذه البصائر لا يتم الا من العلماء لان اكثر الناس لا يعقلون.

خلق الله السموات و الارض بالحق

هدى من الآيات

تركيزا بعد القصص التي تليت ، و بيانا لمنهج الهي يفينا مصير الغابرين تأتي آيات هذا الدرس لتبين أولا : ان الحق أساس خلق السموات و الارض ، و حين نعرف ذلك نهتدي الى ان كل شيء يسير على هدى سنة مفروضة عليه ، و علينا - اذا - معرفة تلك السنن ان كنا نريد التعامل مع حقائق الخلق ، ولا يجوز ان نتمنى ان يكون العالم المحيط بنا على صورة صنعها في أنفسنا ثم نتعامل مع تلك الصورة التي لا تمت الى الواقع بصلة كما يفعل الجاهلون ، و اكبر عقبة في طريق العلم هو التصورات الذاتية التي يتوهمها البشر ، و يزعم بانها هي الحقائق الموضوعية.

و حين يثبت الوحي مبدأ الحق بيني عليه مبدأ المسؤولية ، فليس بالتمنيات تقدر ان تبلغ الحياة الفضلى ، انما بالسعي الرشيد ، و العمل الجاد المخلص تتقي العقاب الالهي.

ثانيا : ان معرفة هذا المبدأ بحاجة الى قابلية في القلب تأتي بالايمان و التسليم ، ذلك ان القلوب

المغلقة لا تستطيع ان تستوعب هذا المبدأ الشامل.

العين تعجز عن التركيز على نور باهر ، و الاذن لا تسمع الاصوات ذات الذبذبات العالية جدا ، و كذلك القلب فليس كل قلب قادرا على معرفة الحقائق الكبرى في العالمين ، و انما القلوب المؤمنة التي روضت بالتقوى ، و بوركت بالوحي ، و نورها الله بنوره البهي قادرة على وعي هذه الحقيقة . ان محور الخليقة هو الحق " ان في ذلك لآية للمؤمنين. "

ثالثا : لكي نفهم هذا المبدأ ، و نعتبر بالتالي بعاقبة الذين اهلكهم الله بفسادهم و عنادهم ، لا بد ان نتلوا القرآن ، لنقرأ من خلال آياته آيات الله في الخليقة.

رابعا : و علينا ان ندفع عن قلوبنا هجمات الشيطان التي لا تتوقف ، هذه الوسواس و الظنون و التمنيات جنود الشيطان التي تحيط بالقلب احاطة السوار بالمعصم ، و الصلاة و ذكر الله حصن القلب ضدها.

خامسا : ايجاد علاقة إيجابية و بناءه مع اهل الكتب الالهية يساهم في تكريس وحدة الرسالات ، و بالتالي رفع مستوى الوعي الايماني للبشرية ، و بالرغم من ان الجاهلين قد اوغلوا في الكتب السابقة تحريفا و تأويلا باطلا ، و بالرغم من وجود نواقص في الكتب أتمها الاسلام ، الا ان علينا احترام اهلها و عدم الجدل معهم الا بالتالي هي أحسن.

و يمضي السياق في بيان جدل الكفار في رسالة النبي و يرد شبهاتهم و يقول : ان الرسول لم يكن يتلو من قبل كتابا ولا يخطه بيمينه حتى لا يرتاب المبطلون في صدق نزول الكتاب من الله عليه.

انما الكتاب آيات تعيها صدور العلماء ، أما من يجحد بها فانما لظلمه ، و لآثار الذنوب على قلبه ، و هم يطالبون بآيات خارقة و هي عند الله و بأمره ، و انما الرسول نذير و ما عليه الا البلاغ.

لو كان هؤلاء من اهل الهداية كان هذا الكتاب كافيا لهم ، أوليس قد انزله الله رحمة و ذكرى لقوم مؤمنين ؟!

بينات من الآيات

[44] قد يعرف الفرد حقيقة واحدة تفتح له ابواب المعرفة و قد يجهلها فتصبح كل معلوماته لغزا ، و الوحي الالهي يذكرنا أبدا بتلك المعارف التي هي كالمفتاح تفك رموز الخليقة . منها : ان بناء الارض و السموات قائم على أساس الحق.

[خلق الله السموات و الأرض بالحق]

فهي ليست تصورات ، ولا تمنيات ، ولا تمشي حسب اهواء هذا و ذاك ، ولا هي مخلوقة عبثا وبلا هدف .

ارايتم لطف الخلق و دقته ؟! أو رأيتم فيه ثغرة أو فطورا ؟! هل رأى فيه احد لعبا و لهوا و عبثية ؟!

الا تنظر الى اتقان صنع المجرات التي تكاد لا تحد ؟! واتقان صنع البعوضة ؟! افلا ترى حالة التكامل بين ابعاد مجرة ، و اصغر دابة بل احقر جرثومة ؟!

الله اكبر . انه محور الحق الذي لا يحيد عنه شيء ، و لكن لماذا لا نعي نحن هذا المحور العظيم الذي تهدي اليه كل الشواهد و الآيات . اتدري لماذا ؟

القرآن الكريم يجب قائلنا:

[إن في ذلك لآية للمؤمنين]

هل تستقبل الصخرة الصلدة بركات الغيث ، و هل تنبت زرعاً ، أو تحفظ ماء؟ كلا ..لأنها ليست بذات قابلية ، كذلك القلب الصخري المعاند الذي يخلق في ذاته صنما فيعبده و يزعم بأنه الحق ، و يغلغ على نفسه منافذ المعرفة.

الايان هو التسليم ، و التسليم هو التصديق ، و القلب الذي يرفض سلفاً قبول اي فكرة كيف ينتفع بآيات العلم؟!

[45] لماذا يتحجر قلب البشر ، و كيف نزيل فسوته و نجعله لينا ، أولاً اقل كيف نحافظ على القلوب الخاشعة الا تقسوا ؟

الجهل ، و الغفلة ، و اتباع الهوى ، و طول الامل ، و العادات السيئة ، و الافكار الباطلة ، و وساوس الشيطان ، و ظنون النفس ، و تمنيات القلب كل أولئك يمكن ان تكون حجاباً سميكة على القلب ، أو مغاليق لا تفك على ابوابه ، و على الانسان ان يقوم بجهد مكثف و دائم لتطهير قلبه ، و فك اقفاله ، و فتح منافذه و لكن بماذا ؟

بالكتاب ، بالصلاة ، بذكر الله.

[انل ما أوحى إليك من الكتاب]

القرآن شفاء لما في الصدور ، كل آية منه تفتح سبيلاً للهداية الى القلب ، و تطهر جانباً منه ، وعلينا ان نتلوه في آناء الليل و أطراف النهار ، و نتدبر فيه ، و نلين قلوبنا القاسية بآياته.

[و أقم الصلاة]

=دعنا نلصق صلاة الخاشعين لا صلاة الساهين ، و عندئذ نعرف مدى الفائدة العاجلة التي نستفيدها منها . و لعل كلمة (الاقامة) تعني اتيانها بشروطها ، و من شروطها السكينة و الخشوع . و الفائدة العاجلة التي نرجوها بإقامة الصلاة تركيز التقوى في القلب ، مما تبعدنا عن الذنوب الكبيرة و الصغيرة.

[إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر]

و لعل الفحشاء هي الخطايا الكبيرة التي لا يمكن تبريرها كالقتل ، و الزنا ، و النهب ، و السرقة ، و الاعتداء على حقوق الناس علناً.

أما المنكر فلعله الذنوب التي ينكرها القلب ، و قد لا يعرف عنها المجتمع كالمساهمة في قتل الناس عبر اسقاط شخصياته بالغيبة و التهمة ، و كذلك الغش و الرشوة و هكذا الرياء و النفاق و .. و.

[و لذكر الله أكبر]

ان من عظمة الصلاة انها ترسخ في القلب عقيدة التوحيد و التي هي ينبوع الصافي لسائر العقائد السليمة.

و لعل الآية تشير الى ان جوهر الصلاة هو ذكر الله ، و لذلك كان علينا ان نهتم به سواء في الصلاة أو في حالات أخرى ، ذلك ان ذكر الله يحصن القلب من وساوس الشيطان ، و يحفظه من همزاته ، و يقاوم الغفلة و الاسترسال.

و من المعروف ان ذكر الله ليس مجرد التلفظ بـ " الله أكبر - لا إله الا الله " و انما هو تذكّر الله عند المعصية فيصبر عنها ، و عند الطاعة فيندفع اليها ، و عند المصيبة فيتسلى عنها ، و عند الزحف فلا يولي الدبر.

[46] الآيات التي مضت كانت تبين قصص الانبياء مع الأمم ، و لعل ذلك كان مناسبة للحديث عن موقف الاسلام من الرسائل السابقة ، و جاء الجواب : ان الموقف ايجابي و يتلخص في:

الف : الجدل بالتي هي أحسن ، دون خشونة أو عنف.

باء : توجيه العنف الى الظالمين منهم كما يوجه العنف ضد الظالمين من ابناء الامة الاسلامية.

جيم : بيان أسس الوحدة بينهم و بين المسلمين.

[و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن]

جاء في بعض الروايات ان معنى هذا الجدل : ان تستدل بالادلة الواقعية ، و ألا تنكر حقا يستشهد به صاحبك ، و لاتدعي باطلا لإثبات حقا.

[إلا الذين ظلموا منهم]

ومن هذه الآية نستوحي : ان الاسلام لا يهتم فقط بالمسلمين - كطائفة بشرية - انما ايضا بابناء الطوائف الاخرى ، فيقاوم الظلم انى كان و على أي شخص وقع ، مسلما كان أو نصرانيا أو يهوديا وحتى لو كان مشركا.

الاسلام رسالة الله لانقاذ الانسان كائنسان ، و على المسلم أن يكون نصيرا للمظلوم انى كان ، و جاء في حديث:

"من سمع رجل ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم" [و قولوا ءامنا بالذي أنزل إلينا و أنزل إليكم و إلها و إلهكمواحد و نحن له مسلمون]

و الواقع : ان وجود محور توحيدي واحد يؤمن به الجميع هو امتن أساس للتعايش السلمى بين الديانات.

[47] قد تشتهب الامور على بعض اهل الكتاب ، بينما البعض الآخر يسارع للايمان بالرسالة التي ختم بها الله رسالاته لمعرفته بجوهر الرسائل الالهية ، الذي يتجلى بافضل صورته في هذه الرسالة.

[و كذلك أنزلنا إليك الكتاب]

لعل معناه : كما أنزلنا على الرسل من قبلك.

[فالذين ءاتيناهم الكتاب يؤمنون به]

لانهم يجدونه مكتوبا عندهم ، و لأنهم يجدون فيه شواهد الصدق التي كانت في الكتب السابقة.

[و من هؤلاء من يؤمن به]

لعل المراد بهم الموجودون في الجزيرة من غير أهل الكتاب.

[و ما يجحد باياتنا إلا الكافرون]

الذين يكفرون بنعم الله ، و تنطوي قلوبهم على مرض ، و إلا فان هذه الآيات واضحة لا ريب فيها.

[48] و من شواهد صدق الرسول تفجر ينابيع الوحي على لسانه مرة واحدة ، دون تكامل ذلك عبر التعلم أو بالتدريج ، و دون ان يتصل بالوسط الاجتماعي الذي هو فيه ، بل و من دون ان يكون لذلك

الوسط اثر عليه ، بل يأتي ابدا تحديا لمفاسد الوسط ، و فتحا لآفاق جديدة من المعارف عليه.

[و ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لأرتاب المبطلون [49]] و من شواهد الصدق على رسالة الاسلام يقين اهل العلم و الحكمة و الفضيلة في الامة بها ، ففي الناس - في كل عصر و مكان - طيبون و آخرون فاسدون ، و من خلال تمسك الطيبين بفكرة نستشهد على صحتها ، كما ان في الناس علماء و جهال و ايمان العلماء بخط يزيدنا يقينا بصدقه.

[بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم]

و هم في هذه الامة أئمة الحق من آل بيت الرسول - صلى الله عليه و آله و سلم - و العلماء بالله ، الامناء على حلاله و حرامه ، و هم اهل الذكر الذين أمرنا بالسؤال منهم.

[و ما يجحد باياتنا إلا الظالمون]

أما الفئة الكافرة بالكتاب فهم اولئك المنبوذون عند العرف ، الذين يظلمون الناس ، اذا من خلال طبيعة المؤمن و الكافر بالرسالة نعرف مدى صدقها.

[50] و يطالب الكفار - جدلا - بالمزيد من الآيات و الآيات الخارقة ، بينما لا تجديهم الآيات نفعاً ، لانها لو نزلت فكفروا بها لنزل بهم العذاب.

[و قالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله]فهو الذي ينزلها متما شاء بحكمته و بعد ان تنتهي فرصة القوم.

[و إنما أنا نذير مبين]

ان الثقافة الجاهلية تلعب دورا هاما في تبرير اخطاء الكفار المنهجية ، و لعل الآيات التي كانوا يطالبون بها كانت تدور حول موضوعات لا غنى فيها كالجديليات البيزنطية ، بينما مهمة الرسول الاولى الانذار لا لكي يكرههم على الايمان ، بل لكي تستضاء قلوبهم فيؤمنوا طوعا لينتفعوا بالايمان ، و هذا - فيما يبدو - هو المنهج السليم للدعوة و به يتحقق الجدل بالتي هي أحسن.

[51] أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة و ذكرى لقوم يؤمنون [أوليس دليلا كافيا على عظمة هذا الكتاب الذي نستكشف منه رؤى الحياة و بصائر العمل انه رحمة للعالمين ، حيث يقدم لهم برامج الحياة السليمة ، و الرؤى الواضحة الصحيحة ، و حيث يقوم بتذكير المؤمنين الذي رفعوا عن أنفسهم حجاب الجهل ، و التكبر ، فأثار فيهم دقائن عقولهم ، و استحث همهم الناشطة من اجل السير قدما في مسيرة تحرير الأرض و الانسان من عبودية الأوثان الى عبادة الله الواهب المنان.

قل كفى بالله بيني و بينكم شهيدا

هدى من الآيات

هل هناك أكبر من الله و من شهادته ، و هو الذي يدبر شؤون السموات و الأرض ؟ ! كلا .. الله بكل عظمته و سلطانه شهيد على صدق رسالاته ، و كفى به شهيدا ، و الخاسر حقا هو الذي يؤمن بالباطل ، و يكفر بالله (و برسالاته.)

و يزعمون : أن دليل صدق الرسالات ينبغي أن يكون عذابا عاجلا لمن يكفر بالله ، و لا يعلمون انه لو جاءهم لا ينفعهم ايمانهم شيئا ، بل يأتيهم فجأة دون أن يشعروا ، ولا يعلمون ان العذاب الذي يطالبون به محيط بهم ، لولا انهم محجوبون عنه بظاهر من الحياة الدنيا ، و حين ترتفع عنهم حجبهم يغشاهم من كل اطرافهم.

لا بد من اخلاص الإيمان بالله للتخلص من عذابه ، ولا يمكن التبرير بغلبة سلاطين الجور و الكفر ، لأن أرض الله واسعة يمكن الهجرة في اطرافها ، و لا ينبغي الخوف من الموت لأن كل نفس ذائقة الموت ، و المرجع الى الرب.

و ليرغب العاقل في ثواب الله ، حيث هيأ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات غرفا من الجنة خالدين فيها ، أو ليسوا قد صبروا على البلاء ، و لم يداخلهم اليأس لتوكلهم على الله ، و لم يخشوا قطع أرزاقهم لأن الله يرزق كل دابة ، كما يرزقنا وهو السميع العليم !؟

(و الله يدعوهم لفطرتهم) فلأن سألتهم من خلق السموات و الأرض تراهم يعترفون بأن الله هو خالقهما ، و مسخر الشمس و القمر ، فلماذا يسمحون للشيطان بإضلالهم ؟!

كذلك الله يبسط الرزق لمن يشاء ، و يضيق على من يشاء ، و هو محيط علما بكل شيء ، فلماذا نخشى الفقر و نكفر بالله طمعا في الغنى وهو الذي يدبر أمور الحياة ، فهو ينزل من السماء ماء ، و يحيي به الأرض من بعد موتها ، فله الحمد ، و لكن أكثر الناس لا يعقلون.

بينات من الآيات

[52]الرسالة هي تجسيد لصفات الله ، و هذا ما نلاحظه من خلال تجلي أسماء الله في الرسالة ، فهي آية من آيات الرحمة ، و الحكمة ، و العظمة و غيرها ، و بنظرة في الرسالة نعرف أن ربنا رحيم ، حكيم ، عظيم ، و الى غيرها من أسمائه الحسنی.

و من جهة أخرى فإن الرسالة هي تحقيق لتطلعات العقل و الفطرة ، فقد دخل اعرابي ذات يوم على رسول الله (ص) طالبا منه النصيحة ، التي لا يحتاج بعدها إلى نصيحة أخرى ، فكان أن وضع رسول الله يده على قلب الرجل و قال : " ما قال لك هذا فافعل ، و ما قال لك هذا لا تفعل فلا تفعل " فالرسالة هي تلبية لنداء الفطرة ، و ارواء لعطش الوجدان ، و ليس بين الرسالة والعقل تناقض ، و لذلك جاء في بعض الروايات : " إن لله على الناس حجتين : حجة ظاهرة ، و حجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل و الأنبياء و الأئمة - عليهم السلام - و أما الباطنة فالعقول " (١) و شهادة العقل دليل على صحة الرسالات.

و من دلائل صدق الرسالة تلك الانتصارات الهائلة التي يمن بها الرب على عباده المؤمنين ، بالرغم من قلة عددهم ، و ضعف عدتهم ، حيث يقول سبحانه : " و لقد نصركم الله بيدروا أنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون " (٢) و المعاجز الخارقة و غيرها نتيجة استجابته لدعائهم ، و حينما نقف مع الرسالة ، و نؤمن بالله ، فإن الحياة ستسخر لنا ، و في الحديث القدسي : " عيدي أطعني أجعلك مثلي ، أنا حي لا أموت ، أجعلك حيا لا تموت ، أنا غني لا أفقر ، أجعلك غنيا لا تفقر ، أنا مهتما إ شاء يكن ، أجعلك مهتما تشاء ، يكن " (٣) و هذه شهادة أخرى.

و شهادة الله تتجسد أيضا في الحقيقة الفطرية التي يؤمن بها جميع الناس ، و هي حقيقة الخالق و المخلوق ، فلا بد للكون من إله ، و لكن هذه المعرفة إجمالية ، و إذا أردنا المعرفة التفصيلية ، فإن ذلك لا يأتي إلا من خلال الايمان بالله ، و معرفة آياته ، و هذا لا يأتي أيضا إلا من خلال التزامنا بتعاليم الرسالة ، و تطبيق أحكام الشريعة الغراء.

[قل كفى بالله بيني و بينكم شهيدا يعلم ما في السموات و الأرض]إن الله يعلم ما تسرون و تعلنون ، و يعلم خفاياكم ، و هو الشاهد على ما تعملون من خير أو شر ، من حق أو باطل ، و ليس الله بظلام للعبيد.

(1)بحار الأنوار / ج ١ / ص ١٢٧ (من وصية الامام الكاظم (ع) لهشام بن الحكم.)

(2)آل عمران / ١٢٣.

(3)كلمة الله / ص ١٤١ / نقلا عن آمالي الصدوق.

[و الذين ءامنوا بالباطل و كفروا بالله أولئك هم الخاسرون] و هناك علاقة حتمية بين الإيمان بالباطل و الكفر بالله ، فبمقدار إيمانك بالباطل يكون ابتعادك عن الله و كذلك العكس.

[53] [و يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب و ليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون] إن مشكلة السواد الأعظم من الناس هي انهم لا يفهمون أن الزمن هو سبيل الامتحان الذي رست عليه قواعد الحياة ، حيث يفصل بين العمل و الجزاء و لذلك يطالب البعض بتعجيل العذاب ، و لكن الله يعدهم بالعذاب حيث لا يتمكنون من التوبة أو العودة.

[54] [يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين] إن الحقائق موجودة ولكننا لا نراها ، و هي أشبه ما تكون بالطاقة الكامنة في الأشياء ، فعندما تأكل مال اليتيم فانما تأكل في بطنك نارا ، و الكذب رائحة نتنة تخرج من فمك ، و لكن جميع هذه المظاهر لا ترى الآن ، إلا إذا تغيرت طبيعة الكون ، وحينها يصبح المالنارا ، و الكذب تننا ، و هذا هو العذاب الذي به يكذبون ، و هكذا تكون جهنم محيطة بالكافرين.

[55] [يوم يغشاهم العذاب من فوقهم و من تحت أرجلهم و يقول ذوقوا ما كنتم تعملون] في ذلك اليوم سيغشاكم العذاب من كل حذب و صوب - و جزاؤكم من عين أفعالكم ، و ستذوقون ما كنتم تعملون.

[56] [بعد أن ذكرنا القرآن بشهادة الله التي تكفي عن كل شهادة على صدق رسالاته ، و بين أن الكافرين هم الخاسرون وليس المؤمنون ، و ان تأخير العذاب عنهم لا يعني انه يمكن التخلص منه . كلا .. بل هو موجود فعلا و محيط بهم ، إذ أن أعمالهم هي التي يذوقونها عذابا حين يغشاهم من أطرافهم ، و بالتالي بعد أن هز السياق ضمائرهم أخذ يعالج العقبات التي تعترض طريق الايمان ، و من أبرزها : هيمنة الجبارين ، فأمر بالهجرة عن بلاد الكفر قائلا:

[يا عبادي الذين ءامنوا ان أرضي واسعة فإياي فاعبدون] أنت عبدي و الأرض أرضي ، فاسع فيها و اعبدني ، و لانخضع لسلطة الطغاة ، لانهم يرهبون الناس من الموت ، و على الانسان أن يتحرر من خوف الموت بمعرفة أنه لا ريب ذاته ، حتى يخرج من عبادة الطغاة إلى عبادة الله.

[57] [كل نفس ذائقة الموت ثم اليها ترجعون]

[و الذين ءامنوا و عملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين] [الغرفة هي : الغرف المرتفعة ، و هي قصر المؤمن ، حيث ينعمون بالخلود ، و الشباب ، و الحور العين ، و خدمة الولدان جزاء عملهم وإيمانهم ، و هكذا يكون جزاء العاملين.

[59] [الذين صبروا و على ربهم يتوكلون]

و لكن هذا الجزاء ليس بلا ثمن ، فثمنه الصبر و التوكل ، و هي من صفات المؤمنين . الصبر يعني تحمل الصعاب من أجل مستقبل أفضل ، و التوكل يعني استخراج كنوز الذات من أجل العمل.

[60] [و كآين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم] [من الآيات الأربع الماضية يبين الله حجابان يعيقان فهم الانسان للوصول إلى الحقائق و هما:

الحجاب الأول : حذر الموت

كل حي يتحسس في أعماقه ضرورة الحذر من الموت ، و من أولى ضروريات الحياة البحث عن النجاة و ضمان البقاء ، و لكن قد يصل هذا الشعور إلى درجة المبالغة فتتضخم حتى نكون عبيدا للندبا ، إذن فلا نلقي بأيدينا إلى التهلكة ، و لكن أية ذلة تلك أن نموت ونحن أحياء ؟ !

إن ميزة الحياة الحيوية ، و لفظ الحياة مشتق منها ، فاذا فقدنا الحيوية و النشاط فكأننا أموات ، فالحياة بلا حركة حياة ميتة ، لا روح فيها ، و الانسان بذلك يقتل نفسه بالمجان ، لذلك كان الحذر المبالغ من الموت من أبرز العوائق أمام فهم الحياة و العمل في سبيل الله.

و يعالج القرآن هذه الحالة بدواءين هما:

أ - طرح حقيقة الموت و حتميته ، فكل نفس ذائقة الموت ، و ليس هناك مجال للهرب منه فاسع سعيك ، و استفد من فرص الحياة.

ب - و الموت ليس واقعا مخيفا ، بل إن الخوف هو فكرة مخيفة تعشعش في رأسك ، و الموت ليس ما يحذر منه ، و عندما ترغب في الموت توهب لك الحياة ، و يبقى سلاح الاعدام و التعذيب هما سلاحا الأعداء ، و حين تتحدهما تستطيع أن تختار قرارك بحرية.

الحجاب الثاني : خشية الفقر

إن كثيرا من الناس يحذرون الفقر ، إن درجة تجعلهم يمتنعون عن الانفاق حتى على أنفسهم ، مما قد يصل بهم إلى درجة الشح ، و السبب في ذلك هو نظرهم المادية البحتة ، و تغافلهم عن فكرة العمل ، و الجزاء ، و النية ، فان الله يرزق على قدر النية و الثقة به سبحانه ، و ليس هذا دعوة للأسراف ، بل دعوة للانفاق في سبيل الله ، لكيلا تكون خشية الفقر هو الحاجز الذي يحول دون وصولك إلى الحقيقة ، فعلينا أن نؤمن بحكمة الله و تدبيره ، فان الله لا يضيع أجر عباده المحسنين.

[61] [و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض و سخر الشمس و القمر ليقولن الله فأنى يؤفكون] فإذا يعلمون بحقيقة الخلق ، و الرزق ، و ان الله مدبر الأمور ، فلماذا يبيعون إنسانيتهم من أجل لقمة عيش مغموسة في وحل العبودية ؟ ! فليستنجدوا برب العالمين ، مسخر الشمس ، و صانع الكون ، و عليهم أن يتركوا الغرور و التكبر لحظة ليكتشفوا واقع التخلف و الذل الذي يعيشون فيه.

[62] [الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له إن الله بكل شيء عليم] إن مفاتيح الرزق بيد الله لا بيد الرئيس ، و قبض الروح بواسطة عزرائيل لا الاستخبارات المركزية ، فعليك أن تتحلّى بالرضا و القناعة ، فالله يعلم مقدار حاجتك ، و ما هو الواجب اعطاؤه إياك وفق ما يناسب حكمته ، و القضاء بيد الله ، فان أصابك شيء فلا تحزن ، لان الله سيعوضك خيرا منه بسعيك و جهدك ، و هذه المرحلة لا يصل إليها إلا المؤمنون الحقيقيون.

[63] [و لئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون] و ها هي شواهد الكون تترى ، و دلائل العلم تتوالى ، من أجل تأكيد حقائق الرزق ، و لكنها لا تنفع إلا لمن يعقل هذه الحقائق و يستوعبها ، و هذه وظيفة الإنسان و مسؤوليته ، و بمدى إدراكه و التزامه بها يكون جزاؤه و ثوابه.

و ان الدار الآخرة لهي الحيوان

هدى من الآيات

إن الحياة التي لا تتصل بالآخرة لا تستحق إلا صفة اللهو أو اللعب ، و الفرق بين الصفتين هو : إن اللهو عمل بلا هدف ، بينما اللعب عمل بهدف غير محترم ، و قد تكون حياة امرئ لهوا ، حينما لا يضع لنفسه أهدافا ، أو أن تكون اهتماماته مادية و سطحية و بالتالي غير محترمة كالأكل و الشرب و الجنس.

و الأهداف التي تقتصر على الوصول لمركز حساس ، أو ثروة عظيمة ، أو امتلاك وسائل ترفهية ، دون امتلاك الفاعليات البشرية التي تغير مجرى الأحداث ، هي مجرد أهداف غير محترمة.

و قد يضع الانسان أهدافا لحياته الدنيا ، و لكنه لا يستطيع أن يجزم أن بإمكانه تحقيق هذه الأهداف ، و هل إن الموت سيفصل بينه و بين ما يتمنى ، و حتى لو حققها فهل ستستمر معه طويلا أم لفترة محددة ؟

إن هذه الأهداف هي الأخرى ليست أهدافا جديّة لتعلقها بالحياة الدنيا فقط ، و التي تعتبر لعبا - حسب التعبير القرآني - و ذات مرة كان النبي الأعظم (ص) جالسا بين أصحابه ، فخط على الأرض ثلاثة خطوط ، فقيل له : يا رسول الله ما هذه الخطوط ؟ فقال : هذا ابتداء مشيرا إلى الخط الأول ، و هذه

أمانيه مشيراً إلى الخط الثالث ، فقليل له : و ما الخط الأوسط ؟ فأجاب (ص) : هو الموت الذي يحول بين بني آدم ، و بين أمانيه ، فالعقل هو الذي يجعل الحياة قنطرة للأخرة.

كل إنسان مغطور على معرفة الله سبحانه ، و لكن قد يفصل بينه و بين المعرفة حجب الغفلة و النسيان و الهوى ، فإذا ارتفعت هذه الحجب صارت الرؤية واضحة ، و لناخذ مثالا من واقع الحياة : عندما يمرض ابنك ، و تفتقد الطبيب المعالج ، عندئذ تزول جميع حواجز الجبت و الطاغوت ، و تعرف الله و تتصل به ، و يكون دعاؤك نابعا من صميم فؤادك ، و ما أن يتشافى حتى تنسى الله و نعمته عليك.

فالإنسان لا يعرف الله إلا عند الحاجة ، و عندما تنتهي حاجته تنتهي معرفته معها ، فعندما يركب السفينة ، و يمخر بها عباب المحيطات الشاسعة ، و تتلقفه الأمواج الهادرة ، حينها فقط يتوجه قلبه بكل اخلاص الى الله سبحانه.

إنه الله الذي تلجأ إليه ، و يتصل به قلبك في أوقات الحاجة ، حين تسد جميع الطرق أمامك ، و لا يبقى لك من منفذ من البلاء ، حينها لا يبقى إلا أن تطرق أبواب السماء بدعائك الخالص ، و المشوب بالعجز أمام قدرة الله ، حينذاك ياتيك الرد إليها فتزول جميع العوائق و المشكلات ، و هذه هي آثار الله ، و بها نعرفه.

ثم يبين الله في آخر آيات هذه السورة نعمة الله على أهل مكة حين جعل لهم حرما آمنا و يتخطف الناس من حولهم.

و لكنهم مع وجود هذه النعمة عندهم تراهم يؤمنون بالباطل و يكفرون بالله ، و يكذبون رسوله ، و هذه عادة أصحاب القرى ان يكذبوا و ينسوا ما أنعم الله عليهم به ، بل و قد يتخذون من النعم مادة للفساد.

و بعكس أولئك الذين آمنوا بالله و بالرسول و اتبعوه و عزروه و جاهدوا معه . إن الله ليهديهم سبلهم . جنات تجري من تحتها الأنهار ، و إن الله مع المحسنين ، و سيحيق ربنا بالذين كفروا جهنم و بنس المهاد .

بينات من الآيات

[64] و ما هذه الحياة الدنيا إلا لهو و لعب [

إن الحياة الدنيا بصورتها العادية ، و مقوماتها ، و أبعادها المادية مجرد لهو أو لعب بلا هدف ، فالأهداف الجديدة ترتبط جديتها بمدى ارتباطها بالحياة الآخرة ، و القضايا الغيبية.

[و إن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون] و في الدار الآخرة تتوفر جميع مقومات الحياة من الخلود الأبدي ، و اللذات الجمّة ، و الراحة النفسية الممتزجة بالطمأنينة ، فيتخلص المؤمن من هموم الدنيا ، و مشاغل الحياة.

[65] فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون [تبين هذه الآية الحالات النفسية للإنسان في بعض مواقفه الحياتية ، فحينما اضطر و احتاج إلى الله سبحانه ، أقر له بالحاكمية و السيادة ، و جعل له الولاية و السيطرة على الكون و الحياة ، و هو الذي كان يعارض الرسل ، و يكفر بالله بالأمس ، فما عدى مما بدى !]

و لكن ما أن تطأ قدماه ساحل الأمان ، و يتعد عن الخطر ، و يستغني عن الضرورة ، حتى ينقلب على عقبيه ، و يكفر بالله ، و يشرك به في قدرته و سلطانه ، " فما لله الله ، و ما لقيصر لقيصر " !

كما أن هذه الآية تبين حقيقة وجود الله ، و هيمنته على الكون ، فقد قال رجل للإمام الصادق (ع) : يا ابن رسول الله دلني على الله ما هو ؟ فقد أكثر علي المجادلون و حيروني فقال له : يا عبد الله هل ركبت سفينة قط ؟ قال نعم ، قال : فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ، ولا سباحة تغنيك ؟ قال : نعم ، قال : فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك ؟ قال : نعم ، قال ،

الصادق (ع) : فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي ، و على الإغاثة حيث لا مغيث " (١) إذا أردت أن تعرف الله فاركب الأهوال ، و ستعرف الله حيث لا ينفكك مال ولا بنون ، و حينها يفتح أمامك باب المعرفة الإلهية ، و ترى آثار رحمة الله.

[66] [ليكفروا بما ءاتيناهم و ليتمتعوا فسوف يعلمون] و لقد أنعم ربنا على الإنسان بنعمة العقل و الفطرة و البصيرة ، و لكن الانسان يترك عقله إلى جهله ، و بصيرته إلى عماه ، و فطرته النقية إلى شهواته الشائبة.

و التمتع مجرد اثاره عاجلة لأعصاب الانسان و شهواته ، و المشكلة في الانسان انه (١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ٤١ .

يعتبر المتعة هدفه في الحياة ، و هذا الاعتقاد ناتج من الكفر بالقيم و الغيب و الروح ، و المتعة لا تتعدى بضع ثوان يشعر فيها الانسان بالسعادة الوهمية ، و لكن لا يعلم انه يحتطب على ظهره وزرا ، و لذا جاء في الدعاء : " اللهم إني أعوذ بك من ذنوب ذهبت لذاتها و بقيت تبعاتها. "

و سيعلم الكفار يوم القيامة فداحة الخطا الكبير ، حين فصلوا المتعة عن اطارها السليم ، و فرغوها من مضمونها الرفيع ، و جعلوها ممارسات حيوانية ، تهبط بالانسان إلى حضيض الرذيلة و الشقاء.

[67] [أو لم يروا أنا جعلنا حرما ءامنا و يتخطف الناس من حولهم] [ميزة القرآن انه يستخرج أمثلة من واقع الحياة لا من وهم و خيال ، و لقد كانت الجزيرة العربية عبر التاريخ مسرحا واسعا للنهب و السلب ، و انتهاك الحقوق ، و تضييع الكرامات ، حيث أصبح الانسان لا يأمن على نفسه ، أو ماله ، أو عرضه ، و حتى دينه ، و كان شعار العرب حينذاك السيف ، و دثارهم الخوف ، فمن الله عليهم بنعمة الأمان و الرخاء و الشيع ، و أنزل منهاجه لتنظيم العلاقات الإجتماعية و السياسية و الإقتصادية على أسس العدل و الحرية والتكامل و غيرها من مبادئ الانسانية التي لا يختلف عليها العقلاء ، و لا تختلف مع سمو تطلعات الإنسان و أهدافه.

[افبالباطل يؤمنون و بنعمة الله يكفرون]

فوا عجبا للانسان على جهله و كفره ، و هل هناك شيء أوضح من نعم الله على الانسان لكي يكفر بها ؟!

إن اتباع الهوى ، و السير وراء المصالح و الأهداف الشخصية ، تحول الباطل إلى حقيقة ، و الكفر بالنعم إلى واجب شرعي.

[68] [و من أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين] [أكثر الناس ظلما لنفسه وللآخرين هو من يبنذ القيم الإلهية ، و يستبدلها بقيم بشرية شيطانية ، و أخطر الكفار من أنكر القيم ، و افترى على الله الكذب في أحكامه ، و لذا كان حد منكر الصلاة القتل شرعا ، فالذي يؤمن بالصلاة ولا يقوم بها قد توجد لديه قابلية القيام بها في المستقبل ، أما الذي يكفر بها من الأساس ، و يضع لنفسه تشريعات مزاجية لا يجدي معه إلا حد السيف.

و يكمن الخطر في هذا الانسان حين يلبس الباطل أنواب الحق ، و يفيض على الباطل صيغة السمو و اللالوهية ، و عادة ما تكون دوافع الكفر نفسية كالكبر ، أو الغرور ، أو ترسخ تقاليد الآباء في النفس ، و لكن هل يعتقد هؤلاء إن جهنم لا تكفيهم جميعا ؟! بلى .. إن بهائمى للكافرين و المتكبرين منذ أن خلق ربنا آدم (ع) و إلى يوم القيامة ، و ليس ذلك على الله بعزيز.

[69] [و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين] و يقفز إلى واجهة التفكير سؤال : ماذا نعمل لكي لا نتبدل قيمنا ؟ و كيف نهتدي إلى السبيل القويم ؟

تجيب هذه الآية الكريمة بأن شرط الهداية هو الجهاد ، لأن الجهاد يبعد الانسان عن حب الذات والأنانيات المقيتة ، و عندما يكون الانسان مجاهدا ، فان أبوابالعلم و المعرفة ستكون مشرعة أمامه ، و ما عليه سوى الجد و الاجتهاد.

و الإحسان شرط رئيسي في المحافظة على القيم ، لأنه يبعد الانسان عن استغلال القيم لمصالحه الخاصة ، بل يوجهها نحو خدمة الناس.